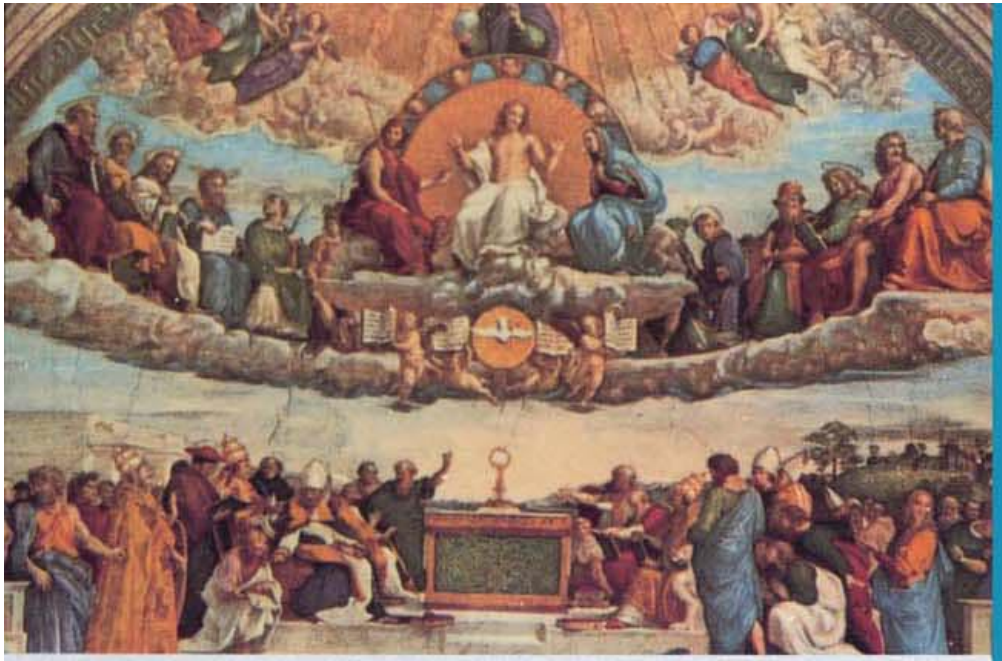

# المسيحية

## رحلة من الحقائق إلى الخيال

حضرة ميرزا طاهر أحمد

المسيحية .. رحلة من الحقائق إلى الخيال

حضرة ميرزا طاهر أحمد

## المسيحية..

### رحلة من الحقائق إلى الخيال

لحضرة ميرزا طاهر أحمد
(رحمه الله تعالى رحمة واسعة)

لقد اكتسبت العقائد المسيحية صورتها الحالية من خلال عملية تغيير ممتدة على تاريخ المسيحية كله تقريبًا. فبدلا من الخوض في الجدل الذي لا نهاية له - فيما يتعلق بمسار هذا التغير الذي طرأ على تلك العقائد - اختار الكاتب دراسة العقائد المسيحية الحالية واختبارها على محَك المنطق والعقل. وبالإضافة إلى موضوعات أخرى، فلقد تم في هذا الكتاب - بشكل مسهب - بحث مسائل أخرى مثل: بنوة يسوع المسيح، الكفَّارة، الثالوث، والمجيء الثاني للمسيح.

## CHRISTIANITY

### A Journey from Facts to Fiction

By

**Late Hadhrat Mirza Tahir Ahmad**

The doctrine of Christianity has acquired its present shape through a process of change that is spread nearly over its entire history. Rather than venture into the endless debate on the course of this evolutionary process the author has chosen to examine the current Christian beliefs primarily on the basis of logic and reason. Among others, the subject of the "Son-ship" of Jesus Christ, Atonement, Trinity, and the second coming of the Messiah have been discussed at length in this book.

ISBN 185372844-6
9781853728440

# المسيحية

## رحلة من الحقائق إلى الخيال

بقلم: حضرة ميرزا طاهر أحمد – رحمه الله –
الخليفة الرابع للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

الشركة الإسلامية المحدودة

اسم الكتاب: المسيحية. . رحلة من الحقائق إلى الخيال

الطبعة الأولى: ١٤٢٦ هـ / ٢٠٠٥م

**Al- Maseehiyyah- Rihlatun minal Haqaaiq Ilal Khiyaal**
**(Christianity - A journey from Facts to Fiction)**
**By: Hadhrat Mirza Tahir Ahmad,** *(May Allah have mercy on him)* **Khalifatul Masih IV**

***Translated in to Arabic from English***
***By: Muhammad Munir Idlibi***

First Published in UK in 2005
© Al-Shirkatul Islamiyyah

Published by:
Al-Shirkatul Islamiyyah
"Islamabad"
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Tilford, Surrey GU10 2AQ

**ISBN**: 1 85372 844 6

# محتويات الكتاب


**كلمة الناشر** أ

**مقدمة المترجم** ج

**لمحة عن حياة المؤلف** هـ

**مقدمة المؤلف** ز

## الفصل الأول

**بُنوّة يسوع المسيح** ١

الأسس العلمية للأبوّة ٢

هل يمكن وجود ابن حقيقي لله؟ ٤

التوالد الخنثوي ٧

التوالد العذري (إمكانية الولادة من عذراء) ٧

ما هي المعجزات؟ ٩

عيسى ابن الله؟ ١٢

## الفصل الثاني

**الخطيئة والكفّارة** ١٩

الكفّارة عن الجنس البشري ٢٠

خطيئة آدم وحوّاء ٢١

استمرار المعاناة البشرية ٢٥
الخطيئة الموروثة ٢٨
انتقال الخطيئة ٣١
استمرارية العقاب ٣٤
العدل والمغفرة ٤٢
لا يمكن ليسوع أن يكفِّر عن أحد ٤٨
تضحية بالإكراه ٥٠
من الذي صُلِبَ؟ ٥٥
معضلة يسوع ٥٧
هل الإله الأب قد عانى أيضًا؟ ٥٩
العقاب بالنار ٦١
التضحية والنعيم الروحي ٦٣
معنى الموت بالنسبة للمسيح ٦٤
معاناة محدودة لخطيئة غير محدودة ٦٧
ماذا غيّرت الكفّارةُ؟ ٦٨

## الفصل الثالث

**دور الروح القدس** ٧١
الروح القدس ومسألة الخَلق ٧٣
غموض أم تناقض؟ ٧٧

## الفصل الرابع


**صَلب المسيح!** ٨١

آية النبي يونان (يونس) ٨٤

وعدُ المسيح لبيت إسرائيل ٨٦

أحداث الصّلب ٨٩


## الفصل الخامس


**إحياء أم قيامة؟** ١٠٧

لغة لاذعة ضد المقدسين ١٢٠

الصّعـــــود ١٢٦

ماذا حدث لجسد عيسى؟ ١٢٧

وجهة نظر المسلمين الأحمديين ١٣٣

حالات من النجاة ١٣٥


## الفصل السادس


**الثـــــالوث** ١٤١

التداخل في عقيدة الثالوث ١٤٣

مظاهر وهيئات مختلفة لشخص واحد ١٤٤

أشخاص مختلفون يتقاسمون الخلود ١٤٦

أشخاص مختلفون بصفات مميزة ١٥١

أشخاص مختلفون بصفات متماثلة ومتساوية ١٥٨

## الفصل السابع


**تطوّر المسيحية** ١٦٣

الأتباع الأوائل لعيسى ١٦٤

دور القديس بولس ١٦٨

حقيقة عيسى ١٧٠

استمرار الدين ١٧٤

قمة التطور الديني ١٧٥


## الفصل الثامن


**المسيحية اليـــوم** ١٧٩

المسيحية والاستعمار ١٨٠

المجيء الثاني للمسيح عيسى ١٨٦

المسيح الموعود ١٩٤

**الخـــاتمـــة** ٢٠٥

**ملحق رقم (١)** ٢١٣

**ملحق رقم (٢)** ٢١٧

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

# كلمة الناشر

الحمد لله الواحد الأحد الذي بفضله تتم الصالحات، والصلاة والسلام على رسوله الهادي إلى الطيبات، وبعد..

فهذه ترجمة كتاب عظيم قد صنّفه بالإنجليزية سيدُنا حضرة ميرزا طاهر أحمد رحمه الله.. الخليفة الرابع للإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام.. لدراسة العقائد المسيحية الحالية واختبارها على مِحَكّ المنطق والعقل.

لقد كان شرف ترجمة هذا الكتاب القيم من نصيب الأستاذ محمد منير إدلبي، فجزاه الله أحسن الجزاء.

ولما كانت مادة الكتاب دقيقة وحساسة جدًّا ومليئة بالأدلة المنطقية الفلسفية الصعبة، وحيث إن مؤلف الكتاب، حضرة ميرزا طاهر أحمد (رحمه الله)، كان يتربّع على عرش البلاغة والبيان، لذا فقد اقتضى الأمر مراجعة الترجمة بدقة متناهية. وقد ساهم في هذا العمل المبارك كل من السادة الأفاضل: عبد الله

أسعد عودة، الدكتور محمد حاتم الشافعي، تميم أبو دقة، عبد المجيد عامر، محمد طاهر نديم، وعبد المؤمن طاهر، جزاهم الله أحسن الجزاء.

نسأل اللهَ تبارك وتعالى أن ينفع بهذا الكتاب عبادَه، ويوفّقهم لمعرفة الحق واتباعه. آمين.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة المترجم

بالحق خلق الله الكون وأقامه، وبالحقيقة تقوم الحكمة وتكون؛ وبالحق والحقيقة يحقق الإنسانُ هدفه الأسمى والغاية من وجوده وكونه؛ وبهما يبني جنّتَه وفردوسَه. ولقد كان للحقيقة دومًا قوتان عظيمتان: قوة الإفناء وقوة الإحياء، فهي عندما تُحيي حقًّا تُفني باطلاً وتُحيله زَبَدًا يذهب جُفاءً، وتُبقي بعده الحقَّ الذي ينفع الناسَ ويمكث في الأرض.

هذا الكتاب هو دفاع عن الحق الذي قامت عليه المسيحية الأولى النقية التي صدع بها المسيح الناصري عيسى بن مريم عليه السلام، وهو لذلك بيان يكشف الحقيقة التي حجَبها تجّار الدين وسماسرة الخلاص، زبانية الترهيب وأصحاب صكوك الغفران.

وكما قلنا فإن بيان الحقيقة هو في حدّ ذاته بيان للحكمة التي حينما تقوم يقوم معها الخلاصُ، وينعَم بها الإنسانُ والبشرية بخير الحق والحقيقة.

ومن هنا أستطيع القول أن هذا الكتاب في حقيقته بيان حُبٍّ صادق مخلص للمسيح والمسيحيين في جميع أنحاء الأرض. هو رسالة حبّ لهم، لأنه يقودهم إلى حقيقة مَن يحبّون، وما يحبّون: المسيح الحق، والمسيحية الحقة.

لقد آن الأوان لأن تُفني المسيحيةُ الحقّة ضلالَ من حرّفها وضيّعها، ولتعود بأجيالها وعالِمها كلّه إلى هداية رب العالمين، فيسبّحون بحمده في الأعالي، وينشرون في الناس المسرّة، وعلى الأرض السلام.

محمد منير إدلبي

# لمحة عن حياة المؤلف

وُلد حضرة ميرزا طاهر أحمد✪ في ١٨ ديسمبر/كانون الأول من عام ١٩٢٨ في قاديان بالهند. هو الخليفة الرابع للإمام المهدي

---

✪ **ولـــد** حضـــرة مرزا طاهر أحمد في قاديان بالهند عام ١٩٢٨ لأبويه مرزا بشير الـــدين محمـــود أحمد والسيدة مريم رضي الله عنهما. وقد نال دراسته الابتدائية في قاديـــان ثم التحق بالكلية الحكومية في لاهور عام ١٩٤٤، بعد مرور بضعة أشهر على وفاة والدته.

وبعد أن تخرّج بتفوق في جامعة المبشرين بربوة، حصل على درجة الشرف في اللغة العربية من جامعة البنجاب.

وقد زار لندن للمرة الأولى عام ١٩٥٥ بصحبة والده الذي أشار عليه بالبقاء فيها لتحســـين لغته الإنجليزية والتعرف على عادات المجتمع الأوربي. وقد التحق بجامعة لندن في قسم الدراسات الأفريقية والآسيوية، حيث قضى عامين ونصف العام. وفي نهاية عام ١٩٥٧ كان قد زار وتعرّف على معظم إنجلترا، وإيرلندا، وإسكوتلاندا، وويلـــز، كمـــا زار أيضا معظم دول أوربا الغربية. وكان هذا ملخصا لدراساته بالإضافة إلى ولعه الشديد بقراءة الكتب التي كثيرا ما كانت خارج نطاق المقررات الدراسية.

كـــان مـــن المقدّر لهذه الخبرة التي اكتسبها في تلك السنوات أن يكون لها أثر هام خـــلال الفتـــرة الـــتي تحمل فيها المسؤوليات الجسام عندما صار إماما للجماعة الإسلامية الأحمدية، وقد تم انتخابه لحمل هذه المسؤولية عام ١٩٨٢ بعد يوم واحد من وفاة الإمام السابق حضرة مرزا ناصر أحمد رحمه الله.

وقـــد اضـــطر مرزا طاهر أحمد لمغادرة باكستان من فوره على إثر القرار المعادي للأحمدية الذي أصدره الجنرال ضياء الحق في ٢٦ أبريل (نيسان) ١٩٨٤، فقرر أن يـــأتي إلى إنجلتـــرا حيث اتخذ مركزا مؤقتا خلال السنوات التي قضاها في المنفى. وخـــلال بضـــع سنوات قام بتدريب الآلاف من الرجال والنساء والأطفال الذين تطوعـــوا لمساعدته في القيام بمسؤولياته في العالم أجمع. وأعظم ما حققه هو إقامة المحطـــة الفضائية MTA أي التلفاز الإسلامي الأحمدي. وقد أمكن من خلال هذه

والمسيح الموعود عليه السلام، والقائدُ الروحي والإداري للجماعة الإسلامية الأحمدية العالمية. وهو أيضًا حفيد مؤسسِ هذه الجماعة حضرةِ ميرزا غلام أحمد القادياني، الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام.

إن اللقب الرسمي لإمام الجماعة الإسلامية الأحمدية هو: خليفة المسيح الموعود عليه السلام.

---

المحطة بث العديد من البرامج التعليمية لمدة أربع وعشرين ساعة يوميا، وهي خدمة تصل إلى جميع قارات الأرض، ناطقةً بمعظم اللغات الرئيسة في العالم. وقد تزامنت أنشطته منذ مغادرته باكستان مع الانتشار السريع والعجيب للجماعة في أكثر من ١٥٠ دولـــة من دول العالم. كذلك فقد تم من خلال MTA بث جلسات "سؤال وجواب" التي كان يعقدها في إنجلترا وأثناء جولاته العديدة في مختلف بلاد العالم.

ويكفي القول إنه بالإضافة إلى كونه زعيمًا دينيًا فإنه أيضا طبيبا حاذقًا في طب الهوموباتي له شهرة عالمية، كما أنه كاتب بارع، وشاعر موهوب، ورياضي فذ. كذلك فإنه راوٍ ماهر للقصص عندما يجالس الأطفال، وله قدرة مدهشة على إشعارهم بأنه واحد منهم.

**ملاحظة:** لقد انتقل حضرته إلى جوار ربه في التاسع عشر من إبريل (نيسان) عام ٢٠٠٣، رحمه الله رحمة واسعة، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون. (الناشر)

# مقدّمـــة المؤلف

إن شخصية المسيح الناصري عليه السلام هي في غاية الأهمية بالنسبة للعالم المعاصر، وأهميتها ليست مقتصرة على العالم المسيحي وحده، بل تتعدى إلى بقية الديانات الكبرى الأخرى ولا سيما اليهودية والإسلام. ولو اتّحدت هذه الأديان الكبرى في فهمٍ مشترَك حول طبيعة شخص المسيح، سواء حول بعثته الأولى أو بعثته الثانية الموعودة، فهذا سيؤدي إلى حلّ كثير من المشاكل التي يُواجهها الجنس البشري اليوم. ولكن للأسف، قد أُسيء كلّيةً فهمُ الحقائق الأساسية المتعلقة بحياة المسيح وهدفِه ومذهبه وشخصيته بصورةٍ جعلت هذه الأديان في خلاف شديد فيما بينها حول هذه المواضيع لدرجة أصبح التصادم المرير بينها أمرًا حتميًّا.

عندما ننظر إلى الحقائق المتعلقة بصلب المسيح، ونفكّر فيما حدث، ولماذا حدث، نجد أن المصادر القديمة المختلفة تحتوي على أجوبة متعارضة متضاربة عن عقيدة الفداء والكفّارة المسيحية، والفلسفة المتعلقة بهما.

لقد رأيت أن أتحدث خاصةً عن هذا الموضوع ومِن وجهة نظرٍ منطقية بحتة، وأعتقد أن المنطق وحده هو الأرضية المشترَكة بين جميع أهل الفرق والأديان، الذي يمكن أن يستخدم للوصول إلى حوار مثمر بنّاء؛ وإلا فإن أي نقاش أو حوار حول الأسس

التي يقدّمها كل كتاب ديني مقدّس – بشكل منفرد – بالإضافة إلى التفسيرات المختلفة لهذه الأسس، لا بدّ أن تؤدي إلى اشتباكٍ جدالٍيٍّ يصعب الخروج منه.

وبالرغم من أنه قد مضى على بعثة المسيح عليه السلام ألفا سنة من الزمن، مع ذلك لم يتم بعدُ التوصلُ إلى حلّ مقبول للجميع، يكون مبنيًّا على الكتب المقدّسة وحدها.

إن أصعب ما في القضية هو أن مصداقية بعض الادعاءات الواردة في تلك الكتب قد اشتبهت بسبب تفسيراتها المتعددة المتباينة، بالإضافة إلى تعقيداتٍ هائلة تنشأ عن المفاهيم المتضاربة التي نمت تدريجا حول الشخصيةٍ التاريخية للمسيح. إن الرؤية من خلال منظور تاريخي يكتنفها عمومًا الغموضُ والإبهام، فمرور ألفي عام على بعثة المسيح يشكِّل عائقًا ليس هيِّنًا أمامَ إدراك وفهمِ أحداثٍ بعيدةٍ بُعدَ زمانٍ بعثته عليه السلام. مما لا شك فيه أن العقل والمنطقَ البشريين المدعومَين بنور المعارف العلمية، ليس لهما جنس ولا لون ولا دين، لأنهما حقيقة مشترَكة بين جميع الشعوب والأديان على السواء، ولذلك فإن المنطق، والمنطق وحده، يمكن أن يكون القاعدة المشترَكة بين الجميع.

ولسوف أسعى في هذا الكتاب أن أفحص المشكلة من جوانب هامة عديدة. واسمحوا لي أن أبدأ أوّلاً بالمسيحية، وأن أنظر إليها كما يراها المسيحيون، ثم أقوم بتحليلها ونقدها تحت عدسة العقل المكبِّرة.

غير أنه لا بد أن أؤكّد أنني لا أقصد أبدًا الإساءةَ إلى المسيحيين أو شخصِ يسوع المسيح عليه السلام، لأنه من مبادئ ديني الأساسية، بصفتي مسلمًا، أن أؤمن بصدق يسوع المسيح بكونه نبيًّا يحظى بمكانة خاصة عند الله تعالى، ويتمتع بمنـــزلة فريدة بين أنبياء بني إسرائيل. ولكن حيثما تتطلّب الحقيقة استخدامَ المنطق الحرّ والعقل السليم والفهم البشري الصحيح فإنه لا يسع المرءَ إلا أن يراجع رأيَه في المسيحية الحالية أخذًا بالاعتبار ما يقتضيه الأمر. وليس قصدي هنا أن أُبعِد المسيحيين عن المسيح، بل بالعكس أودّ أن أساعدهم ليقتربوا أكثرَ من حقيقة يسوع المسيح، ويبتعدوا عن الأساطير المختلَقة حول شخصه عليه السلام.

من الممكن أن يشوّه الزمن ملامح الحقيقة ويحوّلها إلى أساطير وخرافات، والخرافاتُ والأساطير لا تؤدي إلا إلى إبعاد الإنسان عن حقائق الحياة، فيصير الإيمان خياليًّا غير حقيقي، في حين أن جذور الإيمان الحقيقي تكون راسخة في الحقائق والوقائع التاريخية، ومثل هذا الإيمان يكون صادقًا وقويًّا لدرجة أنه يُحدِث تغييراتٍ هامّةً في المجتمع الإنساني.

وفي محاولة لفهم دين المسيح الحقيقي وتعاليمه السليمة الصحيحة لا مناص من تمحيص الحقيقة من الخيال وتمييز الحق من الباطل. إن العثور على الحقيقة هو الهدف الأسمى من بحثي هذا.. وآمل أنكم ستصغون إلي بصبر وتدركون أنني لا أقصد أبدًا الإساءة إلى معتقد أحدٍ أو جرح أحاسيسه.

إن العالم المسيحي في حاجةٍ ماسة إلى نقدٍ بنَّاءٍ لإنقاذه من الانحلال الخُلُقي المشؤوم الذي من الصعبٍ جدًّا صدُّ تيارِه المدمِّر.

وبناءً على تحليلاتي، أرى أن الشباب المعاصر يَفقد إيمانه بالله ﷻ بسرعة هائلة. لقد أتى زمان حين بدأ العلماء (Scientists) يبتعدون عن الله، لأنهم وَجدوا أن الفهم اليهودي – المسيحي للطبيعة كما صوره العهد القديم والجديد مخالف للواقع. إن ماهيّة الكون والأجرام السماوية وما وراءها، كما تُفهَم من دراسة الكتاب المقدّس، تبدو بعيدةً جدًّا عن حقائق الاكتشافات العلمية التي ظهرت للعيان في بداية عصر النهضة؛ ولقد ظل الاختلاف بينهما يزداد باستمرار مع تقدّم العلم ومع تطور الفهم البشري للطبيعة. وقد أدى هذا، بالإضافة إلى عوامل أخرى، إلى ظهور نزعة مهلكة بين فئات المثقفين في المجتمع تنحو نحو الكفر بالله. ثم لما انتشر التعليم في العالم طولاً وعرضًا تحولت الجامعات الكبرى ومراكز التعليم إلى أرضٍ خصبة لتنمية بذور الإلحاد في العالم.

إن معضلة الفهم اليهودي – المسيحي للكون تكمُن في وجود تناقُضٍ واضحٍ عندهم بين قول الله ﷻ وفعله، لذا فقد اتخذ الجدال ضد الإيمان بالله المنحى التالي: هل الله هو خالق الكونِ وكلِّ ما فيه؟ وإذا كان هو واضع قوانين الطبيعة وحافِظها

– حسبما اكتشفت العقول البشرية الباحثة – فكيف يمكن إذن أن يكون ﷻ جاهلاً بهذه الحقائق؟!

عندما يدرس المرء بيان التوراة حول كيفية خلق السماوات والأرض، وكيف خُلق الإنسان من طين، وكيف خُلقت حوّاء من ضلع آدم.... إلخ – وهذان مثالان فقط من بين مجموعة هائلة من التناقضات المحيرة بين قول الله تعالى وفعله – فإنه يندهش ويحتار من التناقضات الكبيرة بين واقعِ نشوءِ الحياة على كوكب الأرض وبيان التوراة المذكور في سفر التكوين.

إن مثل هذه التناقضات قد جعلت الكنيسةَ تتخذ مواقف اضطهادية حين لم ينازعها أحد في سلطتها السياسية. وثمة مثال شهير في هذا الصدد، وهو ذلك النـــزاع الذي حصل بين الكنيسة وجاليليو (١٥٦٤– ١٦٤٢م) عندما نشر اكتشافَه عن النظام الشمسي حيث ثارت الكنيسة غضبًا، لأن هذا الاكتشاف جاء مخالفًا لمفاهيمها حول هذا الموضوع، فأُجبر جاليليو، تحت وطأة الحبس والتهديد بالتعذيب حتى الموت، على إنكار اكتشافاته العلمية. وإلى جانب ذلك فُرضَت عليه الإقامة الجبرية مدى الحياة. وظلت الكنيسة على موقفها تجاه جاليليو حتى عام ١٩٩٢م حين قررتْ أن تبطل حُكمها عليه، وذلك بعد مناقشات دامت اثني عشر عامًا في لجنة خاصّة عيّنها البابا يوحنا بولس الثاني.

لم يصل تأثيرُ هذه التناقضات في أول الأمر إلى الطبقات العامة من المجتمع، بل ظلت لبعض الوقت محدودةً ضمن دائرة ضيقة من المثقفين، ولكن مع انتشار نور العلوم العلمانية قد تضاءل بالتدريج ما أسمَوه "نور المعتقدات الدينية" وتحوَّل إلى ظلام نسبيّ. وفي بداية عصر النهضة (القرن الخامس عشر) ظلت نشاطات العلماء مقتصرة عمومًا على دائرتهم العلمية، ولم تقُم بينهم وبين عامة الناس صِلاتٌ واسعة كما هو مشهود اليوم؛ وهكذا فإن إلحاد هؤلاء العلماء لم يؤثِّر كثيرًا على المجتمع ككل. ولكن لما أصبحت الثقافة العالمية متوافرة لأبناء الأمم المتقدمة، بدأت الأمور المتعلقة بالدين تتغير بسرعة هائلة في الاتجاه الخاطئ، وتَبِعَ ذلك عصرٌ من الفلسفة والمنطق؛ ومع تقدُّم العلوم بدأتْ فلسفات علم النفس والاجتماع تتطور سريعًا، خاصةً في القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وبما أن الفلسفات المادية الجديدة قد اختلطت بالرقي والفكر العلمانيَين، فإنها قد أفسدت أصلَ الدين أي الإيمانَ بالله تعالى.

والحق أن الأخلاق يتحكم فيها ويحميها دائمًا إيمانُ المرء بالله ﷻ. فإذا كان هذا الإيمان ضعيفًا وناقصًا، أو كان فيه خطأ ما، فإن الأخلاق تتأثّر تبعًا لذلك. فمثلاً إذا كان الإيمان بالله تعالى يتعارض مع العقل السليم والمفاهيم العلمية للطبيعة، فإن إيمان الناس يتضاءل تدريجيًا مع ما يصحب هذا من تأثيرٍ سلبيٍ على

أخلاقهم؛ عندها يتحول المجتمع إلى مجتمع إلحادي كليًّا؛ ولكن مع ذلك قد يبقى بعض الأفراد منه مؤمنين بالله.

وليس صعبًا تحديدُ هذا الأمر والتأكدُ من نوعية إيمان المجتمع بالله تعالى. فكلما كان الإيمان ضعيفًا أو ناقصًا كان تأثيره في أخلاق الناس ضعيفًا؛ وإذا ما تصادم هذان الأمران تغلبت الدوافع غير الأخلاقية على الإيمان بالله تعالى.

وبتطبيق هذا المعيار على أي مجتمع ديني في أي مكان من العالم، يمكننا دائمًا أن نحصل على نتائج صحيحة وموثوقٍ بها. فيمكن للمرء أن يضع المجتمع المسيحي المؤمن المزعوم تحت الاختبار ويتساءل فيما إذا كانت القيم المسيحية سائدةً في ذلك المجتمع أم لا؟ فهل المسيحيون مثلاً يعاملون جيرانَهم طبقًا لما تأمرهم به الوصايا العشرُ في كتابهم المقدّس؟ وهل هم في أوقات الأزمات القومية وحالات الحرب إلخ.. يطبّقون المبادئَ المسيحية مع خصومهم؟ وهل يقدم الأبرياء من ضحايا الظلم خدَّهم الأيسر عندما يُصفَعون على خدِّهم الأيمن؟ السؤال هنا: إلى أي مدى يعكس سلوكُ المرء في الحياة صورةَ إيمانه ومعتقده؟ فإذا لم يعكس، فهذا هو بالضبط ما نَعنيه بقولنا: إن إيمانهم بالله ﷻ يتصادم ويتضارب مع أهوائهم ورغباتهم البشرية. وأما إذا حلَّ الإيمان بالله ﷻ محلَّ الصدارة بحيث تكون الدوافع والنوازع البشرية هي التي يُضحّى بها على مذبح ذلك الإيمان والمعتقَد،

عندئذ يمكن للمرء أن يقول عن هذا الإيمان، مهما كانت طبيعته، إنه على الأقل إيمان حقيقي وخالص وقوي.

إن نظرةً سريعة على العالَـــم المسيحي كما هو اليوم واختبارَه على هذا المحكّ للحُكم على نوعية الإيمان بالله، يشكّلان تجربةً محزنة ومخيّبة للآمال. إن ما يُرى على وجه العموم هو تمرّد علني على الإيمان بالله تعالى؛ وأحيانًا يكون هذا التمرّد على شكل ثورة سلبية لا يعبَّر عنها صراحةً. إن التباين بين الإيمان بالله وسلوكِ الأفراد هو الذي يوهم المرءَ بوجود مجتمع ديني من المؤمنين بينما الحقيقة مختلفة تمامًا. وينطبق الأمر نفسه إلى درجة كبيرة على جميع المجتمعات الدينية الأخرى؛ ولكن لا يكون السبب واحدًا دائمًا في كل الحالات رغم تشابه النتائج. فيجب دراسة أحوال كل مجتمع طبقًا لظروفه. ولذلك تكتسب الدراسة التحليلية الصادقة الهادئة المحايدة لطبيعة هذه التناقضات الموجودة بين معتقدات الناس وسلوكهم أهميةً بالغة.

وجدير بالإشارة أيضًا أننا نجد أحيانًا من المعتقدات ما هو منحرف وغير طبيعي. فمثلاً، نجد أن بعض تعاليم التلمود المتعلقة بغير اليهود (Gentiles) والتعاليم الهندوسية لـــ (منوسمرتي) المتعلقة بالطبقة السفلى في المجتمع الهندوسي تصبح نعمةً عظيمة لتلك المجتمعات إذا لم يطبقها أهلُها. وفي بعض الأحيان يكون المعتقد في حد ذاته حسنًا ونافعًا إذا عُمل به، ولكن الناس بأنفسهم

يَفسُدون ويهجرون العمل بهذا المعتقد بحجّة أن العمل به بجدّية صعبٌ جدًّا ويتطلب جهدًا كبيرًا.

بالعودة إلى مسألة المسيحية، نرى أن عقائد المسيحيين في أساسها تتصادم مع حقائق الطبيعة، ولا تنسجم مع ما يتوقعه الإنسان بناءً على العقل والمنطق؛ ومن هذا المنظور، كان من الطبيعي أن يتخلى المسيحيون تدريجيًا عن الأخذ بمعتقداتهم بجدّية وعن أن تصوغ هذه المعتقداتُ حياتَهم وتؤثر في سلوكهم.

# الفصـــــل الأول
# بُنوّة يسوع المسيح

إن علاقة الأب والابن بين الله تعالى ويسوع المسيح أمر أساسي في العقيدة المسيحية. ولنحاول أولاً أن نفهم المراد من كون يسوع المسيح ابنًا لله بالمعنى الحرفي للكلمة.

عندما نركّز على معنى كون أحد ابنًا حقيقيًّا لأبٍ حقيقي تواجهنا أمورٌ تضطرّنا لأن نراجع رأينا في مسألة بنوة يسوع المسيح.

ما هو المراد بالابن؟ إن الإجابة على هذا السؤال كانت غامضة حينَ لم يكن العلم قد تطوَّر ولم تُعرَف بعد حقيقة وكيفية ولادة الطفل. كان القدماء يعتقدون أنه من الممكن فعلا أن يكون لله تعالى ولد من ولادة بشرية! وكان هذا الاعتقاد سائدًا في جميع المجتمعات الوثنية في مختلف أنحاء العالم. إن الميثولوجيا اليونانية حافلة بمثل هذه الخرافات، ولا تختلف الميثولوجيا الهندوسية عنها في هذا الأمر، لأن العقل البشري ما تحدّى قطُّ بصورة جدية الاعتقادَ القائل بأن للآلهة المزعومة أبناءً وبنات كما يحلو لها. أما الآن فقد تطور العلم إلى مستوى عالٍ بحيث يمكن وصفُ عملية الولادة البشرية بتفصيل دقيق أكثر من أي وقت مضى، بحيث أصبحت مسألة بنوة البشر للآلهة غايةً في

التعقيد، وأصبح أولئك الذين يعتقدون للآن بإمكانية ولادة بنات وأبناء حقيقيين لله تعالى يواجهون اليوم مشاكلَ عويصة تقتضي منهم الحلول، وكذلك أسئلةً مستعصية يتحتّم عليهم الإجابة عليها.

## الأسس العلمية للأبوّة

دعُوني أذكِّرْكم أوّلاً بأن الأم والأب يشتركان سويًّا في إنجاب الطفل، حيث إن خلايا البشر تحتوي على ٤٦ كروموسومًا تحمل جينات أو صفات وراثية للحياة. وتحتوي بويضة المرأة الأم على ٢٣ كروموسومًا فقط، أي نصف عدد الكروموسومات الموجودة في كل إنسان ذكرًا وأنثى. وعندما تكون بويضة المرأة جاهزةً ومهيأةً للإخصاب يدخلها الحيوان المنوي الذكري فيلقحها ويمدها بالعدد الباقي من الكروموسومات. هذا صنعُ الله، وإلا فإن عدد الكروموسومات سيتضاعف مع كل جيل جديد، ونتيجة لهذا التضاعف سيصبح لدى الجيل التالي ٩٢ كروموسومًا، وهكذا دواليك؛ وسرعان ما سيتحول أبناء الجنس البشري إلى عمالقة، وتتحول عملية نمو الجنس البشري كلها إلى فوضى. وكيلا يحدث ذلك فقد قدّر الله ﷻ وبصورة جميلة جدًّا لظاهرة بقاء الجنس البشري بأن تحمل خلايا الإخصاب لكلٍ من الذكر والأنثى نصف عدد الكروموسومات الموجودة في الخلايا الأخرى، أي تشمل بويضة الأم على ٢٣ كروموسومًا فقط

ومثل ذلك لدى الحيوان المنوي للأب. وعلى هذا فإنه يمكن للمرء أن يتوقع - إلى حد معقول - أن يحمل الطفل نصفَ الصفات الوراثية من الأنثى والنصفَ الآخر من شريكها الذكر. وهذا هو المعنى الحرفي للابن. وليس ثمة تعريف آخر يمكن إطلاقه على أيّ مولود بشري. طبعًا قد يكون هناك بعض الاختلافات في موضوع البحث، ولكن ليست هناك استثناءات في القواعد والأسس التي شرحناها آنفًا.

وما دمنا نركّز على ولادة يسوع المسيح، دعونا نرسمْ صورة لما يكون قد حدث في قضيته. إن أول احتمال يمكن الأخذ به من الناحية العلمية هو أن البويضة غير الملقَّحة لمريم عليها السلام قد زَوَّدت الجنين بـــ ٢٣ كروموسومًا فقط، وهي حصة الأم في عملية تكوين الجنين. وإذا كان الأمر كذلك فالسؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف تم إخصاب البويضة، ومن أين جاءت بقية الكروموسومات الـــ ٢٣ اللازمة لتكوين الخلية الكاملة؟

من المستحيل الافتراض بأن خلايا عيسى عليه السلام كانت تحتوي على ٢٣ كروموسومًا فقط. إذ لا يمكن لمولود بشري طبيعي أن يولد حيًّا حتى بـــ ٤٥ كروموسومًا، بل إن أيّ كائن بشري إذا نقص منه حتى كروموسوم واحدٌ من الـــ ٤٦ كروموسومًا الأساسية اللازمة لخَلقه الطبيعي، فإن ما ينتج - لو نتج منه شيءٌ أصلاً - سيكون مشوَّهًا.

وعلميًّا، ما كان بإمكان مريم وحدها أن تُزوِّد الجنين بـــ ٤٦ كروموسومًا، وكان لا بدّ لها من أن تأتي بالـــ ٢٣ الأخرى من طرف آخر. وإذا كان الله ﷻ هو الأب فإن ذلك سيضع أمامنا اختيارات متعددة:

الأول: هو أن تكون لله ﷻ الكروموسومات نفسها التي هي للبشر، وفي هذه الحالة لا بدَّ أن تكون هذه الكروموسومات قد انتقلت بطريقة ما إلى رَحم السيدة مريم عليها السلام؛ الأمر الذي لا يمكن تصديقه أو قبوله. إذ لو كان لدى الله الكروموسومات البشرية فهذا يعني أنه لم يَعُد إلها. لذا فإن ما ينتج عن الاعتقاد بأن يسوعَ ابنُ الله الحقيقي هو أن ألوهية الأب أيضًا أصبحت عرضة للخطر.

والاحتمال الثاني هو أن الله تعالى قد خلق الكروموسومات الإضافية كظاهرة خارقةٍ للعادة في الخَلق؛ وبعبارة أخرى فإن هذه الكروموسومات ما كانت تخصّ شخصَ الله ﷻ، بل خُلقت بشكل إعجازيّ. وهذا سيؤدّي بنا تلقائيًّا إلى رفض صلة يسوع بالله تعالى صلةَ الابن بالأب؛ وستنتج عنه الصلة الكونية الشاملة بالله تعالى، وهي صلة كل مخلوق بخالقه.

## هل يمكن وجود ابن حقيقي لله؟

من البين أن البُنوّة الحقيقية لله تعالى مستحيلة، لأن الابن الحقيقي يجب أن يحمل نصف كروموسومات أبيه ونصف

كروموسومات أمه. ولو افترضنا ذلك جدلا، فتواجهنا مشكلة أخرى، لأن الابن في مثل هذه الحال يجب أن يكون نصف إنسان ونصف إله؛ ولكن الذين يؤمنون بالبُنوّة الحقيقية لله يزعمون بكل إصرار أن المسيح كان إنسانًا كاملاً وإلـــهًا كاملاً في الوقت نفسه!

أما لو أن الكروموسومات كانت نصف العدد المطلوب لَـــما بقيت أمامنا أية مشكلة، لأنه ما كان لطفل أن يولد نهائيًّا. ولو افترضنا أن ذلك حدث فعلاً فإن ذلك الطفل لن يكون سوى نصف إنسان، لأنه حتى لو نقص جين واحد داخلَ كروموسوم واحد – ناهيك عن نقصان ٢٣ كروموسوما كاملة — فإنه يمكن أن يدمر الطفل المولود ويلحق به عيبا خلقيا فتّاكًا، فإنه سيولد أعمى أو أصمّ أو أبكم أو فاقدَ الأطراف، وتكون الأخطار المصاحبة لمثل هذا الحادث التعيس كثيرة لا حدَّ لها.

على المرء أن يكون واقعيًّا، إذ يستحيل على العقل البشري السليم أن يقبل أن يكون لله ﷻ أية كروموسومات سواء بشرية أو غيرها.

فمع استحالة الدور الجسدي لله تعالى في ولادة عيسى، علينا أن نسلّم أنه إذا وُلد لمريم ابنٌ فإنه سوف يحمل فقط صفات الجينات الإنسانية التي اشتملت عليها بويضتها. وعلى أية حال فإنه لن يكون ابنًا لله، وفي أحسن الأحوال يمكن أن يوصف هذا الشخص الغريب في طبيعة خلقه بنصف إنسان وليس أكثر! فلو

كانت أعضاء التناسل لدى السيدة مريم – عليها السلام – مثل أية امرأة أخرى، ومع ذلك كانت البويضة قد أُخصبت بنفسها بطريقة ما فإن أكثر ما يتوقعه المرء هو خَلق كائن يحمل نصف الصفات البشرية فقط. ومن القباحة بمكان أن يُدعى هذا الكائن ابنَ الله!

إذًا كيف وُلد المسيح عليه السلام؟

نعلم أن بحوثًا متعلقة بالولادة من الأم فقط ودون مشاركة الذَّكَر جارية اليوم في كثير من دول العالم المتقدّم؛ ولكن لا زالت المعرفة البشرية في مرحلة لم يتقدم فيها البحث العلمي بعد بحيث يمكن تقديم شواهد قطعية على إمكانية الولادة من عذراء في الجنس البشري، غير أن هذه الإمكانية لا زالت مفتوحة.

في الطبقات الأدنى من الكائنات الحية، هناك ظاهرتان ثابتتان علميًّا وهما: التوالد العذري والتوالد الخنثوي. وعلى هذا فإن ولادة المسيح الإعجازية من السيدة مريم العذراء – عليهما السلام – يمكن أن تُفهَم على أنها تشابه إحدى هذه الظواهر الطبيعية النادرة التي لم يتمكن الإنسان بعد من أن يسبر غورها ويفهمها.

وفيما يلي وصفٌ مختصر لظواهر التوالد العذري والتوالد الخنثوي. ويمكن للقرّاء المهتمين بالدراسات الأكثرِ علميةً والمبنيةِ على الفهم الحديث لهذا الموضوع، أن يرجعوا إلى الملحق ٢ في آخر هذا الكتاب.

## التوالد الخنثوي

ويحدث هذا عندما تمتلك الأنثى الواحدة أعضاءَ كلا الجنسين، وتبدي الكروموسوماتُ صفاتِ الذكر والأنثى على السواء مرتبطةً بعضها ببعض. وقد كشفت الاختبارات عن حالات لأرنب عنده كلا عضوي التناسل؛ ففي مرحلة من المراحل تزاوج هذا الأرنب مع العديد من الإناث وتسبب في ولادة أكثر من ٢٥٠ مولودًا من كلا الجنسين؛ وفي مرحلة أخرى حمَل "الأرنبُ نفسه" دون أي اتصال بأي ذَكَرٍ وأنجب سبعةَ صغار تامة الخلق من كِلا الجنسين. وعند تشريح هذا الأرنب وُجد أن لديه مبيضين يعملان بصورة طبيعية وكذلك وجد لديه خصيتان عقيمتان❁. وتشير الدراسات الحديثة إلى أن وجود مثل هذه الظاهرة أمر ممكن لدى الجنس البشري ولو بصورة نادرة.

## التوالد العذري (إمكانية الولادة من عذراء)

وهو تطور غير جنسي أو غير تزاوجي لبويضة الأنثى يؤدي إلى إنتاج الوليد دون وساطة الذَّكَر. وهي ظاهرة ملحوظة في كثير من أشكال الحياة الأقل تطوّرًا مثل حشرات المَنّ (الأَرْقة) والسمك. وكذلك توجد شواهد على أن التوالد الذاتي

❁ أي كانت خصيتاه عقيمتين وقت عملية التشريح في حين كانتا نشطتين في المرحلة الأولى عندما تزاوج مع الإناث. (المترجم)

(المستقل) يمكن أن يكون الوسيلة الاستراتيجية الناجحة للتكاثر عند السحالي التي تعيش في مناطق يقل فيها هطول الأمطار أو يكون غير متوقع. وقد تم في المختبرات العلمية تطويرُ أجنّةِ فئرانٍ وأرانبَ بطريقة التوالد غير الجنسي إلى فترة تساوي نصف فترة الحمل الطبيعي، ولكنها أُجهضت بعد هذه الفترة. كما جاء في دراسات حديثة أنه يمكن تنشيط عملية تكوين أجنة بشرية أحيانًا بطريقة التوالد الذاتي باستعمال "الكالسيوم أيونو فور" كمادة محفِّزة.

إن مثل هذه الأبحاث تدعم فكرة أن بعض حالات الإجهاض المبكر أثناء الحمل البشري قد تكون بسبب أن الجنين قد تشكل فيها بطريق التوالد العذري.

على أية حال، أثبتت البحوث التجريبية الحديثة أن الولادة العذرية ممكنة من الناحية العلمية، حيث نشر في مجلة "مورِّثات الطبيعة" (Nature Genetics) عدد أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٥م تقرير يبحث في حالة غير عادية لطفل عمره ثلاث سنوات؛ نتج من بويضة غير ملقّحة. وقد فحص الباحثون ترتيب (DNA) في كل الكروموسومات الجنسية (X) في خلايا جلد الولد ودمه، واكتشفوا أن الكروموسومات X في جميع خلاياه كانت متطابقة بعضها مع بعض، وجميعها مشتقّة من أمّه فقط. وهكذا فإن المكونات الوراثية لـــ أزواج الكروموسومات الـــ ٢٢ الأخرى في دمه كانت أيضًا متطابقة ومشتقة بكاملها من أمّه.

## ما هي المعجزات؟

ما دامت إمكانية الولادة من عذراء مفتوحةً وواسعة، بحيث لم تعد أمرًا مستحيلاً أو غير طبيعي فما الحاجة للبحث عن تفسير خارق لولادة عيسى، أو أن نذهب أبعد من ذلك إلى أقصى تطرّف في الاعتقاد بولادة ابن حقيقي لله من خلال ولادة بشريةٍ؟ فحين نلاحظ هذه الظواهر المختلفة المشار إليها على أنها حقائق طبيعية، لماذا يصعب تصديق ولادة المسيح عيسى كظاهرة طبيعية خفيّة علينا أظهرها الله بتقديره الخاص؟

لقد حدث شيء ما للسيدة مريم، فأدّى إلى ولادة ذلك الطفل ولادة إعجازية دون أن يمسّها رجل. هذا هو ما حدث بالضبط بحسب اعتقاد المسلمين الأحمديين. وإن اعتقادنا هذا راسخ لا يتزعزع، لأنه لا يمكن لعالِم أن يرفضها بحجة أنها مخالفة للعقل أو معارضة لقوانين الطبيعة المعروفة.

إن الإسلام لا يرى المعجزات على أنها حوادث خارقة أو غير طبيعية، بل يعتبرها ظواهر طبيعية تخفى على المعرفة البشرية في فترات زمنية معينة، وإلا لَبَرَزتْ أسئلةٌ كثيرة حول حكمة الله. إذا كان الله هو الذي خلق قوانين الطبيعة، فلا بدّ أن يكون قد دبّر الأمر بحيث يمكنه ﷻ أن يأتي بحلول مطلوبة لمشكلة ما دون أن يخرق تلك القوانين.

الإنسان لا يعرف قوانين الطبيعة كلّها. وهناك فئات من القوانين تعمل وكأنها في صفوف مختلفة وعلى مستويات

منفصلة. وفي بعض الأحيان يراها الإنسان على مستوى واحد فقط ولا تقدر نظرته على سبر غور ما وراء ذلك. وتزداد المعرفة البشرية مع مرور الوقت، وكذلك تزداد قدرته لسبرِ عمق العلوم والمعارف، كما تزداد قدرته على إدراك تلك القوانين التي كانت خافية عليه إلى ذلك الحين. ومع التقدم العلمي تُلقي الاكتشافاتُ الجديدة المزيد من الضوء على مثل هذه القوانين التي تبدو وكأنها تعمل ضمن مجموعات. وهكذا يصبح عملُ هذه القوانين وتفاعلها مع بعضها الأخرى أيسَرَ فهمًا وإدراكًا.

الأمور التي كانت تبدو كالمعجزات في العصور القديمة لم تعد كذلك في العصر الحاضر. وعليه فإنَّ المعجزات تبدو كذلك فقط بحسب معرفة الإنسان في فترة محدّدة من الزمان. وعندما تظهر للعيان قدرة إلهية بصورة خارقة يبدو وكأن قانونًا قد خُرِق، ولكن الأمر غير ذلك؛ لأن الحقيقة أن قانونا خفيًا كان موجودًا مسبقًا ولكنه بدأ يعمل الآن بأمر الله ﷻ، والناس في ذلك الزمان لم يفهموا ذلك القانون، كما لم تكن لهم أية سيطرة عليه. فمثلاً القوة المغناطيسية لم تكن معروفة للإنسان قبل آلاف قليلة من السنين؛ فلو أن شخصًا اكتشفها صدفةً واخترع جهازًا تمكن بواسطته من رفع الأشياء دون أي سبب ظاهرٍ مُدْرَكٍ بالعين المجرّدة، فلا بدّ أن يثير ذلك الاختراع إعجابَ وحيرةً ودهشة كل من يراه بحيث يصيح مذهولاً: "معجزة.. معجزة".

وأما اليوم فإن مثل هذه الحِيَل والخدَع تُعتبر أمرًا شائعًا بل بسيطًا جدًّا أيضًا.

إن معرفة الإنسان محدودة، ولكن علم الله ﷻ لا حدود له ولا نهاية. ولو أن قانونًا ما عمِل بما هو خارج عن نطاق معرفة الإنسان فإنه سوف يبدو معجزةً، ولكن عندما ننظر إلى الوراء إلى مثل تلك الأحداث وندرك حقيقتها بعد حدوثها بناءً على العلم الذي حصلناه حينئذ، فإنه يمكننا أن نستبعد كل ما يُسمى خرقًا لقوانين الطبيعة، ونعتبرها ظواهر طبيعية بحتة لم يستوعبها الإنسان في ذلك الزمان.

ولهذا السبب قلتُ: لا بدّ أن تكون هناك ظاهرة طبيعية مسؤولة عن الولادة الأُحادية للمسيح عيسى عليه السلام، التي كانت مجهولة لأهل تلك الفترة من الزمان؛ والتي ليست معروفة تمامًا للناس حتى يومنا هذا أيضًا. ولكن العلم لا يزال يتقدم في هذا الاتجاه ولا يزال يُفهم المزيد عن هذا الموضوع يومًا بعد يوم. لذا فسيأتي يوم حين لن يكون بوسع أحد أن يزعم أن ولادة عيسى المسيح كانت غير طبيعية، بمعنى أنها كانت مخالفة لقوانين الطبيعة، بل سوف يضطرّ الجميع إلى الاعتراف بأنها كانت طبيعية ولكن نادرة الحدوث جدًّا بحيث إنها قلما تحدث في البشر.

## عيسى ابن الله؟

ثمة مشاكل أخرى كثيرة تتعلق بالفهم المسيحي لعيسى، منها: طبيعته وصلته بالله. ما يبرز من الدراسة التحليلية النقدية للعقيدة المسيحية هو أن لله ابنًا يملك صفات الإنسان الكامل، وصفات الإله الكامل أيضًا. علمًا أنه، حتى حسب العقيدة المسيحية، ليس الأب مثل الابن تمامًا، فالإله الأب هو إله كامل وليس رجلاً كاملاً، بينما الإله الابن هو رجلٌ كامل وإله كامل أيضًا. ففي هذه الحالة هناك كائنان مختلفان بصفات مختلفة.

ويجب الاعتراف بأن هذه الصفات ليست قابلة للنقل أو التحوّل، في حين توجد في بعض العناصر صفات قابلة للنقل والتحوّل. فالماء مثلاً يمكن أن يصير ثلجًا أو بخارًا دون أن يسبب ذلك تغيرًا في مادة الماء أو تركيبه. ولكن نوعية الاختلاف في صفات الله والمسيح – حيث تضاف صفات معينة لواحد منهما – هي غير قابلة للتوافق. إذ ليس من الممكن لأحدهما أن يمر من هذا التحوّل و يبقى مع ذلك غير متميّز عن الآخر. والحقيقة أنها مشكلة عويصة وخطيرة فيما يتعلق بمسألة الاعتقاد بكون يسوع المسيح إلـــهًا كاملاً بالإضافة إلى كونه إنسانًا كاملاً. ولو كان يتحلى بهاتين الميزتين حقًّا، لكان بالتأكيد مختلفًا عن الأب الذي لم يكن إنسانًا كاملاً إطلاقا؛ ولا حتى إنسانًا غير كامل.

فأي نوع من الصلة كانت هذه؟ هل كان الابن أعظم من الأب؟ ولو أن هذه الصفة الإضافية لم تجعل الابن أعظم لكانت

نقيصةً أو عيبًا؛ وفي هذه الحالة فإن الإله الابن الناقص ليس مناقضًا لإدعاء المسيحية فحسب، بل مناقضًا أيضًا للمفهوم العام لله.

إذن كيف يمكن لأي إنسان أن يفهم هذا التناقض في العقيدة المسيحية التي تريدنا أن نؤمن بأن الإله الواحد في ثلاثة والثلاثة في واحد هم الشيء نفسه دون أي اختلاف على الإطلاق! هذا يمكن أن يحدث في حالة واحدة فقط، وهي ألا تكون العقيدة مبنية على أسس وقواعد حقيقية بل على خرافات وأساطير فقط.

وهناك مشكلة أخرى أيضًا يجب حلُّها:

إذا كان عيسى صار ابنًا لله لولادته من رحم السيدة العذراء مريم، فماذا كان مقامه قبل ذلك؟ وإذا كان ابنًا لله منذ الأزل دون أن يُولد من السيدة مريم، فما الداعي إذن أن يولد في صورة بشرية؟ وإذا كان ذلك ضروريًا فهذا يعني أن صفة الابن لم تكن أزلية؛ بل أصبحت صفةً مُضافة بعد أن وُلد من البشر، ثم اختفت عنه بعد أن خلع الجسدَ البشري وعاد إلى السماء. وهكذا فهناك تعقيدات كثيرة تنشأ عن اعتقاد ترفضه الفطرة البشرية السليمة.

إنني أدعوكم ثانية إلى أن تقبلوا فهمًا أكثرَ واقعيةً وإكرامًا للمسيح عيسى وهو أن ولادة المسيح عيسى كانت خَلقًا خاصًّا قَدَّره الله ﷻ بتنشيط بعض القوانين الطبيعية المخْفيّة. كان عيسى ابنًا لله بالمعنى المجازي حيث إن الله تعالى قد أحبه بشكل

خاص؛ ولكنه كان بشرًا محضًا في جميع أحواله، وأن مقامه كابن قد أُلحق بشخصه بعد حوالي ٣٠٠ سنة من دعواه، بُغيةَ إضفاءِ صبغةِ الاستمرار على أسطورته، وسنناقش هذا الموضوع لاحقًا.

إنَ طبيعة الصلة الزواجية بين الله (الأب) ومريم لَموضوع يأنف الإنسان من البحث فيه، ومع ذلك فإن محاولة فهم دور الوسيط الذي لعبته مريم بين "الأب" و"الابن" لهي شرٌّ لا يمكن تجنُّبه. ولربما هو ذاته السؤال الذي أقلق وأزعج "نيتشه" كثيرًا حتى نفَّس أخيرًا عن عدم رضاه المكبوت حول هذا الموضوع بالكلمات التالية:

"وبعد وقت قصير حرّر زرادشت نفسه من المشعوذ، غير أنه شاهد ثانية قربَ الطريق الذي كان يجتازه رجلاً جالسًا طويل القامة قاتم اللون بوجه شاحبٍ مُنْهَك. هذا الرجلُ أغاظه كثيرًا. فقال في قلبه:"آه، هاً هي مصيبة متنكرة، ويبدو أنها من النوع الكهنوتي: ماذا تُراهم يريدون في مملكتي؟..... قال: كائنًا من كنتَ أيها المسافر، أَنقذْ هذا الذي ضلّ السبيل، الرجلَ العجوز الذي يمكن أن يكونَ قد أتى هنا بنية الإيذاء! إن العالَم هنا غريب وبعيد بالنسبة لي. أسمع زمجرة الحيوانات البرّية؛ أما الذي كان يستطيع أن يضمن لي الحماية فقد غاب. كنتُ أبحث عن آخرِ رجل تقي، قديس وراهب، وحيد في الغابة لم يسمع بعد عما يعرفه العالَم كلُّه اليوم.

سأل زرادشت قائلا: "ما الذي يعرفه العالَم كلُّه اليوم؟ ربما يعرف أن الإله العجوز الذي آمن به العالَم ذات مرة لم يعُدْ حيًّا؟"

"هو كذلك"، أجاب الرجل العجوز بحزن. "ولقد خدمتُ أنا ذلك الإله العجوز حتى آخر لحظة من عمره، ولكنني الآن قد تقاعدت عن الخدمة، وأنا بدون سيد ومع ذلك فأنا لست حرًّا، كما لست سعيدًا ولا لساعة واحدة إلا في الذكريات. وهذا هو سبب تسلّقي لهذه الجبال، لعلّي أقيم احتفالاً مرة ثانية على الأقل كما يليق بـــ (بابا) عجوز وأب كَنَسيٍّ. واعلمْ أنني آخر (بابا)، وأنني سأقيم احتفال ذكريات تقيّة وخدمات إلهية. ولكن أتقى الرجال ذلك القديسَ في الغابة الذي اعتاد باستمرار أن يمجّد إلهه بالأناشيد والتمتمات بنفسه قد مات الآن. عندما وجدتُ كوخه لم أجده فيه، وإنما وجدت ذئبين في الكوخ يعويان على موته، لأن جميع الحيوانات قد أحبتْه. ثم انطلقتُ أبتعد مسرعًا. أتراني جئت إلى هذه الغابات والجبال عبثا؟ ثم قرّر قلبي أن يبحث عن آخر.. عن أتقى أولئك الذين لا يؤمنون بالله.. أن أبحث عن زرادشت!"

هكذا تكلّم الرجل العجوز وحدّق بعينين ثاقبتين بالرجل الواقف أمامه. وأمسك زرادشت بيد البابا العجوز لزمن طويل تقديرًا وإعجابًا، ثم صاح قائلاً: انظر أيها الرجل المحترم، يا لها من يد طويلة وجميلة! إنها يد شخص كان يمنح البركات دائمًا،

ولكنها الآن تُمسك بشدةٍ مَن تبحث عنه وهو أنا، زرادشت. إنه أنا زرادشت الملحد الذي يقول: مَن ذا الذي هو أكثر مني إلحادًا، لعلي أبتهج وأطرب بتعاليمه؟"

هكذا تكلم زرادشت وأدرك بنظره الثاقب أفكارَ ونوايا البابا العجوز، وأخيرًا بدأ الآخر يقول: "إن ذاك الذي أحبَّه وامتلكَه أكثرَ من كلّ شيء، هو الذي أضاعه الآن أكثر من كل شيء آخر." وقال: " ألستُ أنا الأكثر إلحادًا من بيننا الآن؟ ولكن من الذي عساه أن يحتفل ويبتهج بذلك!

وبعد صمت عميق سأل زرادشت بتفكّر: "لقد خدمتَه حتى النهاية، أتعرف كيف مات؟ هل صحيح ما يقولون إن الشفقة قد خنَقتْه؟ وأنه رأى كيف عُلّق إنسان على الصليب و لم يستطع تحمّل ذلك فمات! وأن حُبَّه للإنسانِ أصبح جحيمَه ثم في النهاية موتَه؟"

ولكن البابا العجوز لم يُجبْ، بل نظر بعيدًا باستحياء وبتعابيرِ وجه قاتمة متألمة. "دعني أذهبْ"، قال زرادشت بعد تأمل طويل تابعَ خلاله التحديقَ مباشرة في عين الرجل العجوز، "دعه يذهبْ، لقد انتهى. ورغم أنه يشرّفك أن تذكر هذا الإلهَ الميّت بالخير فقط فأنت تعرف تمامًا، كما أعرف أنا، من كان هو؛ وأنه قد سلَك طرقًا غريبة!"

فقال البابا العجوز مبتهجًا: "بيني وبينك، أو بتعبير آخر "كلامًا تحت العيون" (لأنه كان أعور العين) إنني في المسائل

الإلهية أكثرُ معرفةً من زرادشت نفسه، ويمكنني أن أكون كذلك تمامًا. لقد خدمه جيي سنوات طويلة، وخضعتْ إرادتي لإرادته تمامًا. إن الخادم الجيد، على كل حال، يعرف كل شيء، بالإضافة إلى أشياء كثيرة أيضًا يخفيها سيدُه عنه. لقد كان إلـــهًا مخفيًّا مليئًا بالأسرار. والحق أنه قد جاء بواسطة ولد (ابن) ومن خلال واسطة سريّة غير مباشرة. وعلى باب الإيمان به يقف الزنى. إن كل من يمجّده على أساس أنه إله الحب فلا يسمو فكره عن الحب ذاته. ألم يُردْ هذا الإله أن لا يحاكَم؟ ولكن المحبّ يحب دون اعتبار للمكافأة أو الجزاء. عندما كان صغيرًا – هذا الإله الذي هو من الشرق – كان قاسيًا وانتقاميًا، وخلق لنفسه جحيمًا من أجل مسرة أصفيائه، ولكنه مع مرور الزمن ازداد هرمًا ولينًا ورقّةً وعطفًا وكجَدٍّ أكثرَ منه كأب، بل كجَدّة عجوزٍ منهارة. ثم جلس واهنًا ضعيفًا قرب زاوية مدفأته يُدَلّك قدميه المتعَبتين، مرهَقًا من العالم، مرهقًا من الإرادة، ثم اختنق ذات يوم بسبب شفقته المتزايدة!"

("هكذا تكلم زرادشت" Thus spoke Zarathustra، لـــ فريدريك نيتشة ص٢٧١– ٢٧٣ ترجمة وطباعة: Penguin books 1969).

# الفصـــل الثـــاني
# الخطيـــئة والكفّـــارة

والآن نعمد إلى العنصر الثاني والهام جدًّا في العقيدة المسيحية، ولكن لا بدّ أن أوضّح أن المسيحيين لا يؤمنون كلهم تمامًا بما سنعرضه فيما يلي، حتى بعض رؤساء الكنائس قد تراجعوا عن الحالة التعصّبية المتصلّبة للكنيسة. ومع ذلك فإن فلسفة الخطيئة والكفّارة هي المبدأ الأساسي في الإيمان المسيحي التقليدي العام.

إن أول عنصر في الفهم المسيحي للخطيئة والكفّارة، هو إن الله عادل، ويمارس العدل الطبيعي، وهو لا يغفر الخطايا دون أن يوقِع الجزاء؛ لأن ذلك يكون مناقضًا لمقتضيات العدل المطلق. وهذه الصفة الخاصة بالله جعلتْ عقيدة الكفارة عند المسيحيين أمرًا ضروريًّا.

والعنصر الثاني هو إن الإنسان خاطئ، لأن (أبويه) آدم وحوّاء قد أخطآ، ونتيجة لذلك فإن ذرّيتهما ورثت الخطيئة، وكأنها قد أُوْدِعت في جيناتهم، ومنذ ذلك الوقت فإن جميع أبناء آدم يولدون خاطئين بالوراثة!

والعنصر الثالث في هذه العقيدة هو أن الشخص الخاطئ لا يستطيع أن يكفّر عن خطايا شخص آخر إلا إذا كان بنفسه بلا خطيئة. وعلى هذا الأساس يبدو واضحًا – حسب المفهوم

المسيحي – لماذا لا يستطيع نبي من أنبياء الله مهما بلغ من الصلاح والكمال أن يطهّر البشرية ويخلّصها من عواقب الخطيئة. بما أن كل نبي يكون من أبناء آدم، لذا فلا يمكن له أيضًا أن ينجو من تلك الخطيئة الموروثة التي وُلد عليها.

هذا هو موجز مبسّط للعقيدة المسيحية. أمَّا الحل لهذه المسألة كما يقدمه رجال الدين المسيحيون هو كالتالي:

## الكفّارة عن الجنس البشري

ولحلّ هذه المشكلة التي تبدو عديمة الحل ظاهريًا، أعدّ الله خطّة عجيبة؛ ولكن ليس واضحًا فيما إذا كان الله قد تشاور مع ابنه، أو إذا كانا كلاهما قد اشتركا في وضع الخطة، أو فيما إذا كانت الخطة كلها من إبداع الابن وحده، ثم قَبِلَها الله (الأبُ) بعد ذلك! وملامح هذه الخطة كما تكشّفتْ زمنَ المسيح هي كما يلي:

إن ابن الله الذي وُلد من أم بشرية قبل ألفي عام قد شارك اللهَ في الأبدية. وبصفته ابنًا لله فقد جمَع في شخصه – إلى جانب الصفاتِ التامة لكائن بشري – صفاتِ الإله (الأب) أيضًا. ثم يقال لنا بعد ذلك بأن سيدةً تقية طاهرة اسمها مريم، قد تم اختيارُها لتكون أُمًّا لـــ ابن الله؛ فَحَمَلَتْ يسوعَ ابنًا مشترَكًا لها ولله سبحانه وتعالى.

فبهذا المعنى، ولكونه ابنًا حقيقيًّا لله، وُلد يسوع بلا خطيئة، ومع ذلك فقد احتفظ - بشكل ما - بكينونته البشرية، ثم تطوّع ليحمل خطايا البشر الذين يؤمنون به ويقبَلونه مخلِّصًا لهم. فزعموا أن الله ﷻ استطاع بهذه الخطة العبقرية أن يحافظ على صفة العدل المطلق التي يتّصف بها منذ الأزل، دون أن يُجري فيها أيّ تعديل.

تذكّروا أنه، بناءً على هذه الخطة، لن يُترك الإنسان بلا عقاب أيًّا كان مستوى خطئه! ورغم ذلك من الممكن أن يعاقب الله الخطاة من البشر دون الإخلال بعدله. ولكن الفرق الوحيد بين هذه الحالة والتي سبقتها - والتي كانت مسؤولة عن هذا التغير الدرامي - هو أن عيسى هو الذي سيعاقَب وليس الخطاة من أبناء آدم وبناته؛ وأن تضحية يسوع هي التي ستكون في نهاية المطافِ السببَ للتكفير عن خطايا بني آدم!

ومهما بدا هذا المنطق غريبًا وشاذًا فإن هذا هو بالضبط ما حدث على حد قول المسيحيين أي أن المسيح قد تطوّع بنفسه، وبالتالي عوقب على خطايا لم يرتكبها مطلقًا!

## خطيئة آدم وحوّاء

لنتأمل الآن مرة أخرى في قصة آدم من البداية.

ليس هناك شيء واحد من تلك العقيدة السالفة الذكر يمكن أن يقبله الضمير الإنساني والعقل البشري.

أوّلاً، الفكرة أن آدم وحوّاء قد أخطآ، فأصبحت ذرّيتهما ملوَّثةً إلى الأبد بالخطيئة الوراثية.

فعلى النقيض من ذلك، يبين علم الوراثة أن الأفكار والأفعال البشرية، سيئة كانت أم خيّرة، حتى ولو ظل شخص ما متمسكا بها طوال حياته، لا يمكن أن تنتقل وتدخل في نظام الوراثة الخاص بالتكاثر البشري – أي لا يمكن أن تورَّث. إن مدى الحياة أقصرُ بكثير من أن يلعب دورًا في مثل هذا التغيّر العميق. وحتى خطايا الناس أو أعمالهم الحسنة، جيلاً بعد جيل، لا يمكنها الانتقال إلى الذرّية كصفات وراثية، بل ربما يتطلب الأمر ملايين السنين لتكتسب جينات الإنسان صفات وراثية جديدة.

كذلك فإننا لو قبلنا جدلا بهذا الأمر الشاذ الغريب البعيد عن كل منطق مقبول، فيتحتّم علينا القبولُ بما يعاكسه أيضًا وبالمنطق نفسه، وهو لو تاب مخطئ وجاء نظيفًا في نهاية المطاف فإن ذلك العمل أيضًا يجب أن يسجَّل في نظامه الوراثي ليمحو أثر الخطيئة السابقة تماما. وهذا مستحيل من الناحية العلمية، ولكنّ هذه الصورة المتوازنة هي أكثر منطقًا من أن نتصور أن النـــزوع إلى الخطأ وحده يمكن أن يندرج في الوراثة وليس النـــزوع إلى عمل الخير.

ثانيًا، محاولةً لحلّ مشكلة آدم بافتراض أن الخطيئة يمكن أن تنتقل وراثيًا إلى الأجيال من بنيه فيما بعد، فإن كلّ ما قد تمّ إنجازه نتيجة لهذا الافتراض هو التدمير الشامل للأساس الذي

بُنيتْ عليه عقيدة الخطيئة والكفّارة المسيحية وهي العدل المطلق التام لله تعالى. فإذا كان الله عادلاً مطلقًا فأين العدالة إذن في إدانة ذرّية آدم وحوّاء كلهم أجمعين، وإلى الأبد من أجل خطيئة عابرة ارتكباها ثم تابا عنها؟ تلك خطيئة قد عوقبا عليها بشدّة، وطُردا من الجنّة في ذِلَّة وهوان! أيّ نوع من العدالة هذه التي تُنسب إلى الله الذي لم يكتف بمعاقبة آدم وحواء على خطئهما ولم يخمد ولعه للانتقام، بل أدان الجنس البشري بأجمعه لأقصى درجات الخزي حيث جعلهم يولَدون جميعًا خاطئين بالوراثة؟! فأيّة فرصة أعطيتْ لبني آدم للنجاة من تلك الخطيئة؟! وإذا أخطأ الوالدان لماذا يعاني أطفالهم الأبرياء إلى الأبد نتيجة لذلك الخطأ؟

إذا كان الأمر كذلك فكم هو تصور مشوّه للعدل ذلك الذي يدّعي الله أنه يملكه ويتصف به! إذ يعاقِب أناسًا خَلقهم ليخطئوا، مهما كانوا للخطيئة كارهين، وقد جُعلتِ الخطيئة جزءًا لا يتجزّأ من طبيعتهم! إذن فلم تبق هناك فرصة لبني آدم أن يظلّوا أبرياء!

وإذا كانت الخطيئة جريمة فمن المنطقي – بحسب هذه العدالة الغريبة – أن تُعَدّ تلك الجريمة جريمةَ الخالق لا المخلوق![❁] وفي تلك الحالة أيُّ عدل ذلك الذي يعاقب البريءَ على جريمة ارتكبها غيره؟

---

[❁] وذلك لأنه هو الذي خلق "هذه الجريمة" وهو الذي أودعها في الطبيعة الإنسانية. (المترجم)

ما أكبره من خلاف بين الفهم المسيحي للخطيئة وعواقبها وبين ما يعلنه القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى: ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ (فاطر:١٩)، وكذلك يقول الله تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلا وُسْعَها﴾ (البقرة:٢٨٧).

إن تصريحات القرآن هذه، بالمقارنة مع المفهوم المسيحي للخطيئة والكفّارة، لهي موسيقى صافية للروح البشرية.

دعونا الآن نتحوّلْ إلى بيان التوراة حول ما حدث زمنَ خطيئة آدم وحوّاء، والنتائجِ التي أدّت إلى معاقبتهما. بناءً على ما جاء في سفر التكوين، قد قبل الله ﷻ اعتذارهما جزئيًا فقط، وفرض عليهما عقوبة أبدية وُصفت في التوراة كما يلي:

ثم قال (الرب) للمرأة: "أُكَثِّر تكثيرًا أوجاعَ مخاضك، فتنجبين بالآلام أولادًا، وإلى زوجك يكون اشتياقك وهو يتسلط عليك." وقال لآدم: "لأنك أذعنتَ لقول امرأتك، وأكلت من الشجرة التي نهيتك عنها، فالأرض ملعونة بسببك، وبالمشقة تقتات منها طوال عمرك. شوكًا وحَسَكًا تُنبت لك، وأنت تأكل عشب الحقل. بعرق جبينك تكسب عيشك حتى تعودَ إلى الأرض, فمن تراب أُخذت، وإلى تراب تعود." (سفر التكوين ٣: ١٦-١٩)

لقد وُجد الجنس البشري قبل أن يولد آدم وحوّاء بزمن طويل. العلماء الغربيون أنفسهم اكتشفوا بقايا عديد من "إنسان ما قبل التاريخ" وقاموا بتسميته بأسماء مختلفة تُميز بين أنواعه، وربما أشهرها هو إنسان نياندرتال. وقد عاش هؤلاء البشر في

الفترة ما بين ١٠٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ سنة خلت، معظمهم في منطقة أوروبا والشرق الأدنى ووسط آسيا. وقد تم اكتشاف جثّة مكتملة التكوين لإنسان كان يطوف الأرض قبل أن يبدأ آدم وحوّاء إقامتهما القصيرة في الجنة بـــ ٢٩٠٠٠ سنة. في ذلك الوقت كانت الكائنات البشرية من ناحية الجسد مثلنا تمامًا؛ وكانت تعيش في أوروبا وأفريقيا وآسيا؛ ثم خلال فترة العصر الجليدي انتشرت إلى أمريكا أيضًا، ثم في أستراليا حيث نجد أن الأستراليين الأصليين، بحسب المصادر الموثقة لثقافتهم، يعود وجودهم إلى ما قبل ٤٠٠٠٠ سنة مضت.

وبالمقارنة مع هذه الأزمنة الحديثة نسبيًّا, فقد اكتُشف هيكل عظمي لامرأة من منطقة "حيدر" في إثيوبيا عمره ٢,٩ مليون سنة. ولكن، بحسب التاريخ التوراتي، فإن آدم وحوّاء قد عاشا قبل حوالي ستة آلاف سنة فقط. وبهذا لا يملك الإنسان إلا أن ينظر بحيرة ودهشة إلى تاريخ وجود الكائن البشري أو الإنسان العاقل كما وُصف في المصطلح العلمي!

## استمرار المعاناة البشرية

بعد قراءة الوصف التوراتي حول كيفية عقاب الله تعالى لآدم وحوّاء، لا يملك المرء إلا أن يتساءل: ألم تكن آلام المخاض والولادة معروفة للنساء قبل بداية عهد آدم وحوّاء!

إنه لمن الصعب أن نجد عالِمًا يؤمن بمثل هذه الخرافات. ثم إن لدينا الكثير من البراهين القاطعة التي تثبت أن الإنسان قد عاش على الأرض واستوطن قارات العالم حتى جزر المحيط الهادئ النائية، قبل آدم وحوّاء بزمن طويل، وأنه جاهد دائمًا من أجل البقاء. فالقول بأن آدم وحوّاء كانا أوّل من ارتكب الخطيئة وأنه بسببها قد قدر الله أن تكون ولادة الطفل مؤلمة عقابًا عليها، إنما هو أمر قد ثبت خطؤه من خلال دراسة تاريخ الحياة البشرية. فالحيوانات التي هي أدنى بكثير في مرتبة الأحياء تلد بألم أيضا. ولو راقب أحد بقرة تلد عجلاً لوجد أن آلامها تبدو شبيهة بولادة الأم البشرية. وإننا لنعلم أن الكثير من مثل هذه الحيوانات قد عاشت على ظهر الأرض قبل آدم وحوّاء بملايين وملايين السنين.

وأما كسب المرء عيشه بعرق جبينه فهو أمر اعتيادي بالنسبة إلى الرجال، ولكنه ليس خاصًا بهم وحدهم، فالنساء أيضًا يتعبن في سبيل قُوْتِهن ولقمة عيشهن، بل كلّ كائن حي يكسب عيشه بجهده. وهذه الحقيقة هي المفتاح المحرك لعملية تطوّر الحياة. إن الصراع من أجل البقاء قد يكون أوّل علامة مميّزة للحياة التي تَفْصِلها عن الجمادات. إنها ظاهرة طبيعية ولا علاقة لها بالخطيئة على الإطلاق.

ثم إذا كان هذا هو العقاب المفروض على آدم وحوّاء بسبب خطيئتهما فإن الإنسان ليتعجب مما قد يحدث بعد الكفّارة؟ فإذا

كان يسوع المسيح قد كفّر عن خطايا الخاطئين من البشر، فهل بعد صلب المسيح بطلت هذه العقوبةُ المفروضة على آدم وحوَّاء؟ وهل النساء اللاتي آمنَّ بيسوع أنه ابن الله لم يعدنَ يتألمن من الولادة؟ وهل بدأ الرجال المؤمنون بهذه الكفارة يكسبون عيشهم بدون تعب؟ وهل ميل الإنسان إلى الخطيئة لم يعد ينتقل إلى الأجيال القادمة، وبدأت ولادة أطفال بلا خطيئة؟

فإذا كان الجواب على جميع هذه التساؤلات هو "نعم"، إذن سيكون ثمة مبرّر للتفكير الجدّي بالفلسفة المسيحية المتعلقة بالخطيئة والكفّارة. ولكن، للأسف، فإن الإجابة على جميع هذه التساؤلات هي "لا" و "لا" ثم "لا". وإذ لم يتغير شيء منذ حادثة الصَّلب، سواء في العالم المسيحي أو غير المسيحي، فما هو معنى الكفّارة؟

حتى بعد يسوع المسيح، فإن الشعور بالعدل العام ظل يملي على البشر في جميع أنحاء العالم بأنه إذا ارتكب أحدٌ خطيئة، فإن عقوبتها يجب أن تقع على ذلك الشخص وحده وليس على غيره. على الجميع، ذكورًا وإناثًا، أن يتحملوا بأنفسهم نتائج أخطائهم. الأطفال دائمًا يولدون أبرياء من الخطيئة. وإذا لم تكن هذه هي الحقيقة فسوف يُضرب بالعدالة الإلهية عُرض الحائط.

نحن المسلمون نؤمن بأن جميع الكتب السماوية مبنية على أساس الحقيقة الخالدة، ولا يسع أحدًا أن يدعي عكس ذلك. وعندما نصادف أي تناقض أو تعارض في أيّ كتاب يُعتقدُ أنه

سماوي موحى به من عند الله تعالى، فلا يكون موقفنا إنكارًا كاملاً أو رفضًا كاملاً، بل موقف الحيطة والبحث المحايد. إن موقفنا حيال معظم مقولات العهد القديم والعهد الجديد التي نجدها مخالفة لحقائق الطبيعة هو إمّا أن نحاول التوفيق بينها في المعنى بقراءة معنى خفي أو رسالة رمزية وراء الكلام، أو أن نرفض جزءًا من النصّ على اعتبار أنه عملٌ صَنَعته أيدي البشر، وليس مُنـــزَلاً من عند الله. حين كانت المسيحية صحيحة نقية، فإنها لم تشتمل على أي تحريف أو أمور غير مقبولة أو معتقدات تكّذب الطبيعةَ. ولذلك لم نبدأ بفحص النص، بل بدأنا بالمبادئ ذاتها التي صارت على مرِّ قرون من الإجماع أُسُسًا في الفلسفة المسيحية لا جدال فيها. ومن أهم هذه المبادئ مفهوم المسيحية للخطيئة والكفارة.

إنني أميل إلى الاعتقاد بأن شخصًا ما، في مكان ما في تاريخ المسيحية، قد أساء فهم الأمور، وحاول أن يؤوّلها بناءً على معرفته الشخصية، فأضلّ بذلك الأجيالَ اللاحقة.

## الخطيئة الموروثة

لنفترض جدلاً أن آدم وحوّاء قد أخطآ بالمعنى الحرفي للخطيئة، كما يصف العهد القديم، وعوقبا على ما اقترفاه من خطيئة؛ وكما يُروى فإن العقوبة لم تقتصر عليهما فقط، بل امتدّت لتشمل ذريتهما بأكملها!

وما دام الحكم بعقاب الخاطئَينِ قد صدر وقد عوقبا به أيضًا فأين الحاجة إلى أي عقاب آخر؟ إذ من المنطقي أنه عندما يتم عقاب أحد على خطيئة، ينتهي الأمر؛ وعندما يصدُر حكمٌ فليس من حق أحد أن يضيف عقابًا فوق عقاب.

وفيما يتعلق بآدم وحوّاء فإنهما لم يُؤنَّبا بشدّة فحسب، بل نالا أيضًا من العقاب فوق ما كانا يستحقّانه. وطبيعة العقاب التي امتدّت إلى ذرّيتهما هي أيضًا موضع سؤال كبير. ولقد تحدّثنا حول ذلك بما فيه الكفاية، ولكن ما نبغي التأكيد عليه هنا هو أمرٌ يشكّل انتهاكًا أشدّ فظاعة للعدل المطلق! فأَنْ نُعاقَب باستمرار على أخطاء آبائنا هو أمر، ولكن أنْ نُجبَر على الاستمرار بارتكاب الخطايا نتيجة لأخطاء آبائنا الأولين، فهو أمر شنيعٌ آخر.

دعونا ننظرْ في الأمر بالاستناد إلى الأسس المتينة للخبرة الإنسانية الواقعية، ونحاولْ من خلال خبرتنا اليومية فهمَ الفلسفة المسيحية المتعلقة بالجريمة والعقاب. لنفرض أن حُكمًا قد صدر بحقّ مجرم، وكان الحكم قاسيًا جدًّا بالنظر إلى الجرم المرتكَب. إن ذلك طبعًا يمكن أن يؤدّي إلى استنكارٍ صارخ وشديد من قِبل كلّ إنسان عاقل، لكونه عقابًا غير عادلٍ؛ إذ إنه لا يتناسب مع الخطيئة المرتكبة، بل هو أشدّ منها! فمن هذا المنطلق يصعب علينا جدًّا أن نؤمن أن العقاب الذي أُنزل على آدم جزاءَ خطيئته قد صدر عن إله عادل. إنه ليس قضية عقاب غير

متناسب، بل هو – حسب مفهوم المسيحية للتصرف الإلهي – عقاب تجاوز زمن آدم وحواء وامتد إلى ذريتهما جيلاً بعد جيل. ومعاناة الأولاد بسبب خطيئة آبائهم، دون أدنى شكّ، هو التمادي الواضح في انتهاك العدالة إلى أقصى الحدود، لكننا لا نتحدث هنا عن ذلك. ولو قادنا سوء الحظّ إلى أن نَشهد قاضيًا معاصرًا يُصدر حُكمًا على مجرم، فيُجبر أولاده وأحفاده وأولاد أحفاده إلخ.. بحكم القانون، على الاستمرار في الخطيئة وارتكاب الجرائم، ثم يُعاقبهم على ذلك إلى الأبد؛ فماذا عساه أن يكون ردّ فعل المجتمع البشري المعاصر الذي يتمتع بشعور عالمي للعدالة نتيجة الحضارة الحديثة؟

ولا بدّ هنا من تذكير القارئ الكريم بأن هذا المفهوم المتعلّق بالخطيئة الموروثة إنما هو مجرد تفسير خاطئ من قبل "بولُس"، ولا يصحُّ أن يُعزى إلى تعاليم العهد القديم؛ وكتب العهد القديم حافلة بالبراهين المناقضة لهذا المفهوم.

في القرن الخامس عشر دخل أغسطين مطرانُ هيبو (Hippo) في مواجهةٍ مع حركة البيلاجيين (Pelagian)، حول الجدل المتعلق بطبيعة سقوط آدم وحوّاء. فأَعلن أن البيلاجيين هراطقة، لأنهم كانوا يعلِّمون الناسَ أن خطيئة آدم قد أثّرت فيه وحده ولا يمتد أثرها إلى الجنس البشري كله؛ وإن كلّ إنسان يولد مُبرّأً من الخطيئة؛ ولديه القدرة على أن يعيش حياة بلا خطيئة؛ وكان ثمة أناس قد نجحوا في ذلك.

فهؤلاء الذين كانوا على الحق قد وُصِموا بأنهم هراطقة! وهكذا جُعل النهار ليلاً والليلُ نهارًا! وحُوّلت الهرطقةُ حقيقة! والحقيقةُ هرطقةً!

## انتقال الخطيئة

تعالوا معنا الآن لنعيد فحص مسألة أن الله لا يغفر للخاطئين دون أن يعاقبهم، لأن ذلك مناف لصفة العدل فيه تعالى.

يكاد المرء يمتلئ رعبًا حين يدرك أنه على مدى قرن بعد قرن ظلّ المسيحيون يؤمنون بشيء هو بكلّ تأكيد مناف للعقل البشري ومناقض للضمير الإنساني. قولوا – بالله عليكم – كيف يمكن أن يغفر الله لشخص خاطئ – في الدنيا أو في الآخرة – لمجرد أن شخصًا بريئًا قد تطوّع لأن يعاقَب بدلاً منه؟

فمجرد أن يفعل الله ذلك يكون قد انتهك أهمَّ أسس العدل ومبادئه. فالشخص الخاطئ هو الذي يجب أن يتحمل وزر خطاياه. وبالاختصار، فلو نُقل العقاب إلى شخص آخر لأدى ذلك إلى كثير من المشاكل المستعصية.

يجادل بعضُ رجال الدين المسيحي بأن مثل هذا النقل أو التحويل للعقاب لا يناقض أيّ مبدأ للعدل، وذلك لأن شخصًا بريئًا تطوّع لتلقّي العقاب بدلاً من الشخص الآخر. ويسألون: ماذا عساكم تقولون في حالة رجلٍ مثقَلٍ بديون لا يقدر على

تسديدها، فيقوم رجلٌ آخر محسن تقيّ ويقرر أن يفرّج عنه كربتَه ويسدّد عنه كاملَ ديونه؟

جوابنا على هذا السؤال هو أننا نقدّر جدًّا لهذا المحسن عملَه المتميّز بالرحمة والتضحية والكرم الكبير، ولكن ماذا عسى أن يكون ردّ فعل الشخص الذي يواجهنا بالسؤال التالي: إذا كانت الديون الواجب تسديدها تُقدر بالتريليونات من الجنيهات الإسترلينية، ثم تصدى محسنٌ وأخرج من جيبه بنسًا واحدًا بغية إلغاء جميع تلك الدّيون الهائلة مقابلَ هذا البنس المقدَّم! إن ما نجده في قضية يسوع المسيح بأنه عرض نفسه للعقاب على خطايا جميع البشر، هو في الحقيقة أمر أشدّ خيالاً وغرابة من ذلك. ثم إن الأمر لا يتعلق بمَدِين واحد أو جميع المدينين في جيل واحد فحسب، بل إننا نتحدث هنا عن البلايين من البشر الخاطئين الذين قد وُلدوا أو سيولدون إلى يوم القيامة!

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر، لأن النظر في الجريمة من خلال قضية مَدين عليه دَين لشخص آخر هو تعريف ساذج جدًّا للخطيئة لم أر نظيره من قبل! إن هذا السيناريو الذي يُقدَّم لَحَريٌّ أن يشغل انتباهنا أكثر قليلاً قبل أن نتحوّل إلى جوانب أخرى تتعلق بالجريمة والعقاب.

دعونا نتفكّر الآن في قضية مَدين اسمه زيد وهو مدين بمئة ألف من الجنيهات لشخص اسمه عَمْرو. لو أن محسنًا، بكامل قواه العقلية، يريد بجدّية وإخلاص أن يريح المَدين من عبء

ديونه، فإن العرف العام يلزمه أن يسدّد لعَمْرو جميع الدَّين المستحق على زيد. ولكن لنفترض أن المحسن المشار إليه يتقدّم ويلتمس أن يُعفى زيد من جميع مسؤولياته المتعلقة بدَفع ما عليه من دَين لعَمْرو، وبدلاً من ذلك يُجلَد (المحسنُ) ويُضرب قليلاً أو يُسجنَ لمدّة ثلاثة أيام على الأكثر بدلاً من زيد. فلو حدث مثل ذلك فعلاً في الحياة الواقعية لكان من الممتع مشاهدةُ وجوه القاضي المَذهول المتحير وعمرو الدائن والمحسن المسكين!

ولكن المحسن لا يزال يريد إتمام التماسهِ الرحمةَ للمدين، ويشترط المزيد قائلاً: "سيدي القاضي، ليس هذا كل ما أبغيه مقابل تضحيتي، بل أرجو أيضًا أن يُعفى من الديون جميعُ المَدِينين في كل أنحاء المملكة، سواء الأحياء منهم أو الذين سيولدون فيما بعد حتى نهاية الزمن، وذلك مقابل معاناتي لثلاثة أيام وثلاث ليال. عند هذا الحدّ يحتار العقل ويكاد يصاب بالجنون!!

لكَم يتمنى الإنسان هنا أن يقترح على الله العادل أن يُعوّض، ولو إلى حد ما، أولئك الذين نُهبت ثمار جهودهم وما ادّخروه لحياتهم. ولكن يبدو أن الإله المسيحي على المجرمين أرحمُ منه على الأبرياء الذين يعانون على أيدي المجرمين!!

إنه تصور غريب حقًّا للعدالة التي تؤدي إلى مغفرة اللصوص والمغتصِبين والمسيئين للأطفال ومعذِّبي الأبرياء ومرتكِبي جميع أنواع الجرائم الوحشية في حق البشرية، بشرط أن يؤمنوا بيسوع المسيح ولو في آخر لحظات حياتهم! وماذا عن الدَّين الذي تراكم

بلا حدود على هؤلاء المجرمين والذي يدينون به لضحاياهم المعذَّبة؟ فهل الدقائق المعدودة التي قضاها يسوع المسيح في الجحيم تبدو كافية لتطهير حياتهم الحافلة بالجرائم البشعة على مدى الأجيال، والتي لم يُعاقَبوا عليها؟

## استمرارية العقاب

لنحاول الآن أن نتفكّر في نوع آخر من الجريمة التي هي أشدّ خطرًا مما سبق ذكره، ولا يمكن للفطرة البشرية أن تقبل تحويل عقوبتها ومسئوليتها لشخص آخر. مثلا لو أساء أحد إلى طفلة واغتصبها ثم قتلها، فإن المشاعر البشرية في مثل هذه الحالة ستُنتهَك إلى حدّ لا يُطاق. ولنفترض أن مثل هذا الشخص يستمرّ في ارتكاب مثل هذه الجرائم أو ما هو أبشع منها مسبِّبًا المعاناةَ لمن حوله، دون أن يُقبَض عليه ويقدَّم للعدالة؛ وبعد أن يكون قد عاش حياته مجرمًا، دون أن يعاقبه بشر، ويقترب من الموت، ولكنه حتى يفلت من العقاب الذي ينتظره يوم القيامة على ما اقترفه، يقرّر فجأة أن يؤمن بيسوع المسيح كمخلِّص له؛ فهل تذوب فجأة جميعُ جرائمه وخطاياه وتصير عدمًا، وهل سيُترك حرًّا يدلف إلى العالم الآخر نقيًا من الذنوب كمن ولدته أمه؟

ربما مثل هذا الشخص الذي يؤجِّل إيمانَه بالمسيح حتى يوم موته يكون أكثرَ حكمةً من الذي يؤمن به في فترة مبكرة من

حياته. إذ يظل هناك، بالنسبة إلى الأخير، دائمًا خطر أن يرتكب الخطيئة بعد إيمانه بيسوع المخلِّص، وأن يقع فريسةً لإيحاءات الشيطان وخُططه. فلِمَ لا ينتظر الإنسان حتى يوشك على الموت، وبذلك يتيح للشيطان القليلَ من الوقت ليسلبه إيمانَه بيسوع المسيح؟

إن الحياة الحرّة المتسمة بالجريمة والمتعة هنا على الأرض، ثم الولادة الجديدة بحال من الخلاص الأبدي ليست بصفقة عادلة منطقية! هل هذه هي حكمة العدالة التي ينسبها المسيحيون إلى الله؟ إن مثل هذا الفهم للعدالة ومثل هذا الإله يرفضهما تمامًا الوجدانُ البشري الذي خلقه الله بنفسه ومنحه القدرة على التمييز بين الحق والباطل.

ونظرًا إلى السؤال ذاته، على ضوء الخبرة والفهم البشريَين، فإنه يحق للإنسان تمامًا أن يُدين هذه الفلسفة على أنها لا أساس لها ولا معنى، ولا جوهر ولا حقيقة. إن الخبرة البشرية تعلّمنا أن منحَ المغفرة أو عدمَها إنما هو دائمًا من حق أولئك الذين يعانون على أيدي الآخرين. تقوم بعض الحكومات أحيانًا، لدى احتفال يوم فرح وطني أو لأسباب أخرى، بإعلان عفو عامّ للمجرمين دونما تمييز، ولكن ذلك في حدّ ذاته لا يبرّر عملية العفو في حق أولئك الذين قد أَوقعوا أذى لا يمكن تلافيه، وتسببوا في معاناة دائمة لإخوتهم المواطنين الأبرياء.

إذا كان العفو دون تمييز الذي تمنحه الحكومات يمكن تبريره بشكل من الأشكال، وإذا لم يُعَدّ ذلك من قِبل رجال الدين المسيحي انتهاكًا لمفهوم العدالة، فلماذا إذًا لا يقبلون أن تَصدر مثل هذه المِنّة الرحيمة من الله ويعترفون له بحق المغفرة، كما يشاء وحين يشاء؟ وهو الحاكم الأعلى المطلق وخالق كلّ شيء وأرحم الراحمين✍

إذا غفر الله لأحد جريمة قد ارتكبها بحق الآخرين، فإن ذلك السيد القادر المطلق يملك القدرة الكاملة أن يعوِّض المبتلى بِكَرَمٍ منه بحيث يرضى بحكمه كليةً. وإذا كان الأمر كذلك فأين الحاجة أن يضحي الله ابنَه البريء؟

إن هذا، في حدّ ذاته، لسخرية من العدالة!

لقد خُلقنا بصفات متناغمة مع الصفات الإلهية، وهذا ما يصرح به الكتاب المقدّس:

"وقال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا، كمثالنا." (سفر التكوين ١:٢٦). وحول الموضوع نفسه يقول الله ﷻ في القرآن الكريم: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم:٣١)

إن هذه العقيدة المشترَكة بين المسيحيين والمسلمين تستلزم أن يكون الضمير الإنساني أفضل مرآة تعكس لنا التصرفَ الإلهي في حالة معيّنة. وإنها لتجربة يومية لنا أننا نَغفِر أحيانًا كثيرة دون أن يكون في ذلك أدنى مخالفة لمفهوم العدالة. وإذا أخطأ أحد في حقنا فيمكننا أن نسامح المجرم إلى أي حد نشاء. وإذا ما آذى

ولدٌ والديه بعصيانه لهما أو بتحطيمه شيئًا ثمينًا من الأدوات المنـــزلية، أو بجلبه لهما سمعة سيئة؛ فإنه يكون قد أذنب في حقّهما، ويمكن لوالديه أن يغفرا له ويسامحاه دون أن يؤنّبهما ضميرُهما بأنهما قد انتهكا مبدأ العدل. ولكنه إذا حطّم شيئًا يخصّ الجيران، أو آذى طفلَ شخص آخر، فكيف يمكنهما أن يسامحاه على ما سببه من معاناة للآخرين؟ ولو فعلا ذلك لكان منافيًا للعدل حتى بحسب ضميرهما أيضًا.

إن علاقة الجريمة بالعقاب هي كعلاقة السبب بالنتيجة، ويجب أن تكون العلاقتان متناسبتين ولو إلى حد ما. وقد ناقشنا موضوع الصلة بين الجريمة والعقاب بصورة موسعة بالنسبة لقضية مالية بين شخص وآخر. والمبدأ نفسه ينطبق بشكل أكبر بالنسبة لجرائم أخرى مثل الجرح أو التشويه أو قتل مواطنين أبرياء أو انتهاك شرفهم بأي شكل كان. وكلما ازدادت بشاعة الجريمة كلما كان من المتوقع أن يكون العقاب أشد. وإذا كان الله قادرا على أن يغفر كلّ شيء بلا استثناء – كما أؤمن وأعتقد أنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يفعل ذلك – فإن مسألة الكفارة أي عقاب بريء على جرم ارتكبه غيره تصبح لا مكان لها مطلقا. وعلى كل حال، فإننا لو قبلنا جدلا أن يتم تحويل العقوبة إلى بريء اختار لنفسه ذلك، فإن مقتضيات العدل في هذه الحالة توجب أن يتم تحويل العقوبة كاملة غير منقوصة

ودون أدنى تخفيف. ولقد تحدثنا عن هذه المسألة أيضًا بما فيه الكفاية.

هل يؤمن المسيحيون أن هذا المفهوم للعدل قد طبَّقه الله (الأب) على يسوع (الابن)؟ إذا كان الأمر كذلك فهذا يعني أن كل العقاب المفروض على جميع المذنبين في العالم المسيحي المولودين زمن المسيح أو في أي وقت بعده وحتى يوم القيامة، سوف يُجمَع ويصبح هذا الحجم الرهيب من العذاب المستحَق على جميع المذنبين إلى يوم القيامة مساويًا للمعاناة التي لاقاها يسوع لمجرد ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ! وإذا كان الأمر كذلك فينبغي ألا يعاقَب أيّ مسيحي على الأرض من قِبل أية حكومة مسيحية على الإطلاق، وإلا لكان ذلك عملاً منافيًا تمامًا للعدالة. كل ما ينبغي على المحاكم القضائية فعله، بعد وصول قُضاتها إلى قرار الإدانة، هو أن يطلبوا من المجرم المسيحي أن يدعو يسوعَ (الابن) ليخلّصه. وبذلك يجب أن يُغلق ملف القضية وتُعتبر منتهية عند ذلك الحدّ. وبكل بساطة، فإن الأمر سيكون مجرّد تحويل حسابِ المجرم إلى حساب يسوع المسيح.

واسمحوا لنا بغية الإيضاح، بأن ننظر إلى الولايات المتّحدة الأمريكية بشكل محدّد، ثم نركّز اهتمامنا على حالة الجريمة هناك، حيث جرائم السلب والقتل منتشرة بكثرة بحيث يتعذر إحصاؤها.

أتذكّر أنني وجَّهتُ ذات مرّة في نيويورك مؤشرَ المذياع على المحطة المخصّصة لإذاعة التقارير المتعلقة بالجرائم الكبرى، ويالها من تجربة مروِّعة! لقد كانت مؤلمة لدرجة أنني لم أستطع تحمّل الاستماع لأكثر من نصف ساعة فقط. إذ إن جريمة قتل كانت تُرتكب في أمريكا كلّ خمس دقائق تقريبًا، وكانت أحيانًا تُنقل بتغطية مروِّعة من قِبل مراسلين كانوا شهداء على تلك الجرائم حال ارتكابها.

نحن لا نقصد هنا أن نقدّم صورة مفصّلة عن الجريمة في أمريكا، ولكنها مسألةُ معرفةٍ عامّة أن أمريكا تأتي على رأس قائمة الدول التي تنتشر فيها جميع أنواع الجرائم بشكل فظيع، وخاصة في المدن الكبرى مثل شيكاغو ونيويورك وواشنطن. في نيويورك تجد جرائم سلب المال وتشويه المواطنين الأبرياء الذين يجرؤون على المقاومة من الأمور الشائعة بكثرة. إن مثل هذه الحوادث اليومية تؤدي إلى أبشع صور القتل والتشويه من أجل سلْبٍ زهيد تافه!

ولنترك جانبًا – ولو لبعض الوقت – نزعة القتل المتنامية في العالم، فبالنسبة إلى أمريكا وحدها لا بد للمرء أن يتساءل عن العلاقة بين المفهوم المسيحي للخطيئة والكفّارة وبين الجرائم التي تُرتكب يوميًا. إذ مهما كان أولئك المجرمون بعيدين عن القيم المسيحية في ممارساتهم الإجرامية، إلا أنهم على الأقل يؤمنون بعقيدة الخطيئة والفداء المسيحية، وأيضًا بالمسيح كمخلّص لهم،

ولكن – واحسرتاه – لأيّ نفع أو جدوى! إن أغلبية المجرمين في أمريكا هم ممن يُسمَّون مسيحيين، وإن لم يكن المسلمون وغيرهم استثناءً. فهل يغفر الله لجميع هؤلاء المجرمين المسيحيين لمجرد انتمائهم إلى المسيحية وإيمانهم بتضحية يسوع التطوعية من أجل المذنبين؟ وإذا كان الأمر كذلك فبأي طريقة؟ في نهاية المطاف لا بدّ من أن يُلقى القبض على نسبة كبيرة منهم ويُعاقَبوا بموجب قانون المحاكم الأرضية؛ ولكن بالرغم من ذلك، فإن عددًا كبيرًا منهم سوف يظلون طلقاء لم يُقبض عليهم، أو سيُعاقبون على جزء فقط من جرائمهم التي ارتكبوها على مدى سنين طويلة.

ماذا يمكن للمسيحية أن تقدّم لأولئك الذين يُعاقَبون بالقانون؟ وبماذا تَعِد أولئك الذين ظلوا طلَقاء على الأرض؟ هل سيعاقَب كلا الفريقين بدرجات متفاوتة أم سيعاقَبون دون تمييز؟

وثمّة معضلة أخرى تتعلق بفداء مجرم لكونه يؤمن بيسوع المسيح وتنتج عن حالة أكثر إبهامًا. فمثلاً إذا ارتَكب مسيحيٌّ جريمةً في حق شخص بريء غير مسيحي فسوف يُسامَح ويُغفَر له طبعًا بسبب بركة إيمانه بيسوع؛ لأن عقوبة جريمته سوف تحوَّل إلى حساب يسوع بدلاً عنه، ولكن ماذا سيكون حساب الربح والخسارة لغير المسيحي؟ فيسوع المسكين والضحية المسكين الذي وقع عليه الجرم كلاهما يعانيان بسبب جريمة لم يرتكباها!

إن عقولنا لتحار عندما نحاول تصوُّرَ هولِ حجمِ الجرائم التي ارتكبها البشر منذ فجر المسيحية وحتى زمن غروب الشمس عن الحياة البشرية! فهل حقًّا تمّ تحويل جميع هذه الجرائم إلى حساب يسوع المسيح عليه السلام؟ وهل تمّ الحساب عن جميع هذه الذنوب في الفترة القليلة من ثلاثة أيام وثلاث ليال التي يظنون أن المسيح قد عانى خلالها؟

ويبقى المرء متعجبًا كيف يمكن لذلك البحر الواسع من المجرمين المسمَّم بالأعمال الإجرامية أن يُطهَّر وينظَّف كليةً من آثار تلك الجرائم لمجرّد كون مرتكبيها مؤمنين بيسوع؟ ثم ترجع أفكار المرء إلى الماضي البعيد، حين ارتكب آدم وحوّاء خطيئتهما الأولى لمجرد أنهما قد خُدعا بمكر الشيطان فوَقعا في شراكه! لِمَ لَمْ تُمح خطيئة آدم وحواء؟ ألم يكونا مؤمنينِ بالله (الأب)؟ وهل كان الإيمان بالله (الأب) عملاً أقلّ قيمة من الإيمان بـــ (الابن)؟ وهل كانت خطيئتهما أنهما لم يُخبَرا عن ابنٍ يعيش مع الإله الأب منذ الأزل؟ لماذا لم يرحمهما "الابن الإلهي" ولم يتوسّل إلى الإله الأب ليعاقبه هو على خطيئتهما بدلاً منهما؟

ولكم يتمنى المرء أن يكون ذلك قد حدثَ فعلاً، إذ ربما كان أكثر يُسرًا أن يتمّ عقابُ آدم وحوّاء على لحظةِ عثرةٍ واحدة أخطآ فيها. ولو تمّ ذلك لأُعيدت بالتأكيد كتابة قصة البشرية كلها في كتاب القدر، ولخُلقت أرضٌ سماوية بدلاً من هذه الأرض، ولما أُخرِج آدم وحوّاء من الجنة إلى الأبد مع أعداد لا

تحصى من ذرّيتهما، ولكان المسيح وحده قد أُخرج من الجنة ولمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال فقط، ولكان ذلك كلّ ما حدث! ولكن مع الأسف لم يفكر الله (الأب) ولا يسوع (الابن) بهذا الأمر. انظروا كيف أن حقيقة عيسى المكرّمة المحبَّبة تحوّلت للأسف إلى أسطورة غريبة لا تُصدَّق!

## العدل والمغفرة

إن الفلسفة المسيحية المتعلّقة بالجريمة والعقاب ليست محيّرة ومربكة للعقل البشري المحايد فقط، بل تُثير أسئلة كثيرة أيضًا لا تقلّ إرباكًا. فالعلاقة بين العدل والمغفرة، كما هي مطروحة في الفلسفة المسيحية المتعلقة بعقيدة الكفّارة، تحاول أن تشرح لماذا لم يَقدر الله أن يغفر بنفسه؛ إن هذه الفلسفة تعتمد كليًّا على مفهوم اعتباطي وخاطئ للعدل، إذ تقول بأن العدل والمغفرة لا يمكن أن يسيرا جنبًا إلى جنب. فإذا كان الأمر كذلك فلماذا يشدّد العهد الجديد على العفو والمغفرة حين يكون الأمر متعلقًا بتعامل الناس بعضهم مع بعض؟

لم أقرأ في أيّ كتاب سماوي لأيّ دين عالمي تعليمًا يميل إلى اتجاه واحد، ويبالغ في التشديد على دَور المغفرة. يا له من تناقض هائل مع التشديد التقليدي على العدل الموجود في التعاليم اليهودية: العين بالعين والسنّ بالسنّ. هذا هو العدل النقي البسيط الذي لا هوادة فيه! ويا له من انحراف بالغ من هذه

التعاليم إلى التعاليم المسيحية التي تأمر مَن يُضرَب على خدّه أن يحوِّل الخدَّ الآخر أيضًا.

من أَعطى هذه التعاليم الأخيرة التي تناقض تعاليم التوراة التي سبقتها؟

يظل المرء هنا في حيرة يتساءل: هل كان التعليم التوراتي الأول حقًا من قِبل الإله الأب مقابلَ تعليم المسيحِ الإلهِ الابنِ المناقض والمعاكس تمامًا والوارِد في العهد الجديد؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا خالف الإلهُ الابن أباه بهذا الشكل العنيف؟ وهل يمكن اعتبار هذا الخلاف ناشئًا عن عيبٍ خَلقي أم هو تغيّر تطوّري؟ أم هل كان هذا الموقف المسيحي المتعلّق بالمغفرة المطلقة مناقضًا تمامًا للتشديد اليهودي على الانتقام، وهو مثال على التغير المفاجئ من جهة الإله الأب، حيث يبدو وكأنه ﷻ قد ندم على ما عَلَّمَه موسى وأهلَ الكتاب من قبل، فأراد أن يُصلِح خطأه!

إننا نحن المسلمين نرى أن هذا الأمر إنما هو تحوّلٌ جذريّ فيما يجب الاهتمام به في مرحلة دون أخرى، ولا نرى في ذلك أيّ تناقض؛ لأننا نؤمن بإله يملك كلتا الصِفتين: العدل والمغفرة، دون أيّ تناقض داخلي بينهما. وإننا لندرك أن التحوّل من التعاليم اليهودية إلى تعاليم عيسى المسيح ليس تصحيحًا لتلك التعاليم الأساسية، بل كان تصحيحًا للتطبيق الخاطئ لهذه التعاليم من قِبل اليهود.

وإننا نحن المسلمين نؤمن بأن الله تعالى ليس عادلاً فحسب، بل إنه غفور رحيم محسن أيضًا؛ وإذا أراد أن يَغفر للمذنب فإنه لا يحتاج إلى أية مساعدة خارجية.

ولكن المشكلة من وجهة النظر المسيحية تأخذ أبعادًا هائلة، ويبدو أن إله التوراة كان لا يعرف إلا العدل فقط، ولم يكن يتّصف بالرحمة أو الرأفة؛ وكان غير قادر على المغفرة مهما اشتدّت رغبته في ذلك! ثمّ جاء، ويا للعجب، الإلهُ الابن لينقذ الأبَ من معضلته العويصة. ويبدو أن الابن كان كله رحمة على عكس أبيه الذي هو انتقام كله!

لا يقتصر الأمر على سخافة تصور "الإله الابن" المنافي للعقل والمحير للمنطق الإنساني، بل إنه يثير من جديد قضية التناقض بين شخصيتَي الإلهِ الأبِ والإلهِ الابنِ بحيث يبدو أن يسوع ليس بابن حقيقي لأبيه! ربما هي مسألة عيب وراثي مرة أخرى!

وهناك مجال آخر للبحث وهو موقف أديان العالم الأخرى من الخطيئة وعواقبها. فالمسيحية طبعًا ليست الدين الوحيد الموحى به من السماء، وإن عدد غير المسيحيين يفوق عدد المسيحيين. لقد شهِد العالَمُ، منذ آلاف السنين من تاريخ البشرية المعروف وقبل ظهور يسوع المسيح، كثيرًا من الديانات نشأت وضربت بجذورها في بيئات بشرية مختلفة في شتى أنحاء العالم. فهل تحدّثتْ هذه الديانات مرة عن فلسفة المغفرة بطريقة تشبه – ولو إلى أدنى حدٍّ – العقيدةَ المسيحية في الكفّارة؟ ما هو تصورهم عن

الله، أو عن الآلهة إذا كانوا قد أصبحوا يؤمنون بأكثر من إله واحد؟ ما هو مفهومهم عن موقف الله تعالى من البشرية الخاطئة؟

نجد أن الهندوسية هي ربما أقرب الديانات إلى المسيحية في هذا الصدد، ولكن بشكل جزئي فقط. فالهندوس يؤمنون بإله عادل مطلق، توجب عدالتُه أن يعاقِب كل خاطئ بشكل أو بآخر. ولكن تشابهها مع المسيحية ينتهي هنا، إذ ليس هناك عندهم أدنى ذِكر لابنٍ لله يحمل على كتفيه العواقبَ الكاملة لجميع خُطاة العالم، بل على العكس من ذلك إنهم يخبروننا عن سلسلة غير منقطعة من الجريمة والعقاب في عدد لا ينقطع من تناسخات الروح في أجساد الحيوانات؛ ولا يتيسر الخلاص إلا بعد تناسخات كثيرة للروح تنال من خلالها عقابًا يتناسب تمامًا مع مجموع جرائمها التي ارتكبتْها خلال مرورها بتجارب التناسخ المشؤومة كلها.

قد يبدو هذا للبعض غريبًا عجيبًا حقًا، ولكن مع ذلك ثمّة بعض العدالة الأخلاقية حتمًا في هذه الفلسفة الهندوسية، وهناك شيء من التوازن والتناسب في هذا المفهوم الهندوسي الذي ينسجم مع مفهوم العدل المطلق.

ولنتركْ جانبًا الهندوسيةَ والأديانَ الأخرى المؤيدة لفلسفة التناسخ بجميع تعقيداتها المتعلقة بالسبب والنتيجة، ولنسألْ: ما هو دور مغفرة الله في الأديان العظمى والصغرى في العالم؟

يبدو أن جميع هذه الأديان، بالإضافة إلى البلايين من المؤمنين بها كالهندوس مثلاً، تجهل أسطورة الكفّارة تمامًا ولا تعلم عنها شيئًا. وهذا الأمر محيّر حقًّا. مَن الذي كان في اتصال دائم بالبشر في الأماكن الأخرى على مدى تاريخ الأديان؟ لو لم يكن هو الله الأب – كما في العقيدة المسيحية – فهل كانت القيادة الدينية كلها، ما عدا يسوع المسيح، تلامذة للشيطان؟ ثم أين كان الإله الأب غائبًا؟ لماذا لم يأت لإنقاذ البشرية عندما كان الشيطان يُضلّهم باسمه تعالى؟ أم إن هذه البقية من البشر كانت مخلوقاتِ خالقٍ آخر غير الذي يُدعى الله الأب؟ ثم لماذا عوملت هذه البقية من البشر على طريقة العمِّ زوجِ الأم، وتُركوا فريسة للشيطان؟

ولنتوجه الآن إلى هذه المسألة بالرجوع إلى الخبرة البشرية الشائعة والعامة. يمكننا أن نؤكد، من خلال هذه الخبرة، أن المغفرة والعدل متوازنان ويمكن أن يتواجدا معًا، وإن الواحد منهما لا يُناقض الآخَرَ دائمًا. ومن متطلبات العدالة أن تُمنَح المغفرة أحيانًا وأن لا تُمنَع في أحيان أخرى. فلو غُفر لطفل ونتيجة لذلك تشجع على ارتكاب المزيد من الجرائم لكانت المغفرة عندئذ أقربَ إلى الجريمة ومُخالِفةً لمفهوم العدالة. ولو أن مجرمًا غُفر له فاستمرّ في ارتكاب المزيد من الأعمال الإجرامية، وتسبب في معاناة من حولـــه لكان ذلك مناقضًا للعدل وإساءة إلى المواطنين الأبرياء. ثمّة عددٌ لا يحصى من هذا النوع من

المجرمين المتسترين بِرداء كفّارة يسوع المسيح، وإن ذلك في حدّ ذاته مناقضٌ للعدل.

ولكن إذا تاب طفلٌ مثلاً، واقتنعت أمُّه بأن الذنب لن يتكرر منه، فإن معاقبة الطفل عندئذ ستكون مناقضة لمفهوم العدل. والتائب من الذنب عندما يتعذب في نفسه فهذه المعاناة في حدّ ذاتها عقاب يتجاوز كثيرًا، في بعض الأحيان، العقوبةَ المفروضة من الخارج. إن ذوي الضمائر الحية من الناس يتعذبون في داخلهم دائمًا بعد ارتكاب الخطيئة، وقد يصل عذاب وخز ضميرهم إلى الدرجة التي تجذب رحمة الله تعالى لهذا العبد الضعيف الذي تتكرر أخطاؤه ويتكرر ندمه وتوبته. هذه هي العِبرة المتعلقة بالصلة ما بين العدل والمغفرة التي يستنتجها ذوو العقول المفكرة والعادية أيضًا، على حد سواء، مِن خلال الخبرة البشرية العامة.

لقد آن الأوان ليفيق المسيحيون من حالة السُبات تلك التي تفرض عليهم قبول العقيدة المسيحية دون مناقشةِ حكمتها. ولو أعاد المسيحيون النظر في عقيدتهم على ضوء المنطق والفهم العام، فلربما يظلون مسيحيين صادقين فعالين ولكن بصورة مختلفة وأكثر واقعية. إنهم عند ذلك سيؤمنون بعمقٍ أكثر وبحبٍ وبتفانٍ أعظم بالحقيقة البشرية للمسيح مقارنةً بذلك المسيح الذي لم يكن إلا نتاج خيالاتهم ولا يمت إلى الواقع بصلة. إن عظمة المسيح ليست في أسطورة ملفَّقة حوله بل تكمن في تلك

التضحية الكبرى التي قدمها المسيح الإنسان والرسول.. تلك التضحية التي تهز القلب بقوّةٍ أكثر وعمقٍ أكبر مما تهزّه أسطورةُ موته على الصليب، وقيامتُه من الموتى، بعد أن أمضى في الجحيم ساعاتٍ قليلةً مروّعة!

## لا يمكن ليسوع أن يكفِّر عن أحد

أخيرًا وليس آخرًا، كيف يمكن أن يولد يسوع بلا خطيئة وقد وُلد من أمّ بشرية؟. فإذا كانت خطيئة آدم وحوّاء قد لَوَّثت جُلَّ ذريتهما فيجب، كنتيجة طبيعية، أن يرث جميعُ الذكور والإناث في هذه الذرية النـــزعةَ نفسها إلى ارتكاب الخطيئة. وربما كانت الإناث أكثرَ عرضة لارتكاب الخطيئة، لأنها هي التي كانت الأداة في يد الشيطان فأغوتْ آدم؛ فلذا مسؤولية الخطأ تقع على عاتق حوّاء أكثر من آدم.

وفيما يتعلق بولادة المسيح فمن الواضح إن بنتًا من بنات حوّاء قد ساهمت بالحصة الكبرى في هذه الولادة. والسؤال الذي يبرز هنا بقوة هو: هل ورث يسوع أيًا من الكروموسومات الحاملة للصفات الوراثية من أمه البشرية أم لا؟ فإذا كان قد ورِث حقًّا فمن المستحيل عليه أن ينجو من حتمية الخطيئة الموروثة. وإن لم يرث أية كروموسومات من أمه أو من الإله الأب فإن ولادته تكون في الحقيقة معجزةً خيالية مضاعَفة، لأن

المعجزة الخيالية فقط هي التي يمكنها أن تأتي بمولود لا صلة له بأبيه ولا بأمه.

وما يبقى غامضًا هو: لماذا لم تنقل الكروموسوماتُ المزوَّدةُ من قِبل حواء نزعةَ الخطيئة إلى المولود يسوع؟ ولنفترض أن ذلك قد حدث بشكل ما، وأن يسوع كان يملك تلك البراءة من الخطيئة حتى يتحمل خطايا البشر بشرط إيمانهم به، فسوف تنشأ مشكلة أخرى وهي التساؤل: ماذا حدث لذرّية آدم وحواء الذين ماتوا قبل فجر المسيحية؟ ماذا حدث للبلايين الذين كانوا منتشرين عبر العالم في القارات الخمس جيلاً بعد جيل. لا بدّ أنهم قد عاشوا وماتوا دون أمل أو حتى دون احتمال أن يسمعوا مطلقًا عن المسيح مخلِّصهم الذي لم يكن قد وُلد بعد! ففي هذه الحالة لا بد أن البشر كلهم بين عهد آدم والمسيح قد حُكم عليهم بالهلاك إلى الأبد وبكل تأكيد!

لِمَ لم يُعطَ هؤلاء المساكين حتى أدنى فرصة ليُغفر لهم؟ هل سيُغفر لهم عن طريق يسوع المسيح بأثر رجعي؟ وإذا كان كذلك، فَلِمَ؟

ثم ماذا حدث لهؤلاء المقيمين في بقاع أخرى من العالم الأوسع بكثير من أرض يهودا الصغيرة، حيث لم يسمع الناسُ مطلقًا عن المسيحية حتى في زمنِ حياة يسوع المسيح، فلم يؤمنوا به في حياته، وما كان باستطاعتهم أن يؤمنوا به أنه ابن الله.

فهل ستُغفر خطاياهم أم أنهم سيُعاقَبون؟ وإذا لم يُعاقَبوا على خطاياهم فلماذا ولأي سبب؟ وإذا عوقبوا فبأي منطق أيضًا؟ وأية فرصة كانت لديهم؟ لقد كانوا عاجزين تمامًا عن فعل أي شيء! يا له من مفهوم مشوّه للعدل المطلق!

## تضحية بالإكراه

والآن دعونا نتحوّلْ إلى مسألة الصَّلب نفسها لنجد أنفسنا أمام معضلةٍ أخرى لا تُحَلّ.

يقال بإصرار إن يسوع قد قدَّم نفسه طوعًا منه لله الأب، فجُعل كبشَ فداءٍ عن خطايا جميع البشر، ولكن طبعًا إذا آمنوا به.

ولكن الواقع أنه حين دنا وقت تحقيق أُمنيته وبدأ بصيص الأمل للبشرية الخاطئة يظهر كفجر يوم جديد، فبدلاً من أن نرى يسوع في بهجته وسعادته ونشوته المتوقعة في تلك اللحظة الفريدة من التاريخ البشري، نجد أننا قد أُصبنا بخيبة أمل عميقة، ونرى أن أحلامنا قد تبخرت وتوقعاتنا قد تبدّدت في تلك اللحظة الحاسمة! فبدلاً من أن نرى يسوعًا مخلِّصًا ينتظر بفارغ الصبر ساعة الفرح والابتهاج، نجد يسوعًا يبكي ويصرخ داعيًا ومتوسلاً إلى الله الأب أن يُبعِد عنه كأسَ الموت! لقد عنّفَ يسوع أحدَ حواريّيه بشدّة عندما وجده يغالب النعاس بعد قضاء

يوم طويل ومشؤوم، وبعد معاناة ليلة قاتمة كئيبة سيئة له ولسيده المقدس. لقد جاء ذكر هذا الحدث في الإنجيل كما يلي:

"ثم ذهب يسوع وتلاميذه إلى بستان يدعى جثسيماني، وقال لهم: «اجلسوا هنا ريثما أذهب إلى هناك وأصلي». وقد أخذ معه بطرس وابني زبدي وبدأ يشعر بالحزن والكآبة. فقال لهم: «نفسي حزينة جدا حتى الموت! ابقوا هنا واسهروا معي!» وابتعد عنهم قليلا وارتمى على وجهه يصلي، قائلا: «يا أبي، إن كان ممكنا، فلتعبر عني هذه الكأس: ولكن، لا كما أريد أنا، بل كما تريد أنت!» ورجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين، فقال لبطرس: «أهكذا لم تقدروا أن تسهروا معي ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لكي لا تدخلوا في تجربة. إن الروح نشيط؛ أما الجسد فضعيف». وذهب ثانية يصلي، فقال: «يا أبي، إن كان لا يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا بأن أشربها، فلتكن مشيئتك!» ورجع إلى التلاميذ، فوجدهم نائمين أيضا لأن النعاس أثقل أعينهم" (إنجيل متى، الإصحاح ٢٦: ٣٦ – ٤٣).

واحسرتاه! أن الإله الأب – كما تبين القصة المسيحية – لم يَقبل دعواتِ يسوع وتوسلاتِه، كما لم يستجب دعوات حوارييه وتوسّلاتهم! فصُلِبَ يسوع في نهاية المطاف بالرغم من رفضه المتكرّر، سواء رَضيَ بذلك أم لا! فهل كان هذا الشخص أميرَ البراءة ونموذجَ التضحية الذي تطوّع بنفسه بكلّ شجاعة

ليَحمل أعباء جميع خطايا البشر على كتفيه، أم كان شخصًا آخر؟

إن سلوكه في كلتا الحالتين: حادث الصلب وساعة الصلب بالضبط، يلقي بشدّة ظلالَ شكٍّ؛ إما حول هوية وحقيقة يسوع المسيح، أو حول حقيقة الأسطورة المنسوجة حول شخصه!

لنتركْ ذلك جانبًا ولنعُدْ إلى فحصنا النقدي من حيث توقَّفْنا. هناك بعض الأسئلة التي تَبرز من خلال صرخة الألم الأخيرة ليسوع المسيح: من الذي أطلق تلك الصرخة الحزينة المؤثّرة قائلاً: "إلهي إلهي لماذا تركتني؟" هل كان الذي أطلقها يسوع الإنسان، أم كان يسوع ابن الله؟ وإذا كان هو يسوع الإنسان، فمَن الذي تركه؟ ولماذا؟! إذا قبلنا هذا الاختيار فلا بدّ عندئذ لنا أيضًا من أن نقبل أن يسوع الإنسان قد احتفظ، حتى اللحظة الأخيرة، بشخصية مستقلة منفردة كان بإمكانها التفكير والإحساس بحريّة بصفة مستقلة.

وهل مات يسوع ابن الله لحظةَ مفارقةِ روحه للجسد البشري الذي كانت تسكن فيه؟ وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ، وكيف؟ وإذا كان الجسد البشري هو الذي مات بعد أن غادرته الروح الإلهية فإن السؤال الذي يبرز هنا هو: من الذي بُعثَ ثانية من الموت عندما عادت روح الله إلى الجسد نفسه فيما بعد؟ كذلك يقودنا هذا الاختيار أيضًا إلى الاعتقاد بأنه لم يكن يسوع ابنُ الله الذي قد عانى على الصليب، بل إن شخص يسوع الإنسان..

الذي أَطلق صراخه بألم شديد.. كان يعاني، بينما كان يسوع ابنُ الله يتفرج في فتور وتجاهُل تام!

إذًا كيف يمكن تبرير القول بأن يسوع ابنَ الله هو الذي عانى من أجل البشرية، وليس يسوع الإنسانُ؟!

أما الاختيار الآخر فهو افتراضنا أن يسوع ابن الله هو الذي أَطلقَ صرخة الألم، في حين أن يسوع الإنسان، الذي ربما أمل أن يبدأ حياة جديدة لنفسه، كان يراقبُ مشهد الصَّلب دون أن يعلم حقيقةً فيما إذا كانت هذه التضحية – سواء رضي بها أم لم يرض – ستودي بحياته هو أيضا مع ذلك البريء.. ابنِ الله.. الذي يسكن معه في جسده.

أيّ مفهوم للعدالة ذلك الذي دفع الله إلى قتلِ عصفورين بحجر واحد! ربما هذا لغز آخر!

إذا كان يسوع الإله الابن هو الذي صُلب – وهذا ما يؤكّده إجماع الكنائس المسيحية – فالسؤال الثاني الناتج عن جواب السؤال الأول سيتركّز حول هويّة الطرف الثاني الذي كان يسوع يدعوه متوسّلاً إليه؟! كما يشير النص السالف الذكر من إنجيل متى ٢٦: ٣٩ و٤٢.

وهنا أمامنا خياران اثنان:

الأوّل: أن يسوع الابن كان يخاطب الأب شاكيًا أنه قد تخلّى عنه حين دعت الحاجةُ! وهذا يقودنا حتمًا إلى الإيمان بأنهما كانا شخصَين مختلفَين ولم يتواجدا معًا في شخصية واحدة مشتركة

بحيث يشتركان على السواء في جميع صفاتها ويُظهرانها في آن واحد وبشكل متساوٍ. أحد هذين الشخصين يبدو أنه الحاكم الأعلى، القادر المقتدر على إصدار القرارات؛ بينما الآخر، وهو الابن المسكين، يبدو محرومًا كليةً ولو بشكل مؤقت، من جميع الصفات المسيطرة التي يتمتع بها أبوه. إن النقطة المركزية التي يجب التركيز عليها هي أن إرادتيهما المختلفتَين ورغباتهما المتعارضة تَبدو في المرحلة الأخيرة من مأساة الصلب أكثرَ تناقضًا وتعارضًا فيما بينها مما كانت عليه من قبل.

والسؤال الثاني هو: هل كان من الممكن لهذين الشخصَين المختلفَين اللذين يتميز كل منهما عن الآخر بأفكارٍ وقيمٍ وقدراتٍ مختلفة، أن يَشعرا بالألم والعذاب معًا فيما لو كانا اثنين في واحدٍ وواحدًا في اثنين؟

وكذلك ثمّة سؤال آخر يتطلّب حوارًا طويلاً بين علماء اللاهوت فيما إذا كان بمقدور الله أن يتحمل الألم والعقاب. وحتى لو كان ﷻ قادرًا على ذلك فإن نصف الله فقط سيعاني والنصف الآخر لن يعاني، إما بسبب هذه الخطة، أو بسبب طبيعة الإله الذي يتنـــزه عن ذلك. وكلما تعمّقنا في عالم الأوهام المحيط بتلك الفلسفة الملتوية، رأينا النور يتلاشى شيئًا فشيئًا، وظلمات الشك والفوضى تتراكم بعضها فوق بعض.

والمشكلة الأخرى هي: إلى مَن كان المسيح يتوسّل وقت الدعاء والابتهال إذا كان هو الإله نفسه؟ فهو عندما تَوجّه إلى

أبيه كان هو ذاته جزءًا لا يتجزّأ من أبيه كما يقولون. إذًا ماذا كان يسوع يقول، وإلى من كان متوجهًا بالخطاب؟

ينبغي أن تتمّ الإجابة على هذا السؤال بضمير حرّ ودون اللجوء إلى مبدأ العقائد البحتة التي لا تناقش، وهذا ما يلجأ له المسيحيون عادة. ولكنه في الحقيقة يصبح اعتقادًا بحتًا عندما يتعذر شرحه بالمفاهيم البشرية. وبناءً على ما جاء في الإنجيل فإن يسوع عندما كان على وشك أن يُسلِّم الروح صاحَ مخاطبًا الإله الأب: "لماذا تركتني؟" فمَن الذي ترك الآخر يا تُرى؟ هل تخلى الإلهُ عن الإله؟!

## من الذي صُلِبَ؟

المشكلة الأخرى التي لا بدّ لنا من مواجهتها هي أن الإنسان الموجود في يسوع لم يُعاقَب؛ وكان ينبغي ألا يُعاقَب أيضًا بحسب أي منطق، لأنه لم يَختر مطلقًا أن يحمل عبء أخطاء البشرية. هذا العنصر الجديد الذي يدور حوله الجدلُ يقودنا إلى وضعٍ غريب جدًّا لم نتأمل فيه من قبل. إن المرء ليتعجب من علاقة الإنسان الموجود في يسوع بميله الموروثِ إلى ارتكاب الخطيئة المشترَكة بين جميع أبناء آدم وحواء. وفي أحسن الأحوال يمكن للمرء أن يُقنِع نفسه بالاعتقاد أن في ثنائية "الابن الإلهي" و"الإنسان" المحتلَّين الجسدَ نفسه، كان "الابنُ الإلهي" وحده بريئًا من الإثم والخطيئة. ولكن ماذا عن الإنسان البشر الذي يعيش

معه في ذلك الجسد جنبًا إلى جنب! هل كان هو أيضًا قد وُلد من كروموسومات وخصائص زوّده الله بها؟ فإذا كان الأمر كذلك فيجب أن يتصرّف هو أيضًا كالإله الموجود في يسوع، ولن يُقبَل منه أيُّ عذرٍ إذا أهمل في أمر من الأمور بحجة أنه قد فعل ذلك فقط لأنه كان إنسانًا بشرًا.

وأما إذا لم يكن فيه – أعني في الإنسان الموجود في يسوع – شيءٌ يخص الله، فيجب أن نعترف بأنه كان مجرّد إنسان عادي، بل ربما نصف إنسان فقط! ومع ذلك فإن ذلك الإنسان المدموج في يسوع يجب أن يكون بشرًا حقيقيًّا ليرث طبيعة ميَّالة إلى الخطيئة. وإذا لم يكن كذلك، فَلِمَ لا؟

والواضح أنه لا جدوى من القول: إن يسوع لكونه بشرًا منفصلاً تمامًا عن شريكه الإلهي يكون قد وقع في الخطأ بصفته المستقلّة متحملاً جُلَّ مسؤولية الخطيئة.

إن هذا السيناريو لا يمكن أن يتمّ بدون أن نُعرِّض يسوع "ابنَ الله" للموت، ليس أبدًا من أجل خطايا البشر، وإنما قد يكون اهتمامه الأول أن يموت من أجل نصف أخيه، أعني للإنسان الموجود فيه.

إنه في غاية الصعوبة – إن لم يكن مستحيلاً – أن يستسيغ العقل كل هذه الأمور! ولكن من وجهة نظرنا ليس هناك أية مشكلة إطلاقًا. لقد كان الشخص البريء هو يسوع الإنسان

وهو الذي أطلق صرخة الدهشة والألم؛ دون أن يكون ثمّة أية ثنائية فيه.

## معضلة يسوع

دعوني أوضّحْ لكم ثانية أنني لا أكفر بعيسى بل أُكنّ له احترامًا عميقًا كرسولٍ لله ﷻ، وله الفضل في تقديم تضحيات غير عاديّة. إنني أفهم عيسى على أنه رجلٌ رباني طاهر مرَّ في فترة ابتلاء عظيم، ولكن عندما تبدأ رواية عملية الصَّلب وتأتي إلى نهايتها فلا يبقى لنا خيارٌ إلا أن نؤمن بأن يسوع لم يتطوّع من نفسه ليموت على الصليب. وفي الليلة التي سبقت اليوم الذي حاول أعداؤه أن يقتلوه بالصَّلب نسمعه يصلي ويدعو اللهَ طوال الليل مع حوارييه، لأن مصداقية دعواه باتت في خطر. لقد جاء في العهد القديم أن النبي الكاذب الذي يعزو إلى الله كلامًا لم يقله ﷻ سوف يُعلَّق على خشبة ويموت عليها ميتة ملعونة. والنص الوارد في سفر التثنية، الإصحاح ١٨ العدد ٢٠ هو كالآتي:

"وأما النبي الذي يتجبر فينطق باسمي بما لم آمره أن يتكلم به، أو يتنبأ باسم آلهة أخرى، فإنه حتما يموت".

وجاء في السِّفر نفسه الإصحاح ٢١ العدد ٢٢- ٢٣:

"إن ارتكب إنسان جريمة عقابها الإعدام، ونفذ فيه القضاء وعلقتموه على خشبة، فلا تبت جثته على الخشبة، بل ادفنوه في

نفس ذلك اليوم، لأن المعلق ملعون من الله. فلا تنجسوا أرضكم التي يهبها لكم الرب ميراثا".

ولقد علم عيسى أن ذلك لو حدَثَ به فعلاً فإن اليهود سيحتفلون في نشوةٍ، ويعلنون أنه مدَّعٍ كاذب قد ثبت كذبه في نهاية المطاف دون أدنى شك بناءً على ما جاء في الكتاب المقدّس. كان هذا هو السبب وراء تلهفه الكبير للنجاة من كأس الموت المرّ، ولكن لم يكن هذا من منطلق الجُبن، بل خوفًا من أن يُضَلَّل قومُه ويفشلوا في إدراك الحقيقة، لو مات على الصليب.

لقد دَعا عيسى اللهَ ربَّه طوال الليل، وتوسّل إليه بِتواضع بالغٍ يثير الشفقة والرثاء، وبشكل يجعل قلب قارئ هذه الرواية المأساوية يتمزّق حزنًا وأسى. وعندما تقترب هذه الرواية المأساوية من نهايتها نجد أن ذروة حزنه واكتئابه وغمّه وألمه وعجزه تنعكس في صرخته الأخيرة: "إلهي إلهي، لماذا تركتني!" حيث نقرأ في إنجيل متى، الإصحاح ٢٧ العدد ٤٦: "ونحو الساعة الثالثة صرخ يسوع بصوت عظيم: «إيلي، إيلي، لما شبقتني؟» أي: إلهي، إلهي، لماذا تركتني؟"

ولا بدّ هنا من ملاحظة أن تلك الصرخة لم تعبّر فقط عن الألم والعذاب، بل كانت بدون شك ممزوجة أيضا بعنصر المفاجأة الممتلئة خوفا ورعبا!

ثم لما استردَّ وعيه بمساعدة بعض حواريّيه المخلصين – الذين عالجوا جروحه بِمَرْهَمٍ كانوا قد أعدّوه قبل الصَّلب، وكان

يحتوي على جميع العناصر النافعة لتسكين الآلام وشفاء الجراح – فلا بدّ أنه سعِد وفرِح بتلك المفاجأة الجميلة، وازداد إيمانه بالله المحب الحق بقوةٍ وعمقٍ يندر أن يشعر بها إنسان.

إن حقيقة كونِ المرهم قد أُعدَّ مسبقا تُشكّل برهانا قويا على إن حواريّي عيسى كانوا حقا يتوقعون وينتظرون نجاتَه من الموت على الصليب؛ وأنه سيكون بحاجة ماسّة إلى علاج طبّي يشفي جروحه.

وهكذا تبين مما سبقَ بوضوح وبصورة مقنعة أن مفهومي الخطيئة الموروثة والصلب قد بُنيا على مجرّد التخمين وأماني رجال الدين المسيحي في مرحلة متأخّرة. ومن المحتمل جدّا أن هاتين العقيدتين قد تولّدتا عن أساطير مشابهة أخرى تعود إلى ما قبل المسيحية، وعندما طُبّقت على ظروف المسيح عيسى أغرتْهم ليخلقوا أسطورة مشابِهة بعد ما رأوا بينهما مماثلات متقاربة. وعلى كلّ حال، فمهما كان هناك من غموض أو تناقض، كما يبدو لنا، ليس ثمّة أيّ دليل على أن فلسفة الخطيئة والكفارة المسيحية قد بُنيت على شيء قاله المسيح أو فَعَله أو عَلَّمه؛ إذ ما كان لعيسى أن يعلِّم أشياء تناقض العقل البشري كليّا.

## هل الإله الأب قد عانى أيضا؟

إذا تطرقنا إلى طبيعة "الابن" فإننا لا يمكن أن نصدق بأنه قُذف في نار الجحيم، لأن ذلك يعني تناقضا داخليا مع ذاته.

وبالعودة إلى المفهوم الأساسي المسيحي نجد أنه يُقال: "الإله" و"الابن" هما شخصان ويشتركان في طبيعة واحدة وماهيّة واحدة بحيث من المستحيل أن يمرّ أحدهما بتجربة دون أن يشاركه الآخر فيها. إذن كيف يمكننا أن نؤمن أو نصدّق بأن جزءا من الإله "الابن" تمَّ تعذيبه، بينما بقي الإله الأب دون أن يمسه أذى؟ لأنه إذا لم يعانِ الإله "الأب" من شيء فذلك يعني تحطيم وحدانية الله ﷻ.

وأما عقيدة الثلاثة في واحد فتصبح أكثرَ بُعدا عن الإدراك، لأنه قد تبيّنَ أن تجارب كل واحد من هذا الثالوث تختلف إلى حدّ كبير وتبتعد بعضها عن بعض بحيث يبدو مستحيلا أن يكون أحد هذه الآلهة في نار جهنم، بينما يظلّ الآخر في الوقت نفسه بعيدا عنها تماما ولا يمسّه من سوء.

ليس ثمّة خيار آخر للمسيحيين اليوم إلا إما أن يضحّوا بوحدة الله، ويؤمنوا بآلهة ثلاثة مختلفة، تماما كالوثنيين الذين عاشوا قبل المسيحية مثل الروم واليونانيين، أو أن يصدقوا مع أنفسهم، ويؤمنوا بوحدانية الله، وأنه لا يمكن أن يكون لله وجهان مختلفان يناقض كلٌّ منهما الآخرَ.

حين يعاني الطفل يستحيل على أمه أن تظل هادئة مطمئنة، ولا بد أن تعاني هي أيضا، وفي بعض الأحيان أكثر من الطفل. ماذا عسى أن تكون حالة الإله "الأب" حين جعل ابنه يعاني من الكرب ثلاثة أيام في الجحيم؟ وماذا كانت حالة "الإله الابن"؟

هل انقسم إلى شخصينِ ذوي شكلين وماهيّتين مختلفتين، إحداهما تُعاني من العذاب في الجحيم، وبقيت الأخرى بعيدة تماما بلا أي نوع من المعاناة؟ وإذا كان الإله الأب يعاني، إذن فما كانت الحاجة إلى خلق "الابن" لتحمّل المعاناة فقط ما دام بإمكان الأب أن يعاني هو بنفسه؟ وهنا يتبادر سؤال مباشر: لماذا لم يعانِ اللهُ الأبُ بنفسه ولنفسه؟ ولماذا رسم هذه الخطّة الصعبة ليحلّ مشكلة المغفرة؟!

## العقاب بالنار

ولا بدّ هنا من فحصٍ أدقَّ لمسألة الجحيم التي وقع فيها يسوع بحسب المعتقد المسيحي. أي نوع من الجحيم كانت تلك؟ هل كانت هي الجحيم نفسها التي نقرأ عنها في العهد الجديد كما يلي:

"يرسل ابن الإنسان ملائكته، فيخرجون من ملكوته جميع المفسدين ومرتكبي الإثم، ويطرحونهم في أتون النار، هناك يكون البكاء وصرير الأسنان." (إنجيل متى، الإصحاح ١٣ العدد ٤١-٤٢)

وقبل أن نتابع حديثنا لا بد أن نفهم بوضوح تامّ ما يعنى به العهد الجديد بالعقاب بالنار والعقاب في الجحيم. هل هي نار تحرق الروح؟! أم أنها نار مادّية تُحرِّق الجسد وتُعذِّب الروح؟ وهل يؤمن المسيحيون أننا سوف نعود بعد الموت إلى الجسد ذاته

الذي غادرته الروح وتركته ليتحلّل إلى تراب ورماد، أم سيكون هنالك جسد جديد يُخلَق لكلّ روح؛ وهل الشخص الذي يُبعث سوف يمر بنوع من التناسخ؟

إذا كان التعذيب ماديا والعقاب جسديا، فلا بدّ أن يطلق المرء لخياله العنان، ليتخيل ماذا يمكن أن يكون قد حدث ليسوع المسيح. وقبل أن يوضع جسد يسوع على النار هل حُبِست روحُه ثانية في جسد الإنسان الذي كان يلازمه طوال حياته على الأرض، أم أنه قد أُحيل بشكل ما إلى جسد سماوي؟ وإذا كانت روحه قد تحولت إلى جسد سماوي فإن ذلك الجسد السماوي سيكون بعيدا عن متناول النار المادية لجهنم التي تحرق أو تعاقب أو تدمر.

ومن ناحية أخرى، إذا قبلنا أن جسد الإنسان الذي كان يحتله يسوع سيُبعَث من جديد ليعاني من خلاله العذاب فلا يمكن للمرء إلا أن يلاحظ أن ضربة أخرى توجَّه لمبدأ العدالة الإلهية! يا له من إنسان مسكين، إذ استولت على جسده روح غريبة عنه طوال حياته، ثم كمكافأة له على كرم الضيافة المفروضة عليه، يحرَّق ويعذَّب في الجحيم دونما جرم اقترفه. ثم تحتكر تلك الروح الغريبة عن جسده ثواب هذه التضحية. ثم ماذا عن روح ذلك الإنسان؟ ربما لم يكن يملك روحا خاصة به؟

فإذا لم يكن لذلك الرجل روح خاصة به، فيجب أن يكون الإنسانُ الذي في يسوع، والإلهُ الذي في يسوع شخصا واحدا،

وبالتالي فإن الحجة أن يسوع تصرّف أحيانا بدوافع بشرية وأحيانا أخرى بإرادة إلهية، ليست إلاَّ محض هراء وخداع.

إنما الصيغة الوحيدة المقبولة للفكر والعقل هي أن روحا واحدة وجسدا واحدا يشكلان شخصا واحدا. أما روحانِ وجسد واحد، فهي فكرة غريبة وشاذة يمكن أن يأخذ بها فقط أولئك الذين يؤمنون بوجود أناس تسكن فيهم الأشباح أو ما شابه ذلك.

## التضحية والنعيم الروحي

إذا كان الاختيار الثاني أكثر قبولا لدى رجال الدين المسيحي لأنه يفترض أن روح يسوع فقط هي التي دخلت الجحيم، وأن الجحيم كانت جحيما روحية؛ عندها يبدو أنه ليس هناك سبب لرفضنا هذا الاقتراح على أنه محض هراء. ولكن الجحيم الروحية إنما تنشأ فقط من وخز الضمير والإحساس بالذنب؛ ولا ينطبق أي من هاتين الحالتين على يسوع المسيح. وإنك عندما تَقبَلُ أن تتحمل عقوبةَ جريمة ارتكبها غيرك وأنت منها بريء، فلا يتولّد في داخلك وخْز الضمير بل يحدث العكس تماما؛ إذ تشعر روحك عندئذ بالنُبل والتضحية بالنفس؛ الأمر الذي هو بمثابة جنة روحية وليس جهنم.

والآن نعود إلى مسألة الجسد الذي احتله يسوع؛ ومعنى الموت بالنسبة إلى ذلك الجسد، وكذلك معنى الإحياء في هذا السياق.

على ضوء أفضل ما نعرف فإن جسد يسوع المسيح يجب أن يكون جزءا لا يتجزّأ من بُنوّة يسوع لله تعالى، وإلا لما كان له أرضيةٌ مشترَكة تظهر عليها ألوهيتُه وبشريّتُه، وتقومان بأدوار مختلفة تماما تحت ظروف معينة. يجب أن نرى الإنسانَ يتولّى زمام الأمور أحيانا، بشرط أن له روحا منفصلة كبشر؛ وأحيانا أخرى يتدخل الوجود الإلهي ويضبط قوى الإنسان العقلية والقلبية. ونؤكد أيضا أن هذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا سُجنت شخصيتان مختلفتان في كيانٍ واحدٍ!

## معنى الموت بالنسبة للمسيح

بعد أن فهمنا بوضوحٍ الخيارات المختلفة المتعلقة بالأدوار النسبية التي كان بإمكان الإله والبشر الموجودين في يسوع أن يؤدّياها، فإننا نحاول الآن أن ندرك تطبيق كلمة "الموت" على يسوع بمعناها الكامل.

إذا كان المسيح قد مات لثلاثة أيام وثلاث ليال، فالموت يجب أن يُفهَم بأن الروح انفصلت عن الجسد وغادرته كلية.. أي تفارقُ الروح الجسدَ وتقطع صلتَها به نهائيّا، بحيث تُخلِّف وراءها جثّة هامدة فقط.

إلى هنا ليس في القصة غرابة، فقد تحرَّر يسوع أخيرا من سجنه في الجسد المادي البشري. ولكن يجب ألا يُعتبر تحرره من هذا السجن عقابا له على الإطلاق، لأن عودة روح "الابن" الإلهية إلى المستوى الرفيع نفسه من الحياة لا يمكن أبدا أن تُعتبر مساوية للموت البشري العادي. إن الموت البشري تجربة مخيفة مروعة، ليس لأن الروح تغادر الجسد وتقطع صلاتِها عنه بعد حصولها على شعور جديد، بل لأن أهوال الموت تنجم عن حقيقة أن المحتضَر يقطع صلاتِه نهائيّا عن كثير مِن أَحِبّتِه الذين هو تاركُهم بعده، ويترك وراءه جميع ممتلكاته وأشياء كثيرة يحبها، فكثيرا ما يحدث أن الإنسان الذي لا يملك شيئا يعيش من أجله يفضّل الموتَ على أن يعيش عيشا فارغا. ولكن في حالة يسوع المسيح لم يتواجد الإحساس بالأسف والحسرة، وذلك لأن نافذة الموت بالنسبة له كانت مفتوحة في اتجاه واحد فقط، وهو اتجاه الربح وليس الخسارة. إذًا لماذا يُعَدّ رحيلُه عن الجسد تجربةَ معاناة شديدة تستحق الرثاء؟

ثم لو كان قد مات مرة موتا حقيقيّا لا مجازيّا، وسلّم روحه، كما يريد المسيحيون أن نصدِّق، فالعودة إلى الجسد نفسِه تُعَدُّ خطوة غيرَ حكيمة للغاية تُنسب إليه. فهل وُلد من جديد عندما رجع إلى الجسد الذي كان قد هجَره ساعة الموت؟ وإذا كانت هذه العملية توصف فقط بعودة يسوع إلى الحياة أو بقيامه من الموتى فيلزم أن يكون هذا الجسد أيضا أزليا. ولكن ما نقرؤه في

الإنجيل هو قصة مختلفة تماما، حيث يروى أن يسوع قام من الموتى بدخوله الجسدَ نفسه الذي صُلب فيه، وهذا ما سُمِّي بعودته إلى الحياة فإذا كان الأمر كذلك فماذا سيكون معنى عملية هجره لذلك الجسد مرة ثانية؟ ألا يعني ذلك موتا ثانيا؟

إذا كانت المغادرة الأولى للجسد موتا فإن مغادرته للجسد البشري للمرة الثانية لا بد أن تعني إعلانَ موت المسيح موتا أبديّا.

عندما تهجر الروحُ الجسدَ للمرة الأولى تسمّون ذلك موتا، وعندما ترجع إلى الجسد نفسه تدعون ذلك حياة بعد الموت؛ إذن ماذا عساكم أن تسمّوا مغادرة الروح للجسد مرة ثانية دون أن تعود إليه إلى الأبد؟ هل يسمّى ذلك - حسب المصطلح المسيحي - حياة أبدية أم موتا أبديّا؟ لا شك أنه يعني الموت الأبدي ولا شيء سواه. تناقض فوق تناقض! ويالها من تجربة محطِّمة للأعصاب!

ولو قيل بأنه لم يغادر الجسد في المرة الثانية لوجدنا أنفسنا أمام موقف غريب يصوّر الإله الأب موجودا في كينونة روحية لا جسد لها ولا نهاية، بينما يبقى الإله الابن محتجَزا في حدود الحياة الفانية.

## معاناة محدودة لخطيئة غير محدودة

يمكن القول إنه ليس وخز الضمير دائما الذي يسبب المعاناة العقلية والقلبية لأناس مُرهَفي الحس تجاه خطاياهم، إذ نجد على النقيض أن التعاطف الشديد تجاه معاناة الآخرين أيضا يمكن أن تخلق حياةَ ألم ومعاناة لشخص يكون بريئا من الجريمة كليّا أو جزئيّا، ولكنه يملك تلك الميزة الروحية النبيلة التي من شأنها أن تعاني من أجل الآخرين. إن ذلك من شأنه أيضا أن يتسبب في ما يشبه الجحيم، فالأمهات يعانين بسبب مرض أطفالهن؛ وتشهد الخبرة الإنسانية على أن حياة الأم كلها تتحول إلى جحيم مقيمة مدى الحياة من أجل طفل معاق. فلماذا لا نسلّم بوجود تلك الصفة النبيلة في المسيح التي جعلته يعاني من أجل الآخرين؟ لم لا؟ ولماذا لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال فقط، بدلا من أن نسلّم بذلك طيلةَ مدة إقامته في الأرض وحتى قبل ذلك وبعده؟ فالنبلاء من الناس لا يعانون مؤقتا فقط ولفترة قليلة من الساعات أو الأيام فحسب، بل لا تنعم قلوبهم بالراحة والسلام إلاَّ إذا رأوا معاناة القوم قد خفّت أو زالت كلية.

إن الجحيم التي نحن بصددها ليست مقصورة على الشخص الرباني البريء فقط، بل هي صفة نبيلة مشتركة، يشارك فيها حتى وحوش الغابة تجاه قرباهم.

بعد ملاحظات قليلة أخرى سأُنهي هذا البحث، ولكن لا زال لديّ موضوع هام آخر لأتطرق إليه ولو بإيجاز. إن العقاب الذي

فرضه الله على يسوع المسيح قد استمر لثلاثة أيام وثلاث ليال، بينما المذنبون الذين عوقب المسيح من أجلهم قد اقترفوا ذنوبا مريعة لأمد طويل جدّا بحيث يذكر الإنجيل أن عقابهم معاناة أبدية في جهنم. فأي إله عادل هذا الذي قضى بالعقاب الأبدي عندما كان الأمر يتعلق بعباد ولم يكونوا أبناءَه أو بناته؛ ولكن عندما كان الأمر يخصّ عقاب ابنه هو على أخطاءٍ تطوَّع بنفسه لحملها نجده فجأة يخفّف العقوبة إلى ثلاثة أيام وثلاث ليال فقط! لا مجال لأية مقارنة أبدا. وإذا كان هذا هو العدل فلا كان العدل.

ولو أن البشر الذين خلقهم الله بيمينه غيّروا معايير العدل كما تعلّموا منه، فطبّقوا في حق أبنائهم مقاييس وفي حق أبناء الآخرين مقاييس أخرى تماما، فكيف سينظر الله إلى سلوكهم؟ هل سينظر الإله الأب إلى هذا "التقليد المخلص" من قِبلهم بسرور أم بغضب؟ لا شك أن الإجابة على هذا التساؤل جد صعبة!

## ماذا غيّرت الكفّارةُ؟

فيما يتعلق بتأثير صلب يسوع المسيح في العقاب على الخطيئة فقد بيّنّا مسبقا أن الإيمان بيسوع المسيح لم يقلل أبدا من العقاب الذي قضى به الإله الأب على آدم وحواء وذريتهما. فما زالت

جميع الأمهات يلدن أطفالهن بآلام الولادة، كما ما زال الرجال يكسبون عيشهم بمشقة وجهد.

يمكن أن ندرس هذا الموضوع من منطلق آخر أعني بمقارنة شاملة بين العالم المسيحي وغير المسيحي منذ زمن يسوع المسيح. لا أحد من المؤمنين بيسوع المسيح يقدر على أن يُرينا في أية فترة من التاريخ أيَّ تغيُّر ملحوظ في موضوع الولادة حيث تكون نساؤهم قد أنجبن الأطفال دون ألم، أو يكون رجالهم قد كسبوا العيش دون عناء. ليس هناك أي اختلاف في هذا الشأن بين العالم المسيحي وغيره.

وأما فيما يتعلق بنـــزعة ارتكاب الخطيئة فإن المقارنة بين المؤمنين بيسوع المسيح وغيرهم لا تقدّم أي دليل على أن النـــزوع إلى الخطيئة قد مُحيت نهائيّا من بين الفئة المؤمنة بيسوع المسيح.

ثم إن المرء ليتعجب حقّا: لماذا يُعتبر الإيمان بالله أقلَّ شأنا لهذه الدرجة من الإيمان بـــ "ابنه"؟ وهذا مختص بالزمن الذي سبق كشفَ هذا السر – بأن لله ولدا – الذي ظل لزمن طويل مخفيّا على الناس تماما! لا شك أنه كان هناك أناس يؤمنون بالله ووحدانيته. كما وُلد عدد لا يحصى من الناس منذ زمن المسيح وفي كل دين وأرض ممن آمنوا بالله ووحدانيته. فكيف لا يحمل الإيمان بالله أيَّ تأثير في الجريمة البشرية والعقاب؟ ولماذا لم يستطع الإله الأب أن يعاني بسبب نُبله من أجل المخطئين كما فعَل ابنه

الذي كان أكثر منه نبلا؟ يبدو من المؤكد أن "الابن" كان يملك – والعياذ بالله – قيما أخلاقية أرقى وأعلى من الأب الذي هو أقلُّ تحضُّرا!

رُبَّ سائل يتساءل: هل لا زالت الألوهية تتطور من أجل الكمال المنشود؟!

# الفصل الثالث

# دور الروح القدس

لقد ناقشنا حتى الآن مسألة يسوع، ابنِ الله المزعوم، وكذلك مسألة "الإله" الذي يُعتبر الأب الحقيقي ليسوع. ومع ذلك هنالك كائن آخر اسمه "الروح القدس" الذي بحسب العقيدة المسيحية – رغمَ كونه يملك شخصيته المستقلة المتميزة أيضا – يظل مندمجا وذائبا بشكل دائم وكامل مع "الأب" ومع "الابن" بحيث يشكل اندماجهم جميعا وحدانية في ثلاث.

ولنتوجه الآن إلى السؤال: فيما إذا كان للروح القدس ذات منفصلة عن الله أو يسوع، أم أنهم جميعا شركاء في ذات واحدة؟

ويمكن وصفُ "الذات" هنا بأنه الوعي الأقصى الذي – حسب التحليل النهائي – هو غيرُ قابل للتجزئة ومختص بكل فرد، وإن وعي هذا "الذات" بوجوده كشخص متميّز عن الآخرين يُولِّد شعورَ "أنا" و"لي" و"خاصّتي" مقابلَ "هو" و"له" و"أنت" و"لك" و"خاصّتك".

وعند النظر في هذه الأجزاء الثلاثة للألوهية يجب علينا أن نحلّ السؤال التالي: هل كانت لكل من الأجزاء الثلاثة ذاتٌ مستقلة خاصّةٌ به أم لا؟ فإذا لم تكن لكل منها ذاتٌ مستقلة متمايزة فلا معنى لأن تُنسَب إلى هؤلاء الثلاثة شخصياتٌ منفصلة، لأن كلّ

ذات، مهما كان قريبا من الآخر، لا بدّ أن يتمتع بوعي فردي خاصٍّ به.

إن الموقف الرسمي لمعظم الكنائس واضح ومحدد جيدا، فهي تزعم أن كلا من الأقانيم الثلاثة لذات الله يملك شخصية منفصلة متميّزة خاصّة به.

إذًا فهي ليست مجرّد (ثلاث في واحد)، بل هي ثلاثة أشخاص في شخص واحد، وبالتالي لا بد أن الروح القدس قد شارك المسيحَ وبشكل مساوٍ في المواجهة المريرة للموت وفي جميع نتائجها المدمرة، وعليه فلا بدّ أن يكون الروح القدس أيضا شريكا في التضحية مع يسوع، وكذلك لا مناص من أن يكون قد عانى عذابَ الجحيم في صحبة يسوع والإلهِ الأبِ. وإذا لم يكن كذلك فلا يملك المرء إلا أن يصل إلى النتيجة الحتمية بأنهم ما كانوا ثلاثةَ أشخاص مختلفين ومتمايزين فحسب، بل إن انفعالاتهم وخصائصهم العقلية والعاطفية كانت هي الأخرى مختلفة ومعزولة بعضها عن بعض.

علينا – ونحن نحاول التعمق في رؤيتنا لمفهوم الثالوث المسيحي – أن نسعى لأن نتخيل حقيقةَ أشخاص ثلاثة يندمجون معا، أو موجودين مندمجين في شخصية واحدة دائما وإلى الأبد، ولكن حتى الآن قد فشلنا في أن نرى كيف أمكنهم أن يندمجوا في انفعالاتهم وتفكيرهم.

الخيار الوحيد الذي بقي أمامنا هو الاندماج في الجسد. وذلك يذكّرنا – ولو بمقياس مختلف – بالوحش الخرافي ذي الرؤوس الأَفْعَوانية التِّسعة، التي كلّما قُطع منها رأسٌ نبَت آخر مكانَه – كما تذكر الميثولوجيا اليونانية.

ومن الطبيعي أن الإنسان يعجز عن فهم طبيعة الله وكيف تعمل صفاتُه، ولكنه يستطيع بكل سهولة وبساطة أن يؤمن بكيان واحد مفرد دون أي تحديد لكيفية عمل هذه الصفات الإلهية دون أن تحتاج لأعضاء مثل الرأس أو القلب أو غير ذلك. ولكن السيناريو الذي يقدِّم لنا صورة أحاسيس وأفكارٍ فردية منفصلة لهؤلاء الثلاثة، هو بالتأكيد مخالف للسيناريو المذكور سابقا والمتعلقِ بالكيان الواحد. إنه يخلق صورة لله تعالى يصعب جدّا أن يصدّقها ويفهَمها البشرُ الذين قد عاش كثير منهم زمنا طويلا حاملين العقيدةَ المسيحية دون أن يناقشوها، وكانوا بشكل ما قد أغمضوا عيونهم عن رؤية هذه الانتهاكات الصارخة للعقل البشري، الذي من المفروض أن يكون الله تعالى نفسه قد خلقه في البشر.

## الروح القدس ومسألة الخَلق

إننا لا نشهد أيّ دور للروح القدس ولا ليسوع المسيح في عملية الخَلق! نقرأ في سفر التكوين الإصحاح ١ العدد ١ ما يلي: في البدء خلَق الله السماوات والأرض.

من الواضح تماما أن المشار إليه في العهد القديم هو الله الأبُ دون أدنى إشارة إلى المسيح أو الروح القدس. طوال عهد ما قبل المسيحية، لم يكن بمقدور أحد من بين جميع اليهود – الذين آمنوا بالعهد القديم، والذين لا بدّ أن يكونوا قد سمعوا هذا النص مئات الآلاف من المرات – أن يقرأ اسمَ المسيح أو اسمَ الروح القدس في قصة خلق الكون.

يقترح القديس يوحنا في إنجيله أن المراد من "الكلمة" المذكورة في العهد القديم هو المسيح، حيث يقول في الإصحاح ١ من العدد ١: "في البدء كان الكلمةُ، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمةُ هو اللهَ".

الغريب أن مثل هذا الموضوع الهام قد ذكره مؤلّفُ إنجيلٍ واحد فقط، الذي لم يكن حتى من تلاميذ المسيح! وحتى لو قَبِلَ المرء أن يكون كلامه كلامَ الله، فإن "كلمة الله" هنا إنما تعني إرادة الله فحسب؛ وهذا مفهوم مشترَك بين كثير من الأديان الأخرى فيما يتعلق بعملية الخلق.

ومن المدهش حقا أن يظل هذا السر القديم قِدَمَ الدهرِ – أعني سرّ مشاركةِ المسيح وروحِ القدس في عملية الخلق – مخفيا حتى عن المسيح نفسه، إذ أننا لا نقرأ ولا حتى جملة واحدة لعيسى المسيح ادّعى فيها أنه "الكلمة"، فثبت أنه لم يكن له ولا للروح القدس أي دور في تشكيل وصنع الكون!

وكذلك نعلم من الكتاب المقدّس أن الله "الأب" هو الذي بيديه خلَق الإنسانَ من تراب. وإنني لم أقرأ أبدا في أية كتابات مسيحية أن اليدين اللتين خُلق بهما الإنسان كانتا يدا يسوع والروح القدس، ومن ثم قد خلق الله ﷻ كلَّ شيء بدون أي عون أو مشاركة من يسوع أو الروح القدس. فهل كانا مجرّد مراقِبَين سلبيين يوافقان دوما على ما يفعله الله، أم أنهما قد شاركاه فعلا في عملية الخلق؟

فإذا كان الرأي الأخير هو الأكثر قبولا لدى رجال الدين المسيحي فإن سؤالا يبرز في الحال: هل كان كلّ منهم بمفرده قادرا على الخلق دون مساعدة الآخرَين، أم أنهم (الثلاثة) كانوا قادرين على الخلق مجتمعِين فقط؟! وكذلك لو كانت الحاجة ماسّة إلى الثلاثة معا ليوزّعوا فيما بينهم مهامّ الخلق، فهل كانت شراكتهم في عملية الخلق متساوية، أم أن أحدهم بذل فيها جهدا أكبر؟ وهل كان كل واحد من الثلاثة يملك قُوًى تتفاوت كمًّا ونوعًا، أم أنهم تقاسموا هذه القوى بشكل متساوٍ؟

على المرء أن يعترف بأننا لو أخذنا بأيٍّ من هذين الخيارَين، فإن كل واحد من عناصر هذا الثالوث يغدو غيرَ قادر على أن يخلق بمفرده أي شيء!

ولو أن النقاش ذاته امتدّ ليشمل مهامًّا إلهية أخرى فإن السؤال ذاته سوف يستمرّ في أن يقضّ على رجال الدين المسيحي مضاجعهم. وفي نهاية المطاف فإن المسيحيين سوف يضطرّون إلى

الاعتراف بأنهم لا يؤمنون بذات إلهية واحدة ذاتِ ثلاثةِ جوانبَ ومَظاهرَ لقوّةٍ جلالية مركزية واحدة؛ بل إنهم يؤمنون بثلاثة عناصر للألوهية يكمّلٍ بعضها بعضاً؛ وأنها ثلاثة أقسام أو أجزاء للإله. وأما السؤال عن كون هذه الأجزاء متساوية أو غير متساوية فيصبح عندئذ أقلَّ أهمية نسبيّا.

لنأخذْ مثلا صفةَ العدل والمغفرة. فإن (الابن) يبدو أكثر رحمة، في حين أن الله (الأب) يبدو أقلَّ عدلا من الروح القدس الذي لم يكن له أي دور في الظلم الذي صدر عن الله (الأب)!

والإمكانية الثانية التي ذكرناها هي أن يسوع والروح القدس لم يكن لهما دور في عملية الخلق وحكومة قوانين الطبيعة، وأن هذا بدوره يثير أسئلة كثيرة أخرى:

أوّلا: ما هي الأدوار الموكلة إلى الشريكَين الآخرَين لله (يسوع والروح القدس) في تنفيذ مهامّهما الإلهية؟ فإذا كانا مجرّد مراقبينِ سلبيينِ صامتينِ كالشركاء النائمين فإن هذا سيهبط بهما تلقائيّا إلى مرتبةٍ ثانوية ومقامٍ أدنى، بحيث إنهما يتعايشان مع (الله) ولكنهما، عمليا، لا يشاركانه قواه!

إن أقلّ ما يمكن أن يقال عن هذا المفهوم لله – الذي يُوهم وكأن له ﷻ شريكين عاطلين – هو أنه مفهوم شاذّ وغريب جدّا! وأتساءل: تُرى من الذي يستطيع أن يُرضي ضميره بمثل هذا المفهوم؟ إنه مرفوض طبعا من الناحية العقلية، كما أنه غير منسجم مع المفهوم المسيحي: (الثلاثة في واحد، والواحد في

ثلاثة). إن الوحدانية في ثلاثة لا يمكن التوصل إليها ولا حتى فهمُها – ولو من بعيد – دون أن يكون هناك اتحاد كامل بين الإرادة والقُوى وكلِّ خبرات الحياة أجمع التي يمكن أن يوصف بها كيانٌ حيّ مفرد.

وفي حالة الروح القدس، ولكونه شخصا منفصلا، فما لم يندمج هذا الشخص بشكل كامل ونهائي في الشخصَين الآخرَين بحيث يفقد كيانه كلّه، فإنه لا يبقى ثمّة أمل في ظهور مثل ذاك الإلهِ ذي الرؤوسِ العديدة، والأفكارِ الموحَّدة، والإرادةِ الواحدة، والجسدِ الواحد!

## غموض أم تناقض؟

من المقبول أن يؤمن شخصٌ ما.. بشيء غير مفهوم له تماما.. بناء على دليل قاطع على وجوده. فكثير من الناس، مثلا، لا يفهمون الظواهر التي بمجموعها تُمكِّن من اختراع جهاز الإرسال والاستقبال، وكذلك لا يفهمون أسرار نبضات البث الكهربائي الصوتي والمرئي التي تتحول إلى أصوات وصور تلفزيونية؛ ومع ذلك فإن أقلّ الناس ثقافة وعلما لا بدّ أن يؤمن بحقيقة المذياع والتلفزيون.

وبالمثل فإن معظمنا لا يفهم كيفية عمل الكومبيوتر، ومع ذلك فلن تجد إلاَّ القليل من الناس – في زمننا – الذين قد

يجرءون على إنكار وجود أجهزة الكومبيوتر بسبب عدم معرفتهم بها.

إن مثل هذه الظواهر يمكن أن تُصنَّف على أنها ألغاز غامضة، ولكن لا مجال لإنكارِ وجودها، أو الاستهزاءِ بالذين يؤمنون بوجودها، طبعا بشرط أن يدعمهم دليل لا يمكن دحضه.

كما نقبل أن موقفا أكثرَ مرونة بكثير يمكن أن يوجد بل يُمارَس فعلا في صدد كثير من الألغاز التي توجد على شكل عقائد دينية. فهناك عدد كبير من البشر يؤمنون بمثل هذه المعتقدات دون أن يكونوا قادرين على فهمها أو شرحها، ويبدو أنهم قد ورثوا هذه المعتقدات عبر الأجيال المتعاقبة، واعتبروها بديهية. ولكن عناصر التناقض والتعارض حين تجد طريقها إلى المعتقدات الدينية، فلا يجوز الدفاع عنها بحجة أن الإيمان بالألغاز المحيّرة يبرّر للإنسان أن يصدِّق بالتناقضات أيضا. هنا تصبح المشكلة معقّدة. أستطيع أن أؤمن بشيء لا أفهمه، ولكنني لا أستطيع أن أؤمن بشيء متناقض في حدّ ذاته، كما آمل أنه لا يستطيع ذلك أيُّ إنسان وهو في كامل قواه العقلية والحسية. فأنا مثلا لا أستطيع أن أفهم كيف تُصنع ساعة اليد، ولا بأس في ذلك، ولكن ليس لي أي حقّ في أن أؤمن أن الساعة في الوقت ذاته هي كلب حيّ ينبح ويقفز.

إنها ليست عقيدة غامضة بل هي، ببساطة، تناقض فاضح!

عندما يكون في عقيدة ما تناقضٌ بين صفتين أو أكثر لله تعالى، أو يوجد تنافُرٌ واختلاف بين كلام الله وعملِ الله، فهذا يعني أن حدود الغموض قد تمّ تجاوزُها بشوط كبير، ويجد المرء نفسه مدفوعا خارجَ مجال الغموض وإلى أعماق عالم من الخيال. وحين يؤتى بالبرهان على ذلك فمن الطبيعي أن يتوقّع الإنسان من المؤمنين بالتناقضات أن يعدّلوا معتقداتِهم، ومن ثم يُحدِثوا إصلاحا في إيمانهم. ولكن لسوء الحظ فإننا، في حواراتنا مع بعض رجال الدين المسيحي، نجدهم متشبثين بعناد شديد بعقيدتهم بأن يسوع إله وبشر في وقت واحد ولا تناقُضَ في ذلك على الإطلاق، كما لا يرون أيَّ تناقض في أن يكون شخص واحد، في الوقت ذاته، ثلاثةَ أشخاص دون أن يكون ثمة أقلّ اختلاف في شخصياتهم وأخلاقهم. إنهم يصرّون على أن الإيمان بإله واحـــد وكذلك بالألوهية ذات الرؤوس الثلاثة - (الله) و (الروح القدس) و (الابن) - لا تناقضَ فيه، بل هو مجرّد لغز غامض!

إنهم يغمضون أعينهم عن التناقضات في دعواهم بأن الله يظلّ كيانا واحدا، مع أن شخص الله (الأب) يختلف بكل وضوح عن شخص يسوع (الابن)، كما يختلف عن شخص (الروح القدس)! وعندما نشير إليهم بدهشة أننا نتحدّث عن ثلاثة أشخاص، وليس عن مظاهر أو أمزجة أو صفات مختلفة لشخص واحد، وأن الاعتقاد بأن الله (واحد في ثلاثة) و(ثلاثة في واحد)

ليس بالتأكيد لغزًا بل هو تناقض صارخ، فإنهم يُطرقون برؤوسهم شفقة علينا ويسألوننا بلطف أن ندخل إلى تناقضات متعلقة بمجال آخر من البحث. هم يطلبون منا أوّلا أن نؤمن بما يستحيل الإيمان به، ثم أن نتقدم في طريق هذا الإيمان حتى نؤمن بالمتناقضات، أو بالألغاز كما يفضّلون هم أن يسمّوها؛ وهكذا فإن غير المسيحي لا يستطيع أن يفهم تناقضاتِ العقائد المسيحية، ولكي يفهم ما لا يستطيعُ أن يؤمن به، يجب عليه أولا أن يؤمن من غير أن يفهم!

هذا هو عالم الخيال المسيحي الذي ينصحوننا، نحن غيرَ المسيحيين، أن ندخل فيه! ولكن هذا البساط السحري الخيالي الطائر يرفض أن يطير إذا وقف عليه من لا يؤمن بهذه المتناقضات!

# الفصل الرابع
# صَلب المسيح!

قبل أن نتوجه إلى الوصف الإنجيلي للوقائع المتعلّقة بالمسيح وصَلبه، ربما يكون مناسبًا أن نذكر هنا باختصار فهمَ المسلمين الأحمديين لما حصل أثناء حادث الصليب وبعده. وسوف نتطرّق إلى هذا الموضوع هنا بإيجاز، أمَّا التفاصيل فسوف نناقشها فيما بعد.

نعتقد أن حادث الصليب كان محاولةً لقتل المسيح مثل أيّ محاولة أخرى للقتل. ولقد كان الصَّلب مجرّد سلاح استُخدم لتنفيذ تلك المحاولة الإجرامية. إلا أن محاولة صلبه فشلت ولم يتمكنوا من قتله على الصليب.

عندما نقول ذلك، فإننا نفهم هذا الأمر ونعبّر عنه تمامًا كما نعبِّر عن أية محاولة قتل أخرى. فإذا جرت محاولةُ قتل امرئ وفشلت، فلا يمكن القول إن هذا الشخص قد قُتِل. فمثلاً لو تمت مثل هذه المحاولة بالسيف، ثم فشلت فلا يمكنَ لأحد القول بأن هذا الشخص قد قُتِل بالسيف. وهكذا نؤمن – نحن المسلمين الأحمديين – بأنها كانت مجرد محاولة لقتل المسيح، وكان الصَّلب هو الأداة لتنفيذ تلك الجريمة. وبعد ساعات قليلة

من المعاناة الشديدة على الصليب، وقبل أن يدركه الموتُ، أُنزِل من الصليب في حالة غيبوبة عميقة، ثم تمّ إنعاشه منها فيما بعد.

وكما أنه ليس ثمة دولة تستطيع أن تمنح الشخصَ المحكومَ عليه بالموت غطاء قانونيًا وحماية لحياته فيما لو أفلت من الإعدام بحيلة ما، كذلك لم يكن بالإمكان – حسب القانون الروماني – أن تُمنح الحصانة لعيسى عليه السلام بعد حادث الصليب. وكان ذلك سببًا كافيًا لفراره من البلاد الخاضعة للنفوذ الروماني إلى أرض يكون حرًّا فيها. ولكن كان عليه أيضًا أن يؤدّي واجبًا آخر، وأن يحقق إحدى النبوءات. كانت هناك خراف إسرائيل الضالّة الذين كانوا بعد تشردهم من الأرض بسبب الغزو البابلي والروماني قد انتشروا في أراضٍ عديدة في اتجاه الشرق، وكانوا ينتظرون ظهور المسيح. وكان هذا هو السبب الآخر القوي جدًّا لهجرة عيسى من أرض يهودا إلى تلك الأراضي الأجنبية الغريبة عنه، حيث استقر اليهود على مدى قرون عديدة. وفي هذا القدر من البيان كفاية في الوقت الحالي.

وأود أن أوضّح شيئًا واحدًا لأولئك الذين يطلبون منّا برهانًا على وفاة عيسى عليه السلام الطبيعية بعد أن تمّ إنقاذه من الصليب، بأنهم بدون وجه حق يحمِّلوننا عبء تقديم البرهان.

هناك ظواهر طبيعية معروفة لدى الإنسان ومفهومة عالميًا. نحن نعلم أن فترة حياة الإنسان على الأرض لا تتجاوز مئة وخمسين سنة أو ما يقاربها، ولكنها ليست بالتأكيد ألف سنة أو أكثر.

وهذه معلومة عامّة تتعلّق بفترة الحياة البشرية على الأرض. وإذا ظنَّ أحدٌ أن شيئًا مناقضًا لهذه القاعدة قد حدث فعلاً، فإن عبء البرهان يقع على كاهله هو، وليس على كاهل من يعتقد بالقاعدة أكثر من اعتقاده بالاستثناءات. هذا الفهم يجب أن يطبَّق على الظروف المحيطة بحياة المسيح وموته. إن الذين يظنّون أنه لم يمت عليهم أن يأتوا بالبرهان، ولكن الذين يعلنون أنه مات حتمًا إنما يستندون إلى قوانين الطبيعة وبالتالي يجب ألا يُطالَبوا بتقديم أيّ برهان بعد ذلك، وإلا لادّعى كل واحد أن بعضًا من أجداده القدامى لم يمت. فإذا قام من يزعم بمثل هذا الزعم ويتحدّى الجميع أن يُثبتوا عكسه، فماذا يكون ردّ فعلهم؟ كيف يمكن لسامع بسيط أن يقبل مثل هذا التحدّي؟ إنه لن يسعه إلا القول: إن قوانين الطبيعة هكذا تعمل على كلّ كائن بشري دون استثناء. فإذا كان هناك من يزعم بشيءٍ يناقض قوانين الطبيعة فعليه تقع مسئولية تقديم البرهان.

هذا هو الجواب الأول، ولكنني الآن سأقوم بمحاولة متواضعة أخرى لأوضّح الأمور أكثر ومن وجهة نظر مختلفة. فمهما كانت صلة عيسى المسيح بالله فإنه لم يكن خارج متناول الموت. فالمسيحيون أنفسهم يؤمنون أنه قد مات. ولو كانت طبيعته مناقضةً للموت فما كان ممكنًا أن يموت أصلاً. ومع ذلك فإننا نتّفق جميعًا على أنه قد مات مرّة واحدة على الأقل.

وأما الجزء المتبقي من البحث، فيدور حول معرفة زمن موته، هل مات على الصليب أم فيما بعد؟

## آية النبي يونان (يونس)

يمكننا أن نبرهن من الكتاب المقدس على أن الله لم يتخلَّ عن المسيحَ، وأنه قد أنقذه من الموت المشين على الصليب. ويمكن دراسة هذا البرهان على ضوء الوقائع التي سبقت حادثة الصلب، وكذلك وقائع الصلب ذاتها والتي تلتها، كما هي مروية في العهد الجديد.

قبل حادثة الصلب بفترة طويلة وعَدَ عيسى قومَه بأنهم لن يروا إلا آيةَ يونان (يونس النبي)، حيث نقرأ في إنجيل متى الإصحاح ١٢ العدد ٣٨-٤١ ما يلي:

"عندئذ أجابه بعض الكتبة والفريسيين، قائلين: «يا معلم، نرغب في أن نشاهد آية تجريها!» فأجابهم: «جيل شرير خائن يطلب آية؛ ولن يعطى آية إلا آية يونان النبي. فكما بقي يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، هكذا سيبقى ابن الإنسان في جوف الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال. سيقف أهل نينوى يوم الدينونة مع هذا الجيل ويدينونه؛ لأنهم تابوا لما أنذرهم يونان. وها هنا أعظم من يونان!"

إذن قبل أن نقرّر ماذا حدث للمسيح عيسى، يجب أن نفهم ماذا حدث للنبي يونان، لأن عيسى أعلن أن المعجزة ذاتها سوف تتكرّر بالنسبة له.

ماذا كانت آية النبي يونس عليه السلام؟ هل مات في بطن الحوت، ثم قام من الموت فيما بعد؟ قد أجمع العلماء المسيحيون واليهود والمسلمون جميعًا على أن النبي يونان لم يمت في بطن الحوت، بل ظلّ معلَّقًا بين الحياة والموت، ثم أنقذه الله من تلك الحال بإعجاز؛ في حينٍ لو كان هناك شخص آخر مكانه لمات. ومع ذلك فلا بدّ أن بعض قوانين الطبيعة الدقيقة قد تعاونت جميعًا بأمر من الله لإنقاذه من الموت. تذكَّرُوا أننا لا نناقش هنا فيما إذا كان ذلك الأمر ممكنًا أم لا، وإنما نشير هنا فقط إلى أن عيسى لما قال إن ما حدث ليونس النبي سوف يحدث له أيضًا؛ فلا بد أنه كان يعني، حصرًا، أنه سيحدث له مثل ما حدث للنبي يونس، وهذا ما فهمه كل الحضور. لا أحد في عالم اليهودية كلّه، سواء في أرض يهودا أو في أي مكان آخر حيث تشرَّد اليهود واستوطنوا، قد تلقّى من هذا الادعاء لعيسى عليه السلام أية رسالة تفيد فهما مخالفا لهذا الفهم. فجميعهم كانوا يؤمنون أن النبي يونس – بإعجاز أو بغيره – قد عاش لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال في بطن الحوت، ولم يمت في تلك الفترة ولا للحظة واحدة. وبطبيعة الحال لدينا تحفّظاتنا حول هذا المفهوم! فإن قصة النبي يونس عليه السلام، كما يرويها لنا القرآن، لا تذكر في أيّ موضع بأن

يونس النبي قد ظلّ يُعاني في بطن الحوت لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال.

وعلى كلّ حال، فإننا نعود هنا إلى القضية المطروحة، ونحاول أن نسلّط الضوء على أوجه التشابه الحقيقية بين المسيح عيسى والنبيّ يونس عليهما السلام التي تنبّأ بها عيسى المسيح. هذه المشابهات تتحدث بوضوح عن قضائه ثلاثة أيام وثلاث ليال في ظروف حرجة، كما تتحدث عن معجزة نجاته من موت محتمٍ، وليس عن عودته إلى الحياة بعد الموت. فقال عيسى إن هذًا تمامًا سوف يحدث معه أيضًا.

## وعدُ المسيح لبيت إسرائيل

الدليل الثاني والهام على عدم موت المسيح ونجاته من الصلب هو أنه أخبر قومه أن خراف بيت إسرائيل، الذين كانوا يقيمون داخل أرض يهودا وحولها، لم يكونوا وحدهم الخراف الإسرائيلية، وأنه لم يُرسَل من الله إليهم فقط، بل أيضًا إلى الخراف الأُخرى من القطيع ذاته. وكما أنه قد جاء لينقذهم (بيت إسرائيل) كذلك سوف يذهب وينقذ الآخرين أيضًا (الذين ليسوا داخل فلسطين)، حيث نقرأ في إنجيل يوحنا الإصحاح ١٠ العدد ١٦ ما يلي:

"ولي خراف أخرى لا تنتمي إلى هذه الحظيرة، لا بد أن أجمعها إلي أيضا، فتصغي لصوتي؛ فيكون هناك قطيع واحد وراع واحد."

وكما هو معروف، لم يغادر عيسى عليه السلام أرض فلسطين إلى أيّ مكان آخر في الفترة بين وعده هذا وبين حادث الصلب.

والسؤال هنا: إذا كان يسوع قد صعد إلى السماء إلى الأبد، فهل كانت خراف بيت إسرائيل الضّالة قد صعدت إلى السماء قبله؟!

يقول المسيحيون إن يسوع، بعد أن أُنزل من على الصليب ميّتًا، فإن روحه عادت إلى جسده بعد ثلاثة أيام تقريبًا، ثم شوهد بعد ذلك يصعد بين الغمام ويختفي في أعماق السماء المجهولة، ليصل في النهاية إلى عرش أبيه وليجلس على يمينه!

فإذا كان هذا الأمر صحيحًا فسنواجه معضلة كبيرة حقًّا، وسنضطر إلى اختيار أحد الموقفين: الأول، وهو ذلك الموقف الذي اتخذه عيسى بنفسه، والآخر هو ذلك الذي اتخذه أتباعُه.

وهذان الموقفان لا يمكن التوفيق بينهما، وقبول أحدهما سيؤدي بالتأكيد إلى نفي الآخر تمامًا.

فإذا كان عيسى صادقًا في وعده لقومه – كما نعتقد – كان عليه، قبل أن يُرفع إلى السماء، أن يتذكّر وعده لهم، وأن يطلب من الإله الأب أن يمدّ في بقائه على الأرض كي يتمكن من السفر إلى البلاد التي ذهب إليها قبله كثير من قبائل بيت إسرائيل

واستوطنوها. فما كان بوسع يسوع أن يصعد إلى السماء – والحال هذه – دون أن يُخلف وعده وعهده، ودون أن يلحق أضرارًا فادحة بشخصية الإله الكامل والإنسان الكامل المتمثلين معًا في شخصه.

وعلى العكس من ذلك إذا اعتبرنا رجال الدين المسيحي على صواب، وقَبِلْنا أن يسوع قد تناسى فعلاً وعدَه لبيت إسرائيل، وصعد إلى السماء رأسًا، فلا بدّ أن نستنتج، بقلب مُثقل بالهموم، أن رجال الدين المسيحي هم على الصواب حقًّا، ولكن عندئذ تتحوّل المسيحية.. للأسف.. إلى عقيدة زائفة، لأنه إذا ثبت كذب يسوع، فلا يمكن أن تكون المسيحية عقيدة صحيحة.

إننا نعتقد أن عيسى كان نبيًا صادقًا من الله، ولا يمكن أن يكون قد وعد كذبًا. إن ما كان يعنيه بالخراف الضالّة هو الأسباط العشرة من بني إسرائيل، الذين كانوا قد هاجروا قبل مجيء عيسى من أرض يهودا إلى بلادٍ شرقية نائية. إذن فكان وعده هذا يعني أنه لن يموت على الصليب، بل إن الله سيهبه حياة طويلة لمتابعة مهمته، وأنه لم يكن رسولاً إلى سِبطَين إسرائيليَّيْن فقط يقيمان حوله، بل كان أيضًا رسولاً إلى جميع أسباط بني إسرائيل.

يزوّدنا هذان البرهانان معًا بإشارة واضحة إلى ما كان سيحدث لعيسى بعد حادثة الصّلب.

## أحداث الصّلب

وهناك مسألة أخرى ذات صلة بهذا البحث وتتعلق بالتاريخ والموعد اللذين حددهما بيلاطس للصلب. وحتى قبل أن يحدد التاريخ والوقت، نقرأ عن أشياء أخرى ينبغي ألا يتفاجأ المرء بها، والتي كانت قد لعبت دورًا هامًّا في أخذه قراره النهائي.

نعلم أولاً، بناءً على ما ورد في العهد الجديد، أن زوجة بيلاطس كانت تكره بشدة إصدارَ زوجها حكمًا ضدّ عيسى، وذلك بسبب تأثير رؤيا رأتها في الليلة السابقة لمحاكمته. وكانت خائفة جدًّا بسبب هذه الرؤيا، بحيث أيقنتْ أن عيسى بريء تمامًا، حتى إنها رأت من الضروري أن تقاطع مجريات المحكمة، فنقلت فحوى هذا الحلم إلى زوجها قبل أن يُصدر حكمه (إنجيل متى ٢٧: ١٩). وربما هذا الاحتجاج العاجل من قِبل زوجة بيلاطس هو ما دفع بيلاطس إلى أن يُظهر للناس براءتَه من مسؤولية الحكم على عيسى وإدانته، حيث نقرأ في إنجيل متى ٢٧ : ٢٤ ما يلي:

"فلما رأى بيلاطس أنه لا فائدة، وأن فتنة تكاد تنشب بالأحرى، أخذ ماء وغسل يديه أمام الجمع، وقال: «أنا بريء من دم هذا البار. فانظروا أنتم في الأمر!»."

وهذا يعني أن بيلاطس أقر أن عيسى كان بريئًا بلا شك، وأنه أصدر الحُكم القاسي ضد عيسى مكرَهًا. ويبدو واضحًا جليًّا من العهد الجديد أن المجتمع اليهودي ذا النفوذ القوي قد تآمر على

عيسى، وأصرّ على معاقبته، ولذلك فإن أيّ قرار يتخذه بيلاطس معاكسًا لرغبة اليهود لا بد أن يتسبب في اضطراب خطير في المنطقة. وهذا ما جعل بيلاطس عاجزًا (عن إطلاق سراح عيسى)، وعبَّر عن ذلك بغسل يديه.

ولقد قام بيلاطس بمحاولة أخرى أيضًا لإنقاذ عيسى، حيث خيّر الجمع الثائر بين أن ينقذ حياة المسيح أو أن يُطلق لهم سراح مجرمٍ معروف اسمه باراباس. (متى ٢٧: ١٥-١٧)

وهذا يدلُّنا على ما كان يدور في خلد بيلاطس في ذلك الوقت. لقد كان ضدّ فكرة إدانة المسيح تمامًا، وبسبب هذا الوضع النفسي والفكري حدّد فترة بعد ظهر يوم الجمعة موعدًا للصلب. إن ما حدث فعلاً لهو إشارة واضحة إلى أن بيلاطس فعل ذلك متعمِّدًا، لأن السبت لم يكن بعيدًا عن ظُهرِ يومِ الجمعة، وبصفته قيِّمًا على القانون كان يعرف أكثر من أي شخص آخر أنه لا بدّ أن يُنـــزَل عيسى من على الصليب قبل أن يبدأ السبت بمغيب شمس يوم الجمعة؛ وهذا ما حدث بالضبط. وإن عملية الصلب التي كانت تستغرق عادة ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ على وجه التقريب كي يموت بعدها المصلوب معَذَّبًا على الصليب، لم تستغرق في حالة عيسى إلا ساعات قليلة فقط.

وإن المرء ليتعجب كيف يمكن لرجلٍ مثل عيسى.. الذي جعلت منه الحياة الخشنة شخصًا ذا بنية قوية.. أن يموت في هذا الوقت القصير!

ألا يمكن اعتبار هذا الحدث مفتاحًا لفهم لغز النبي يونس؟ بما أنه كان من الممارسة السائدة آنذاك أن المحكوم عليه يُعلَّق على الصليب لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، فإن هذا يقرع جرسًا في ذهن المرء حول التشابه بين المسيح عيسى والنبي يونس عليهما السلام كما سبق آنفًا. يقال إن يونس عليه السلام بقي في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. ومن الممكن أن يكون هو أيضًا قد نُبذَ – بتدبير من الله تعالى – بالعراء حيًّا بعد ثلاث ساعات بدلاً من ثلاثة أيام. إذن ما حدث للمسيح عيسى بن مريم يصبح مرآة تَعكس وتعيد ما كان قد حدث للنبي يونس.

ولنعد الآن إلى ما حدث أثناء حادثة الصلب وحتى في اللحظة الأخيرة فنرى أن يسوع المسيح حتى في اللحظات الأخيرة يقف متضرعًا أمام الله صائحًا بإصرار وإلحاح: {إلهي إلهي لماذا تركتني }؟!

يا له من تعبير مأساويّ يعبِّر عن الألم العميق من حالة الإحباط التي كان فيها. إن هذا التضرع يشير بأدب إلى سابق وعد وتأكيد له من الله تعالى، وإلا لا معنى لمثل هذا الصراخ. إن هذا لبرهان ساطع على أن المسيح ما كان يرغب بمحض إرادته في أن يتحمل وزر الآخرين أو كان يتطلع بشغف إلى ساعة الموت. فلماذا إذن صرخة الكرب العميقة هذه، إذا كان العقاب قد جاء بناءً على طلبه؟! لماذا يلومُ يسوع أباه، أو حتى يدعوه من أجل الخلاص؟!

إن أقوال المسيح هذه يجبُ أن تُقرأ على ضوء ما قد حدث من قبل. كان يدعو الله طيلة الوقت لينقذه من تلك الكأس الـــمُرَّة.

أما نحن المسلمين الأحمديين فنعتقد أنه من المستحيل ألا يستجيب الله دعوات شخص تقيٍّ وربانيٍ مثل عيسى، ولا بدّ أن يكون قد أُخبِر بأن دعواته قد استُجيبت. وأنا لا أعتقد أنه أسلم روحه على الصليب. وعندي، ليس هناك أيّ تناقض في موقف عيسى، بل أجد فيه انسجامًا تامًّا. والقول بموته كان انطباع أحد المشاهدين الذي لم يكن طبيبًا ولم يتسن له فحص المسيح طبيا. كان ثمة مُشاهد – يرقب بقلق واهتمام مخافة أن يدرك الموت سيده المحبوب – قد رأى انحناء رأس المسيح المتعب وذقنه المستقر على صدره، فصرخ قائلاً: آه "لقد أسلم الروح". ولكن كما أسلفنا لا نناقش هنا مصداقية الرواية الإنجيلية وحقيقتها، ولا نناقش أيّ تفسير لها، بل إننا في هذا البحث نقوم بدراسة نقدية نتفحّص من خلالها الحكمة والمنطق في العقيدة المسيحية وفلسفتها.

إن المسألة الثابتة بوجه تام – سواء كان عليه السلام قد أغمي عليه أم مات – هي أن صرخته المؤلمة ودهشته على ما كان على وشك الحدوث، لبرهان قوي على أنه كان يتوقّع عكس ذلك تمامًا.

فإذا كان المسيح قد طلب الموتَ بنفسه، فليس هناك مبرر إطلاقًا للدهشة التي أبداها. وإن تفسيرنا كمسلمين أحمديين هو أن عيسى كان مندهشًا، لأن الله كان قد وعده بالخلاص من الموت على الصليب أثناء توسّلاته ودعائه في الليلة السابقة. ولكن كان لله تعالى خطة أخرى، فلقد جعل عيسى يُغمى عليه فقط حتى ينخدع الحرّاس فيعتقدوا أنه قد مات، ويسلموا جسده ليوسف الذي من بَلْدَةِ الرّامّة حتى يسلّمه لأقربائه.

إن الدهشة التي نلاحظها في الكلمات الأخيرة التي نطق بها عيسى قد أظهرها بيلاطس أيضًا، الذي صاح حين أخبروه بموته: هل قد مات؟! حيث نقرأ في إنجيل مرقس الإصحاح ١٥ العدد ٤٤ ما يلي:

"فدهش بيلاطس من أنه قد مات، واستدعى قائد المئة واستفسره: هل مات منذ وقت طويل؟"

ولا بدّ أن بيلاطس كانت لديه خبرة طويلة تتعلّق بحالات الصلب خلال فترة عهده كحاكم لمنطقة "اليهودية" ، ولم يكن ليعبّر عن دهشته لخبر موت المسيح لو لا قناعته أن الموت لا يمكن أن يدرك شخصًا معلّقًا على الصليب خلال فترة قصيرة لساعات قليلة فقط. ومع ذلك فقد قبل طلب تسليم جسد عيسى في ظروف غامضة. ولذا فإن بيلاطس متّهم بالتآمر إلى الأبد، حيث أنه تحت تأثير زوجته خطّط لأن يتم صلب عيسى

في ساعة قريبة جدًّا من بداية سبت اليهود؛ وثانيًا أنه وافق على تسليم جسد عيسى رغم التقارير التي تُشكّك في موته!

إن قرار بيلاطس هذا قد أحدث قلقًا عظيمًا لدى اليهود، الذين كانوا قد رجوه حراسة قبر عيسى وعبَّروا عن شكوكهم بحقيقة موته، حيث نقرأ في إنجيل متى الإصحاح ٢٧ العدد ٦٢-٦٦ ما يلي:

"وفي اليوم التالي، أي بعد الإعداد للسبت، تقدم رؤساء الكهنة والفريسيون معا إلى بيلاطس، وقالوا: «يا سيد، تذكرنا أن ذلك المضلل قال وهو حي: إني بعد ثلاثة أيام أقوم. فأصدِرْ أمرا بحراسة القبر بإحكام إلى اليوم الثالث، لئلا يأتي تلاميذه ويسرقوه، ويقولوا للشعب: إنه قام من بين الأموات، فيكون التضليل الأخير أسوأ من الأول». فأجابهم بيلاطس: «عندكم حراس! فاذهبوا واحرسوه كما ترون». فذهبوا وأحكموا إغلاق القبر، وختموا الحجر، وأقاموا حراسا."

كذلك نجد في الإنجيل أن جسد المسيح، عندما أُنزل من على الصليب لم تُكسر ساقاه، في حين أن ساقَيْ كلّ من اللصَّين اللذين عُلِّقا معه قد كُسرتا لكي يموتا بشكل مؤكد. نقرأ في إنجيل يوحنا الإصحاح ١٩ العدد ٣١-٣٣ ما يلي:

"ولما كان الإعداد يتم في ذلك اليوم، طلب اليهود من بيلاطس أن تكسر سيقان المصلوبين، فتؤخذ جثثهم لئلا تبقى معلقة على الصليب يوم السبت، ولا سيما لأن ذلك السبت

كان يوما عظيما. فجاء الجنود وكسروا ساقي كلا الرجلين المصلوبين مع يسوع. أما يسوع، فلما وصلوا إليه وجدوه قد مات، فلم يكسروا ساقيه."

إن ترك عيسى دون كسر ساقيه، لا بدّ أن يكون قد ساعده على صحوته من حالة الغيبوبة. وليس من المستبعد أن يكون حرّاس عيسى قد أُمروا من قِبل بعض مبعوثي بيلاطس ألاَّ يكسروا ساقي المسيح، ربما كان ذلك كبادرة احترام له ولجماعته المسيحية البريئة.

وطبقًا للإنجيل أيضًا، عندما طُعن جنْب عيسى خرج منه دم وماء. نقرأ في إنجيل يوحنّا الإصحاح ١٩ العدد ٣٣-٣٤ ما يلي:

"أما يسوع، فلما وصلوا إليه وجدوه قد مات، فلم يكسروا ساقيه. وإنما طعنه أحد الجنود بحربة في جنبه، فخرج في الحال دم وماء."

فلو أنه كان قد مات وتوقف قلبه عن النبض، لكان من المستحيل أن يحدث هذا النـــزيف الفوري ويندفع الدم والماء من جرحه! وإنما كان من الممكن - على الأكثر - أن ينساب دمٌ متخثّر. ولكن هذه ليست الصورة التي يقدّمها لنا العهد الجديد، بل جاء فيه: إن الدم والماء اندفعا في الحال! وأما فيما يتعلّق بذكر الماء فيجب ألاَّ يستغرب المرء من ذلك في حالة عيسى، إذ

يمكن أن يكون قد أصيب بذات الجنب (Pleurisy)[1] في ساعات ابتلائه بالألم الشديد على الصليب. ربما نتجت إفرازات من غشاء الرئة بسبب الإجهاد الشديد الذي تعرض له المسيح أثناء الصلب. ويبدو أن هذه الحالة.. رغم كونها خطيرة ومؤلمة في الحالات العادية.. قد تحولت إلى صالح عيسى. لأنه عندما طُعن في جنبه فإن ذلك الكيس المائي يمكن أن يكون قد لعب دور الوسادة التي حفظت أعضاء الصدر من أن تخترقها الحربة بصورة مباشرة، فاندفع الماء ممزوجًا بالدم من الجرح دليلاً على أن ذلك القلب كان ينبض بقوة.

وثمة دليل آخر وهو أنه حسب الرواية الإنجيلية، بعد أن تمّ تسليم جسد عيسى ليوسف الراميّ، نُقل لتوِّه إلى مكان سرّي للدفن. وكان المكان عبارة عن قبر لا يسع لعيسى فقط، بل أيضا لاثنين آخرين معه لأجل الاعتناء به. نقرأ في إنجيل يوحنا الإصحاح ٢٠ العدد ١٠-١٢ ما يلي:

"ثم رجع التلميذان إلى بيتهما. أما مريم فظلت واقفة في الخارج تبكي عند القبر. وفيما هي تبكي، انحنت إلى القبر. فرأت ملاكين بثياب بيض، جالسين حيث كان جثمان يسوع موضوعا، واحدا عند الرأس والآخر عند القدمين."

[1] التهاب الغشاء المحيط بالرئة مما يسبب تورمه ويصاحب ذلك إفراز بعض السوائل حول الرئة. تتجمع هذه الإفرازات بتأثير الجاذبية على جانبي الرئة مكوِّنةً كيسًا مائيًّا على الجانبين. (المترجم)

ليس ذلك كل شيء، بل يخبرنا أيضًا العهد الجديد أن مرهمًا – كان قد أُعِدَّ مسبقًا – استُعمل لعلاج جروح عيسى. (راجع إنجيل يوحنا الإصحاح ١٩ العدد ٣٩-٤٠)

هذا المرهم الذي أعده تلاميذ عيسى، كان يحتوي على مواد ذات خصائص شافية للجروح ومسكنة للألم... إلخ. فعلامَ كل ذلك الاهتمام والقيام بذلك العمل الشاق لجمع ١٢ نوعًا من المواد النادرة لتحضير مرهمٍ أصلا؟!

إن هذه الوصفة المستخدمة لعلاج جروح عيسى مسجلة في كثير من الكتب الطبية القديمة الموثوق بها مثل الكتاب الشهير "القانون في الطب" لأبي علي بن سينا (انظر الملحق بأسماء مثل هذه الكتب). إذن فما كانت الحاجة إلى استعمال مرهم على جثة هامدة؟!

ولا يمكن أن يكون لهذا أي معنى إلا إذا كان لدى الحواريين سبب قوي للاعتقاد بأن عيسى سوف يُنـــزل من على الصليب حيًا وليس ميتًا. وهكذا فان القديس يوحنا هو التلميذ الوحيد الذي غامر بإعطاء شرح يبرِّر تحضير المرهم واستعماله لمعالجة جروح عيسى. وهذا أيضا يؤيد الحقيقة. فإن عملية استعمال المرهم على جثة هامدة، كانت تعتبر سلوكًا شاذًا وغير مفهوم لدى أولئك الذين كانوا يعتقدون أن عيسى كان ميتًا حين استعمال المرهم! ولهذا السبب كان على القديس يوحنا أن يقدم شرحًا لذلك. فقال إن ذلك قد تم لأنها كانت عادة يهودية

شائعة بأن يدهنوا أجساد أمواتهم بالمراهم العطرية والحنوط. وإنها لحقيقة هامة يجب الانتباه إليها أن جميع العلماء المعاصرين الذين بحثوا في هذا الأمر متفقون على أن القديس يوحنا لم يكن من أصل يهودي، وأنه برهن على ذلك بشرحه هذا. فمن المعلوم والمؤكد أن اليهود أو بني إسرائيل لم يستعملوا مطلقًا أيّة مراهم، أيّا كان نوعها على أجساد أمواتهم. وعليه فإن العلماء مقتنعون أن القديس يوحنا لا بد أن يكون من أصل غير يهودي وإلا لما كان يجهل التقاليد اليهودية إلى هذا الحد. إذن لا بد من أن يكون هناك سبب آخر لهذا الأمر.

لقد تمّ استعمال ذلك المرهم بغية إنقاذ عيسى من موت وشيك. وإن الشرح الوحيد يكمن في حقيقة إن حواريّي عيسى لم يكونوا يَتوقعون موته، كما لم يمت هو فعلاً على الصليب. وأن الجسد الذي أُنزل من الصليب لا بد أن يكون قد أظهر علامات الحياة قبل استعمال المرهم؛ وإلا فإن الأمر يبدو في حق من قام بهذا العمل غاية في الغباء، وهو عمل لا مبرر له ولا فائدة منه. إذ ليس من المحتمل أن يكون أولئك الذين قد أعدُّوا هذا المرهم مسبقًا، قد فعلوا ذلك دون دلالة قوية على أن عيسى لن يموت على الصليب بل سيُنـــزل عنه حيّا، ولكن مجروحًا بجراح خطرة تحتاج إلى دواء ناجع.

كما يجب ألا يغيبن عن البال أن مكان القبر، حيث وُضع عيسى، بقي سرًّا مكتومًا يعرفه القليلون من تلاميذه. والسبب الواضح في ذلك أنه لا زال حيًا و لم يكن قد تخطى الخطر بعد.

أما الذي حدث في القبر فإنه موضع نقاش من نواحٍ كثيرة، ولا يمكن أن تصمد هذه الأحداث أمام الفحص الانتقادي، كما أن هذه الأحداث لا يمكنها أن تثبت أن الشخص الذي خرج من القبر كان قد مات فعلاً ثم قام من الأموات.

الدليل الوحيد الذي لدينا هو اعتقاد المسيحيين أن عيسى الذي خرج من القبر، كان له الجسد نفسه الذي صُلب، وعليه العلامات والجروح نفسها!

فإذا كان قد شوهد خارجًا من القبر بالجسد ذاته، فالنتيجة المنطقية الوحيدة التي يمكن استخلاصها هي أنه لم يمت إطلاقًا.

وهناك دليل آخر يشير إلى استمرارية حياة عيسى، هو كما يلي:

لقد شوهد المسيح بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال، ليس من قِبل الناس عامة، بل من قِبل حوارييه فقط. وبمعنى آخر، من قِبل أناس كان يثق بهم فقط لأنه كان يتجنب ضوء النهار ويقابلهم تحت ستر ظلام الليل فحسب! وللمرء هنا أن يستنتج من الرواية الإنجيلية، أن عيسى كان مضطرًا للابتعاد من مصدر الخطر بسرعة وسرّية!

والسؤال هنا هو: إذا كان عيسى قد أُعطي حياة جديدة وأبدية بعد موته الأول، ولم يكن مقدّرًا له أن يعاني من موت ثان؛ فلماذا كان يتخفّى عن أعين أعدائه، سواء كانوا عملاء الحكومة أو عامة الناس؟!

كان ينبغي عليه أن يظهر على اليهود وممثلي الإمبراطورية الرومانية، ويقول لهم: ها أنا ذا أحظى بحياة أبدية؛ حاولوا قتلي ثانية إن أردتم، فإنكم لن تقدروا على ذلك. لكنه فضَّل أن يظل متخفّيًا، ليس لأن فكرة الظهور على الناس لم تُعرض عليه، بل على العكس، فقد كانت تلك الفكرة بالتحديد قد عُرضت عليه كي يُظهر نفسه للعالَم، ولكنه رفض وواصل الابتعاد عن منطقة "اليهودية" كي لا يتبعه أحد. فنقرأ في إنجيل يوحنا الإصحاح ١٤ العدد ٢٢ ما يلي:

"فسأله يهوذا، غير الإسخريوطي: «يا سيد، ماذا جرى حتى تعلن لنا ذاتك ولا تعلنها للعالم؟»"

كما نقرأ في إنجيل لوقا الفصل ٢٤ العدد ٢٨-٢٩ ما يلي:

"ثم اقتربوا من القرية التي كان التلميذان يقصدانها، وتظاهر هو بأنه ذاهب إلى مكان أبعد. فألـــحّا عليه قائلين: «انزل عندنا فقد مال النهار واقترب المساء». فدخل لينـــزل عندهما."

هذا ما يُظهر بكل قوة حالةَ إنسان فانٍ لم يكن جسده بمنأى عن الموت أو الجراح. كما يبين لنا أن عيسى لم يمت بمعنى أنه تخلص من العنصر البشري الذي فيه، بل ظل نفسه على حالته

الطبيعية تمامًا، أيَّة كانت. ولم يكن هناك موتٌ يفصل ما بين نفسه القديمة والحديثة. وهذا ما نسميه حسب الخبرة البشرية: بـــ "استمرارية الحياة".

إن روحًا أو شبحًا من عالم آخر لا يتصرّف بالتأكيد مثلما تصرّف عيسى أثناء لقاءاته السرية تحت ستار الليل مع أصدقائه وأصحابه المقرّبين!

وأما مسألة كون عيسى شبحًا أو خيالاً فقد أنكرها عيسى بنفسه. فعندما ظهر لبعض تلاميذه -بعد نجاته من الصلب-، لم يستطيعوا إخفاء خوفهم منه لأنهم ظنوا أنه لم يكن عيسى ذاته بل شبحه (روحه). وعندها فهم عيسى ما يعانونه من مخاوف وتردد وبدد مخاوفهم بإنكار كونه روحًا أو شبحًا وأكّد أنه هو عيسى ذاته الذي صُلب، حتى دعاهم لفحص جروحه التي ما زالت حديثة العهد. نقرأ في إنجيل يوحنا الإصحاح ٢٠ العدد ١٩-٢٧ ما يلي:

"ولما حل مساء ذلك اليوم، وهو اليوم الأول من الأسبوع، كان التلاميذ مجتمعين في بيت أغلقوا أبوابه خوفا من اليهود، وإذا يسوع يحضر وسطهم قائلا: «سلام لكم!» وإذ قال هذا، أراهم يديه وجنبه، ففرح التلاميذ إذ أبصروا الرب. فقال لهم يسوع: «سلام لكم. كما أن الآب أرسلني، أُرسِلكم أنا». قال هذا ونفخ فيهم وقال لهم: «اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياهم غفرتُ لهم، ومن أمسكتم خطاياهم، أمسكت!». ولكن توما،

أحد التلاميذ الاثني عشر، وهو المعروف بالتوأم، لم يكن مع التلاميذ، حين حضر يسوع. فقال له التلاميذ الآخرون: «إننا رأينا الرب!» فأجاب: «إن كنت لا أرى أثر المسامير في يديه، وأضع إصبعي في مكان المسامير، وأضع يدي في جنبه، فلا أومن!» وبعد ثمانية أيام، إذ كان تلاميذه مجتمعين ثانية داخل البيت وتوما معهم، حضر يسوع والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط وقال: «سلام لكم!» ثم قال لتوما: «هات إصبعك إلى هنا، وانظر يدي، وهات يدك وضعها في جنبي. ولا تكن غير مؤمن بل كن مؤمنا!»"

إن ظهور عيسى لتلاميذه لا يؤكد، بشكل من الأشكال قيامه من الموتى. كل ما يتأكد هو ببساطة نجاته من كروب الموت على الصليب.

وكي يزيل عيسى أيّ سوء فهم أو إشكال قد يكون عالقًا في أذهانهم، سألهم ماذا كانوا يأكلون؟ وحين أخبروه أنهم كانوا يأكلون سمكًا وخبزًا طلب شيئًا من ذلك الطعام، لأنه كان جائعًا، وأكل منه. فقد جاء في إنجيل لوقا الإصحاح ٢٤، العدد ٤١- ٤٣ ما يلي:

"وإذ ما زالوا غير مصدقين من الفرح ومتعجبين، قال لهم: «أعندكم هنا ما يؤكل؟» فناولوه قطعة سمك مشوي. فأخذها أمامهم وأكل".

إن هذا لبرهان داحض لعقيدة قيامه من الموت، أي إحياء طبيعة الإنسان فيه بعد ما مات مرة ثم أُعيد إلى الحياة. وإن المشاكل التي تنشأ عن مثل هذا الاعتقاد المتعلق بقيام عيسى من الموتى ذاتُ شقّين:

فإذا كان يسوع لا يزال من نوع "الإله البشر" أو "الناسوت"، كما يزعمون عنه قبل الصلب، فما كان بمقدوره أن يتخلص من الإنسان الذي بداخله. وهذا بدوره يؤدي إلى حالة غاية في التعقيد والإشكال. ماذا فعل الموت به أو بهما، أي: البشر الذي في يسوع والإله الذي فيه؟

هل الرُوح البشرية وكذلك الإلهية غادرتا معًا، ثم عادتا أيضًا معًا، إلى ذات الجسد الأرضي بعد أن دَخَلتا الجحيم معًا! أم كانت الروح الإلهية في عيسى هي التي عادت إلى الجسد البشري، بدون الروح البشرية؟ إن ما يحيّر الإنسان هو: أين اختفت تلك الروح؟

هل كانت رحلتها إلى الجحيم رحلة بلا عودة؟ بينما الروح الإلهية فيه بقيت هناك ثلاثة أيام وثلاث ليال فقط! وهل كان الله، أبًا ليسوع البشر؟ أم ليسوع الابن؟ هذه المسألة يجب أن تحل نهائيًا كي تتضح الصورة.

هل كان جسد يسوع، من ناحية جسدًا لإله، ومن ناحية أخرى جسدًا لبشر؟

إن مفهوم الإله كما يقدمه العهد القديم والعهد الجديد هو أن الله ليس مادّيا، ولا محدودًا، ولا دور للمادة في شخصه أو كيانه مطلقًا.

انطلاقًا من هذا الفهم، دعونا ننظر إلى مراحل التطور المختلفة لعيسى خلال رحلته، مُذ كان جنينًا في رَحم السيدة مريم.

إن المادة المستخدمة في خلق عيسى، جاءت جميعها من الأم البشرية، دون أن تكون ثمة ذرة منها من قبل الله. طبعًا كان الله قادرًا على أن يخلق عيسى بشكل إعجازي، ولكن – من وجهة نظري – يَظلّ المخلوق مخلوقًا (لا إلهًا) سواء كان خلقه إعجازيًا، أم عاديًا. ويمكننا أن نقبل فكرة أن شخصًا ما هو أبٌ لابنٍ ما، إذا كانت مادة الأب ومادة الأم كلتاهما قد شاركتا معًا وبشكل متساوٍ أو جزئيٍ في تكوين هذا الابن بحيث تكون – على الأقل – بعض مادة المولود قد اشتُقت من مادة هذا الأب.

يبدو جليًا للقارئ من هذا التحليل أنه لم يكن لله تعالى أيّ دور أبوي على الإطلاق في عملية الحمل لهذا الجنين البشري، وإن كامل جسمه المادي، بجميع أجهزته المتعلقة بالقلب، والتنفس، والأوردة، والخلايا، والأعصاب المركزية، كانت ناتجة عن الأم البشرية وحدها.

فأين إذن عنصر بُنوّة يسوع الذي لم يكن سوى وعاء لروح الله وليس أكثر من ذلك؟

إن هذا الفهم الجديد للعلاقة بين الله ويسوع، يمكن أن يوصف.. من حيث المنطق وبقناعة تامة.. بأي شيء آخر سوى علاقة الأب بالابن.

# الفصـــل الخامس

# إحياء أم قيامة!

إن سيناريو قيام يسوع من الموتى يطرح الكثير من المشاكل. وقد تمّت مناقشة بعضها في الفصل السابق، ونتحول الآن إلى عناصر وتعقيدات أخرى.

أمامنا الآن طبيعة ذهن يسوع قبل الصلب، وبعد إحيائه من الموتى. لقد عاد ذهنه إلى الحياة ثانية بعد أن تعطل لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال. والسؤال هنا: ما الذي يحدث للدماغ (المخ) فعلاً عند الموت؟

هناك إجماع على نقطة واحدة على الأقلّ بين خبراء الطب المسيحيين وغير المسيحيين أنه لو ظل الدّماغ ميتا لمدة تزيد على بضع دقائق لمات وانتهى الأمر إلى الأبد. وحالما يتوقف جريان الدم فإن المخ يبدأ بالتحلل. فإذا مات يسوع أثناء الصلب، فلا يعني ذلك إلا أن قلبه قد توقف عن النبض ولم يعد يزوِّد دماغه بالدم، وأن دماغه قد مات بعده فورًا. وهكذا فلا بد من أن نظام حياته كله قد توقف عن العمل، وإلا لما أعلِن أنه قد مات. وفي مثل هذه الحالة، فإننا نواجه مشكلة غاية في التعقيد حول فهم حياة يسوع المسيح وموته.

إن موت يسوع المسيح كما بيّنّا، يعني مغادرةً نهائية لنفسه السماوية، أو إن روحه، كما يمكننا أن ندعوها، قد تحررت من القفص المادي لجسده البشري. وإذا كان الأمر كذلك، فإن إحياءه لا بد وأن يعني عودةَ نفسه السماوية ذاتها إلى الجسم المادّي ذاته الذي كانت قد تركته وراءها قبل ثلاثة أيام. إن مثل هذه العودة للروح ستُعيد حركة ساعة الحياة المادية وتجعلها تدقّ مرة أخرى. ولكي يحدث مثل هذا الأمر لا بدّ أن تعود خلايا الدماغ المنحلة والميتة إلى الحياة فجأة، كما لا بدَّ أن تنعكس العمليات الكيميائية للانحلال السريع بأكملها؛ وهذا يتضمن مشكلة هائلة، وستظلّ تحديًا دائمًا للمسيحيين المتخصصين في الكيمياء الحيوية ليجدوا لها حلاًّ إن وصف انعكاس عمليات الانحلال الكيميائية بكاملها داخل الجهاز العصبي المركزي، لهو أبعد من إدراك خيال العلماء مهما أطلقوا له العنان! ولو أنَ ذلك حدث فعلاً لكان حقًا معجزة تتحدى العلم وتسخر من القوانين التي وضعها الله ﷻ بنفسه. ولكنها تكون معجزة غير قادرة على حل هذه المشكلة.

إن مثل هذا الإحياء لن يعني فقط إحياء خلايا الجهاز العصبي المركزي فحسب، بل في الواقع إحياء تركيبتها أيضًا! حتى لو تم بناء الخلايا نفسها من جديد وإعادتها إلى الحياة – تمامًا كما كانت من قبل – فإنها ستكون في الحقيقة مجموعة جديدة من الخلايا، خالية من أية ذاكرة سابقة. وسيكون من الضروري

إعادة تصنيعها كاملة، مع جميع المعطيات المتعلقة بحياة يسوع، التي كانت قد مُحيت من ذهنه بعد موت دماغه!

الحياة كما نعرفها تتألف من الوعي الممتلئ بالمعلومات المخزونة في بلايين الخلايا العصبية في الدماغ. تلك المعلومات تُقسم بعدها إلى أجزاء أكثر تعقيدًا وتشابكًا في صورة معلومات مبرمجة تُحصل من الحواس الخمس. فلو مُحيت تلك المعلومات لانعدمت الحياة أيضًا. ولذلك فإن إحياء دماغ يسوع سيعني بناء وتصنيعَ دماغٍ مبرمج من جديد وبتركيبة جديدة! وإن هذا التعقيد أيضًا له علاقة بكيمياء بقية جسد يسوع المسيح. فمن أجل إحياء الجسد لا بد من تفعيل مبنى كيميائي هائل بعد استعادة جميع المواد المفقودة في عملية الانحلال. وبحدوث مثل هذه المعجزة العظيمة يبرز السؤال:

من الذي أُعيد إلى الحياة وبأيّ جوهر؟ هل البشر الذي كان في يسوع هو الذي عاد إلى الحياة، أم الإله الذي كان فيه؟ لهذا السبب نركِّز على أهمية فهم ذات يسوع.

كلما كان هناك ما يدل على فشل أو تردد يسوع في إبداء قواه الخارقة كابن الله لجأ المسيحيون إلى الزعم أنه فشل أو تردد بصفته بشرًا وليس بصفته إلهًا. ولهذا فإن لنا كل الحق في أن نسأل وأن نُحدّد بوضوح: أيّ جزء منه، كان بشرًا، وأيّ جزء منه كان إلهًا؟

إن تردد الجزء الإنساني في يسوع يتطلّب عقلاً بشريًا ككيان منفصل عن عقل يسوع الإله. عندما تمّ إحياء الدماغ، فقد كان العنصر البشري في يسوع هو الذي تم إحياؤه، لأن الكيان الإلهي ليسوع ليس بحاجة إلى دماغ مادي ليدعمه. وذلك لأن الكيان البشري قد عمل كمجرد وعاء للكيان الإلهي خلال إقامته السابقة على الأرض، كما يحدث في حالة الوسيط الروحاني. ولذا، فإن إحياء يسوع لا يعني إلا إحياء صفته البشرية، والتي بدونها تستحيل عودة روحه إلى الجسد ذاته!

فإذا لم يكن هذا السيناريو مقبولاً، فإننا سوف نواجه مشكلة عويصة أخرى، وهي: أن نَعزوَ إلى يسوع خلال حياته على الأرض عقلين مستقلين: عقل بشري وعقل إلهي، إذ يشغل العقلان الحيّز نفسه، ولكن كلاهما مستقل في حد ذاته ومنفصل عن غيره. وإذا كان الأمر هكذا فيجب إعادة دراسة مسألة إحياء يسوع كي نتمكن من فهم طبيعتها الحقيقية بوضوح.

في هذا السيناريو ليس على المرء أن يفهم أهمية إعادة بناء الدماغ البشري من أجل إيجاد محلٍّ للعقل البشري. وما علينا إلاَّ أن نتخيل عيسى يحلّ من جديد في جمجمة مليئة بالبقايا المنحلّة من دماغِ مُضيفهِ السابق.

كلما تعمقنا في هذه المشكلة أطلّتْ مشاكل أخرى برؤوسها في كل مقام جديد!

إن عقل الإنسان يحتاج إلى دماغ كأداة لتفكيره. وأما ما يتعلق بوظائف الجسد المادي، فلو اعتقدنا أن العقل كيان منفصل قائم بذاته، فهذا يدل على أن العقل والروح شيء واحد. وبأي اسم أشرنا إليه، عقلاً كان أم روحًا، فإنه يمكن أن يُعدّ قادرًا على العيش منفصلاً، حتى عندما تنقطع صلته بالدماغ البشري. ولكن إذا كان على العقل والروح أن يسيطرا على الجسد البشري، أو أن يتأثرا بما يحدث في نطاقه المادي، عندئذ يجب أن تكون هناك علاقة قوية بين العقل والدماغ، أو الروح والدماغ؛ وإلاَّ فإنهما ببساطة لا يستطيعان أن يؤثّرا أو يحرّكا أو يضبطا العمليات المادية والذهنية والعاطفية في الإنسان. هذا أمر غير قابل للنقاش.

وهذا يقودنا إلى مشكلة حادة أخرى، وهي: هل الذي يُدعى ابن الله بحاجة إلى دماغ ليسيطر به على الجسد؟! وهل هو يعتمد على دماغ مادّي للقيام بعملياته الفكرية؟!

إذا كان يتجاوز جميع الحدود البشرية، وكان لديه جهاز عمليات تفكير مستقل وفريد لا مثيل له في الكون كلّه الذي خلقه هو، إذن فإن عودة روح الله إلى الجسد البشري، مع عقل الإنسان البشر، تُعيد بناء حالة شاذّة عجيبة لشخصية مزدوجة، وبطريقتين متضاربتين للتفكير؛ إذ من المستحيل أن يكون العقل البشري والروح البشرية متحدَين مع عقل الله ووجوده. سيظل ثمة اختلاف دائم بين عمليتي التفكير، مع تصادمات مريرة

للموجات الدماغية. ربما هذا نوع جديد من الشيزوفرانيا الروحية (الانفصام الروحي)!

بعد أن قلنا ذلك، دعونا نعيد بناء السيناريو بأكمله من زاوية أخرى.

بعد أن درست المسيحية ببعض العمق وصلتُ إلى نتيجة أن هناك خلطًا سائدًا في فهم بعض المصطلحات وتطبيقها دون استيعاب مدلولاتها، في الحالات التي لا تنطبق عليها بالفعل. فالمفاهيم الأساسية المسيحية يكتنفها ضباب كثيف من التشويش وسوء التطبيق ببعض المصطلحات مثل: "الإحياء" (Revival) و "القيامة" (Resurrection) اللذان يحملان معنيين مختلفَين تمامًا. إلى هنا استخدمنا تعبير الإحياء قصدًا عند مناقشتنا إمكانية عودة يسوع إلى الحياة ثانية. وكما قد رأينا بوضوح من النقاش السابق، فإن كلمة "الإحياء" تعني عودة جميع الوظائف الحيوية للجسد البشري بعد الموت – مثلما كانت قبل أن تموت. ولكن "القيامة" هي ظاهرة مختلفة تمامًا.

ولسوء الحظ، فإن الكنيسة المسيحية – في جميع أنحاء العالم – كانت هي المسؤولة عن خلق هذا الارتباك في أذهان المسيحيين، وذلك بإساءة استعمال هذه التعابير باستبدال بعضها ببعض، أو على الأقل، بنسبة معنى أحدها إلى الآخر.

يفهم معظم المسيحيين قيامة يسوع المسيح، وكأنها قفزة إلى الحياة مرة ثانية لجسده البشري الذي كان قد هجره في لحظة

موته المزعوم! طبعًا نحن لا نوافق على هذا! ونحتفظ بحقّنا بأن نصف تلك اللحظة بأنها كانت مجرّد غيبوبة عميقة وليست موتًا. وإذا تمَّ فهم قيامة يسوع المسيح وتطبيقه بصورة صحيحة، فإن المصطلح "قيامة المسيح" لا يمكن أن تعني عودة روحه إلى الجسد البشري ذاته، الذي كانت قد هجرته لحظة الموت.

إن التعبير "القيامة" إنما يعني خلق جسم سماوي جديد. إن مثل هذا الجسم يكون روحيًا في طبيعته، ويعمل كبوتقة للروح النقية فيه. وهذه الروح تُخلق للاستمرار الأبدي للحياة بعد الموت. ويسميه البعض جسدًا فلكيًا أو جسدًا سماويًا، والبعض يدعونه (Athma) أي روحًا. وسَمِّه بما شئت فإن المعنى الأساس يبقى هو هو.

"القيامة" تنطبق على خَلق جسدٍ جديد للروح الأثيرية في طبيعتها، وليست، ونقول تكرارًا، وليست: عودة الروح إلى الجسد البشري المنحلّ ذاته، الذي تركتْه قبل ذلك.

لقد تحدث القديس بولُس مطولاً، مستعملاً هذه المصطلحات ذاتها عن قيامة يسوع المسيح. وكان يؤمن، ليس بقيامة يسوع فقط بل بقيامة جميع البشر الذين يموتون ويُعَدّون أهلاً، عند الله، لأن يُمنحوا وجودًا جديدًا وشكلاً جديدًا من الحياة. إن شخصية الروح تبقى كما هي، أما مقامها فيتغيّر. وعند القديس بولس، فإن هذه ظاهرة عامة يجب قبولها، وإلاَّ فلا يبقى ثمة معنى للمسيحية أو الدِّين!

إن رسائل القديس بولس إلى أهل كورنثوس يجب أن تُدرس بعمق، لأنها تشكّل قاعدة مركزية لهذه المسألة. وإن هذه الرسائل لا تترك مجالاً للشك، عندي على الأقل، أنه كلما تحدث بولس أن عيسى قد شوهد حيًّا بعد حادثة الصليب، فقد تحدث بوضوح ودون غموض عن قيامته وقيامته فقط؛ ولم يخطر في ذهنه أبدًا أن روح يسوع قد عادت إلى جسده البشري الفاني، وأنه كان قد أحيي من الموت بصورة مادية. وإذا كان فهمي للقديس بولس غير مقبول لدى بعض رجال الدين المسيحي، فعليهم أن يعترفوا بأن القديس بولس قد ناقضَ نفسه بشكل واضح لأنه في بعض رواياته على الأقل عن حياة يسوع الجديدة، لم يترك مجالاً للشكّ في أنه قد فهم حياة يسوع الجديدة على أنها القيامة، وليست عودة الحياة إلى الجسد البشري الذي يقال عنه بأن روحه قد حُبستْ فيه.

فيما يلي بعض النصوص من العهد الجديد التي تتحدث عن ذلك بوضوح. يقول بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ٦: ١٤:

"والله قد أقام الرب من الموت، وسيقيمنا نحن أيضا بقدرته!"

كما يقول بولس، في تعاليمه في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس الإصحاح ١٥، العدد ٤٢-٤٤ ما يلي:

"وهكذا الحال في قيامة الأموات: يُزرع الجسد منحلا، ويقام غير منحل، يزرع مهانا، ويقام مجيدا، يزرع ضعيفا، ويقام قويا،

يزرع جسما ماديا، ويقام جسما روحيا. فبما أن هناك جسما ماديا، فهناك أيضا جسم روحي."

وكذلك يقول بولس في الرسالة نفسها، الإصحاح ١٥، العدد ٥٢-٥٤:

"فإنه سوف ينفخ في البوق، فيقوم الأموات بلا انحلال. وأما نحن، فسنتغير. فلا بد لهذا الجسم القابل للانحلال أن يلبس عدم انحلال، ولهذا الفاني أن يلبس خلودا. وبعد أن يلبس هذا المنحل عدم انحلال، وهذا الفاني خلودا، تتم الكلمة التي قد كتبت: «ابتُلع الموت في النصر!»

ويقول بولس أيضا في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس، الإصحاح ٥، العدد ٨ ما يلي:

"فنحن واثقون إذن، وراضون بالأحرى أن نكون مغتربين عن الجسد ومقيمين عند الرب."

إن المشكلة التي بقيت تنتظر حلاًّ، تنجم عن إشارة القديس بولس إلى رواية المسيحيين الأوائل: كيف شوهد يسوع حيًا بجسده إثر الصلب. فلو أن القديس بولس قد فهم أن يسوع كان قد بُعث فقد يكون مُصيبًا طبعًا، وإن "رؤياه" الشخصية ليسوع والاتصال به، يمكن أن تُشرحا على أساس مصطلح "القيامة"، مثل زيارة روحِ شخص ميت من العالم الآخر له شكل يشبه كثيرًا شكله ومظهره قبل الموت. ولكن يبدو أن ارتباكًا ما قد حصل جراء الخلط بين نوعين من الأدلة.

أولاً علينا أن ننظر في الشهادة المبكّرة التي أدلى بها حواريو المسيح أنفسهم الذين أحبوه واحترموه، وإن لم يكونوا قد انضموا إلى المسيحية بعد رسميًا. ولا بد أن يكون القديس بولس قد أساء فهم ذلك الدليل لأنه يتحدث بوضوح عن عيسى وشكله البشري وجسد مادي بحيث لا يمكن تفسيره على أنه قيامة. ولإثبات ذلك ليس على المرء إلا أن يرجع إلى حادثة حين فاجأ عيسى بعضَ حوارييه، حيث نقرأ في إنجيل لوقا الإصحاح ٢٤ العدد ٣٧-٤٣ ما يلي:

"ولكنهم، لذعرهم وخوفهم، توهموا أنهم يرون شبحا. فقال لهم: «ما بالكم مضطربين؟ ولماذا تنبعث الشكوك في قلوبكم؟ انظروا يدي وقدمي، فأنا هو بنفسي. المسوني وتحققوا، فإن الشبح ليس له لحم وعظام كما ترون لي». وإذ قال ذلك، أراهم يديه وقدميه. وإذ ما زالوا غير مصدقين من الفرح ومتعجبين، قال لهم: «أعندكم هنا ما يؤكل؟» فناولوه قطعة سمك مشوي. فأخذها أمامهم وأكل."

إن هذه الرواية تنفي بشكل قاطع فكرة القيامة؛ وتتحدث عن عيسى وهو يحاول أن يوضح: أنه هو الشخص البشري نفسه وبالجسد المادي نفسه؛ وليس روحًا أو شبحًا، كما أنه يعتمد على الطعام والشراب لبقائه حيًا. وهذا يُظهر أيضًا أن المسيحيين الأوائل كانوا يتحدثون عن شيئين مختلفين. فإنهم كلما تحدثوا عن عودة عيسى من الموت إلى الحياة وواجَههم المشككون حول

سخف هذه الفكرة، لَجئُوا إلى فكرة القيامة التي كان يمكن شرحها بشكل فلسفي ومنطقي. تقدِّم رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس بشكل خاص، فرصةً ممتازة لدراسة مأزق يمثل للعيان حين يضع المرء قدميه في قاربين مختلفين.

وأخيرًا، بالعودة إلى دليل مواجهات المسيحيين الأوائل مع عيسى المسيح لا يبقى أمامنا خيار إلا أن نعتقد بأن عيسى الذي ظهر إثر الصلب لكثير من حوارييه وأصدقائه المقرّبين الذين تحدث إليهم وصاحَبهم، ثم انسحب من المكان الذي شهد عملية الصلب رويدا رويدا وفي معظم الأحيان تحت ستار الليل، لم يكن بالتأكيد شخصًا قام من الموتى (بمعنى القيامة)؛ بل كان شخصًا إما أُنعش جسديًا من الموتى؛ أو أنه لم يكن قد مات أصلاً وإنما أُنقذ بشكل إعجازي من حالة قريبة من الموت. لقد كان قريبًا جدًا من الموت بصورة يمكن مقارنتها بحالة النبي يونس وهو في بطن الحوت. وليس ثمة شك عندنا في أن الرأي الأخير هو وحده الرأي المقبول.

ولكي نسهل على المسيحيين وجهة نظرنا، سأعرض حالة افتراضية مشابهة.

والقصة ذاتها تتكرّر في حياتنا اليومية على صعيد الواقع.

لقد تمت محاولة إعدام شخص بالصلب، وساد الظن أنه مات نتيجة لذلك. ولكن بعض أصدقائه المقربين شاهدوه يمشي فيما بعد. وشاهدوا علامات الصلب بصورة واضحة على جسده،

ثم يُلقى عليه القبض من جديد باسم القانون ويُقدّم إلى المحكمة مع طلب من المدعي العام أنه قد أفلت من الموت في المحاولة الأولى لإعدامه، ولأجل تنفيذ الحكم عليه يجب أن يُصلب ثانية. وفيما بعد يُدافع ذلك الرجل عن نفسه مؤكّدًا للمحكمة أنه كان قد مات في المرة الأولى وهكذا تحققت غاية القانون، وبما أنه قام الآن من الموتى بقضاء خاص من الله، فإن الحُكم السابق بإدانته يجب ألا يُنفَّذ من جديد، لأنه يتمتع الآن بحياة جديدة تمامًا وأنه لم يرتكب في هذه الحياة أية مخالفة للقانون!

إذا قبلت المحكمة هذا الالتماس، فمن الواضح أنه لن يُعاقب ثانية، على جريمة كان قد عوقب عليها سابقًا.

لو حدث مثل هذا الحادث في محكمة مّا، في بلد مسيحي، ولدى قاض مسيحي، ومحلّفين مسيحيين، فما الحكم الذي يمكن أو يجب أن يُصدره المحلفون حسب تصور القارئ؟

وإذا رُفض التماس المتهم وحُكم عليه بالصلب ثانية، فعلى أيّ أساس يمكن تبرير هذا الحكم؟

من الواضح أن أيّ قاض سليم العقل – سواء أكان مسيحيًا أو غير مسيحي – والمحلّفين سليمي العقول لن يعبئوا بالتماس المتهم بأنه قد عاد إلى الحياة ثانية بعد الموت. إن مثل هذا الحكم لا يقوم على أساس الانحياز الديني، أو العرقي أو الجنسي المحدود. بل هو عالمي بطبيعته، ولا يمكن لإنسان يتمتع بكامل قواه العقلية، أن يفكّر في حُكمٍ غير هذا. وبالتالي يرفض الفهم

البشري بالإجماع دعوى هذا المتهم بأنه قد مات وعاد إلى الحياة ثانية؛ ولن يُقبل منه سوى أنه كان قد نجا من الموت بشكل من الأشكال!

وهذا ما حدث بالضبط في حالة المسيح عيسى. فهي لم تكن قضية العودة إلى الحياة بعد الموت، كما لم تكن بعثًا في قيامة، بل كانت مسألة نجاة من الموت حسب المنطق والعقل السليم.

إن عودة جسد يسوع إلى الحياة ركن أساسي في المسيحية، بحيث يضطر المرء إلى التحرّي عن الأسباب الحقيقية وراء ذلك. والرواية كلها لا تقوم على منطق سليم على ما يبدو! إذ لماذا يختار ابن الله المزعوم العودة إلى قفصه البشري ثانية بعد أن تخلَّص منه مرة؟! وكيف يمكن أن يؤخذ ذلك كبرهان يقيني على أنه قد مات فعلاً، ثم عاد إلى الحياة؟!

لقد سبق أن بحثت هذه الناحية بقدر من الإسهاب، ولست أحاول التأكيد على النقطة ذاتها، ولكنني أرجو أن ألفت انتباه القارئ إلى سؤال حيوي آخر له صلة بالموضوع.

لماذا تأصَّلت هذه الفكرة المنافية للعقل في علم اللاهوت المسيحي ونمت تدريجا خلال قرون قليلة بعد عيسى ليصبح أحد أركان العقيدة المسيحية، الذي بدونه ينهار صرح اللاهوت المسيحي بأكمله؟!

سنسعى لنصل إلى عقول المسيحيين الأوائل وأفهامهم الذين واجهوا مُعضلةً يكاد لا يوجد لها حل. ثم نبدأ بإعادة بناء الظروف التي نُسب فيها إلى المسيحية شكل مختلف عن حقيقتها.

هذه الطريقة قد تكون أسهل علينا كي نفهم بعمقٍ أكثر ما بَنَتْه المسيحيةُ وما هدمتْه. إن الحقيقة التي يجب التأمل فيها بدقة هي ببساطة كما يلي:

إذا كان عيسى عليه السلام قد مات فعلاً على الصليب، فهو إذن في نظر الشعب اليهودي سيظهر وبوضوح أنه كذاب (والعياذ بالله).

## لغة لاذعة ضد المقدسين

وكما أشرنا آنفًا فقد تنبأت الكتب المقدسة بأن مدّعي النبوة الكاذب والمفتري على الله كلامًا لم يقله سبحانه وتعالى سوف يُعلَّق على الخشبة. ولذلك فإن موت يسوع على الصليب سيكون بمثابة الموت للمسيحية. ولهذا السبب نجد الكتب الدينية اليهودية الأصلية مليئة بتبجح اليهود بموت المسيح على الصليب. واعتبره أعداؤه المعاصرون من اليهود نبيًّا كاذبًا دون ريب بناء على ذلك الحكم التوراتي. ولم يبدوا نحوه أيّ احترام بل استعملوا في حقه لغة قذرة مهينة يأنف منها ويستنكرها كل من يحب المسيح كما نحبه نحن لكونه نبيًا صادقًا ومُكرَّمًا ومحبوبًا عند الله تعالى.

هنا يمكن للمرء أن يتخيل جيدًا المعاناة العميقة والكرب الشديد الذي واجهه المسيحيون الأوائل الذين عرفوا المسيح رجلاً ربانيًا ورسولاً صادقًا حائزًا على مرتبة "المسيح". كيف يمكن لهؤلاء المسيحيين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد هذه الهجمة التي كُتبت بلغة بذيئة، حين نقرأها في هذا العصر تثير في الأذهان صورة بشعة مماثلة لكتاب سلمان رشدي السيئ الصيت: "آيات شيطانية".

يبدو أن الغياب الكلي لاحترام القيم والأدب من قِبل الفريقين: (سلمان رشدي، واليهود) قد نشأ من داخل الانحطاط البشري. والمقتطفات التالية تعطي القارئ فكرة عما يحدث لجميع القيَم الإنسانية المهذبة، حين يختار الخصوم المسعورون أن يجعلوا المقدسين هدفًا لِهَذياناتهم المشوِّهة المفسِدة الوقحة.

يذكر "التلمود" (الكتاب الديني الذي يشمل جميع معارف الشعب اليهودي ومعتقداتهم) أن عيسى لم يكن ابن الحرام فحسب، بل كان أخرق وفظًّا أيضًا لكونه قد وُلد من زواج شيطاني لمريم أثناء الحيض. (والعياذ بالله من هذا البهتان المبين).

ويفصِّل التلمود هذا الافتراء بأن عيسى كانت له روح "عيسو": أي أنه كان أحمق مشعوذًا ومضلاً، وقد صُلب ودُفن في الجحيم، ثم نصبه أتباعه صنمًا يُعبد. المقاطع التالية أُخذت من كتاب "التلمود بلا قناع" للقسيس آي بي برانيتس *(The Talmud Unmasked by Reverend. I.B. Pranaitis)*.

لقد رُوي في "تراكت كالاه" *Tract Kallah, 1b (18b)* ما يلي:

"ذات مرة، حين كان الشيوخ جالسين عند البوابة مرّ بهم شابان، أحدهما كان مغطى الرأس والآخر مكشوف الرأس. قال الحاخام أليعازر: إن الشاب المكشوف الرأس كان ولدًا غير شرعي، *mamzer*. وقال الحاخام يهوشوع: إن ذلك الشاب غير الشرعي قد حُمل به أثناء فترة الحيض *ben niddah*.

أمّا الحاخام عقيباه فقال: ينطبق عليه كلا الحالين. عندها سأل الآخرون الحاخام عقيباه: لماذا تجرّأ على مخالفة زملائه؟ فأجاب: بإمكانه أن يبرهن ما قال. وذهب إلى أم الولد التي كانت جالسة في ساحة السوق تبيع الخضار وقال لها: "يا ابنتي إذا أجبت بصدق على ما سأسألك، فإنني أعدك بأنك ستَنجين في الحياة الآخرة". فطلبتْ منه أن يحلف على أنه سيَفي بوعده؛ وفَعَلَ الحاخام عقيباه ذلك ولكن بشفتيه فقط، إذ أنه بقلبه أبطل ذلك الحلف. ثم قال: "أخبريني أيّ نوع من الأولاد ابنك هذا؟" فأجابت: "في اليوم الذي تزوجتُ فيه كنت حائضًا، وبسبب ذلك تركني زوجي، ولكن روحًا شريرة جاء ونام معي، ومن هذا الجماع وُلد هذا الولد لي."

وهكذا فقد ثبت أن هذا الشاب لم يكن ابنًا غير شرعي فحسب، بل كانت أُمّه قد حملت به أثناء فترة حيضها. وعندما سمع سائلوه هذا أعلنوا قائلين: "عظيم حقًا الحاخام عقيباه إذ

صحح خطأ شيوخه." وصاح الشيوخ قائلين: "تبارك الرب إله إسرائيل الذي كشف سره للحاخام عقيباه بن يوسف."

وأما الحقيقة أن اليهود يعتبرون أن هذه القصة تشير إلى المسيح عيسى عليه السلام وأمه السيدة مريم، فهي موضّحة تمامًا في كتابهم *Toldath Jeschu* (أي ولادة عيسى) حيث ذُكرت ولادة "مخلّصنا" بالكلمات نفسها تقريبًا.[1]

إن كل ما في الإنسان من أدب ولياقة، ليثور على هذا القَذَر المتعفّن الذي تم تكديسه حول سمعة وشرف رجل كريم مثل عيسى عليه السلام في كتابات أعدائه الألداء. من المؤكد أن سيدة طاهرة اسمها مريم قد حملت عيسى عليه السلام ولم يلعب أي شيء آخر دورًا في ذلك الحمل سوى قدرات الله ربنا الخالقة وغير المحدودة. إن فكرة الحمل من خلال جماعٍ مع الشيطان أثناء الحيض هي أكثر انطباقًا على العقلية التي حملت هذه الفكرة القبيحة والمنكرة. واحسرتاه! لم تسلم زوجات الرجال الربانيين ولا أمهاتهم من ألسِنة وأقلام الفاسدين الضالين الذين ينفثون سمًّا وقبحًا. ولا يختلف الأمر فيما إذا كان مثل هؤلاء المجانين قد عاشوا قبل ألفي عام، أو وُجدوا في العالم المعاصر. ولكم هو أمر مدهش حقًا أن أكثر المجتمعات ثقافة في هذه الأيام تغضّ الطرف

[1] The Talmud Unmasked, by Rev. I.B. Pranaitis, Chap.1, p.30.

عن هذه الوحشية بل نراها تقبل مثل هذه الإهانات الفاضحة باسم حرية الكلام والقلم!

إن اللغة التي استخدمها سلمان رشدي مثلاً ضدّ الزوجات الطاهرات لنبيّ الإسلام محمد ﷺ، لا تختلف عن اللغة التي استُخدِمت ضد الأم الطاهرة للمسيح عيسى عليه السلام. لقد جاء في السنهدرين ٦٧: أ، ما يلي:

"هذا ما فعلوا مع ابن ستادا (*Stada*) في اللُّد (*Lud*)، وعلّقوه في مساء عيد الفصح. لأن ابن ستادا كان ابن بانديرا (*Pandira*) فإن الحاخام تشاسدا يخبرنا أن بانديرا كان زوج ستادا، أمه، وأنه عاش في زمن بافوس بن يهودا".

ويعلّق القسيس آي بي برانيتس، مؤلف كتاب "التلمود بلا قناع" على ما جاء أعلاه بما يلي:

"معنى ذلك أن مريم هذه كانت تُدعى ستادا أي العاهرة، لأنها، بحسب ما تم تعليمه في بومباديتا *Pumbadita*، هجرتْ زوجها وارتكبت الزنى. وهذا مسجّل أيضًا في التلمود القدسي والميمونيين *Jerusalem Talmud and Maimonides*".

"وسواء أكان الذين يؤمنون بمثل هذه الأكاذيب الشيطانية يستحقون الكراهية أم الشفقة أكثر، فإني لا أستطيع أن أقول شيئا."

إن هذه حقًا صرخة كرب وألم من قلب ضحية عاجزة، يحزنها التحقير المتعصب الموجّه إلى سيدها المحبوب. لا بدّ أن

المسيحيين الأوائل قد عانوا ألمًا أشد وأعظم، وقد عانوا من الجحيم جراء استهزاء يهود ذلك الزمان وتحقيرهم. كان عليهم أن يُعانوا القدح والطعن الموجَّه ليس ضد من كانت ذكراه مدفونة في الماضي البعيد، بل من كانت ذكراه لا تزال حية منتعشة، ومن أحبه حبًّا جمًّا ممن شاهدوه (عيسى) وقاسموه أجمل لحظات حياتهم. ولا بدّ أنهم قد عُذِّبوا بعذاب ضِعف إذ إنهم لم يتأذّوا من السخرية البشعة فحسب، بل لاقوا مزيدًا من الإهانات أيضًا التي أضيفت إلى جرحهم المؤلم بسبب معاناة المسيح عيسى أثناء محاكمته ومحاولة صلبه.

وإني لأتمنى أن يقوم الضمير المسيحي في بلاد الغرب الحرة ببعض الجهد على الأقل لأنْ يفهم عذابَ وألَمَ ألف مليون مسلم الذين بالتأكيد لا يُعذَّبون أقل من ذلك حين تستخدم لغة مشابهة، غير إنسانية، في التهجّم على قدسية سيّدهم ومحبوبهم محمد ﷺ وصحابته الكرام.

لقد عانى المسيحيون الأوائل من كل هذا رغم معرفتهم الشخصية وما لديهم من برهان لا يُدحض على أن عيسى كان حيًا ولم يمت على الصليب كما يتفاخر اليهود ويزعمون. لقد عالجوا جروحه هم بأنفسهم، وشاهدوه يصحو ويُشفى من إغمائه العميق بشكل إعجازي بعد تسليم جسده الشريف إليهم، ثم شاهدوه بأمّ أعينهم، ليس على شكل الروح أو الشبح بل بالجسد البشري الضعيف الذي كان قد عانى كثيرًا من أجل

الصدق، ومع ذلك فقد نجا من الموت بشكل إعجازي. لقد تحدثوا معه وأكلوا معه وشاهدوه يتحرك خطوة خطوة، وليلة بعد ليلة في سرّية بالغة بعيدًا عن موقع الصلب.

## الصّعـــــود

إن القديسين متّى ويوحنا لم يتطرقا في إنجيليهما إلى موضوع صعود المسيح إلى السماء. وإن عدم ذكْر مثل هذا الحدث يترك المرء متعجبًا عن سبب ذلك. إن الإنجيلَين اللذَينِ يذكران الصعود هما إنجيل مرقس ١٦:١٩[٢] وإنجيل لوقا ٢٤:٥١ [٣]

ومع ذلك، فإن الأبحاث الأكاديمية والعلمية الأخيرة قد برهنت على أن الروايات الواردة في هذين الإنجيلين هي تحريفات أضيفت فيما بعد و لم تكن موجودة في النصوص الأصلية.

إن إنجيل Codex Sinaiticus الذي يعود إلى القرن الرابع ويظل أقدم وأقرب مرجع بالنسبة للعهد القديم والجديد.[٤] وهذا الإنجيل شاهد على حقيقة أن الجُمل المذكورة في إنجيل مرقس ولوقا، لم تكن موجودة في النسخ الأصلية الموثّقة، ولكنها بالتأكيد قد أُضيفت من قِبل كاتبٍ ما بمبادرةٍ منه في زمن متأخر كثيرًا. بحسب إنجيل Codex Sinaiticus ينتهي إنجيل مرقس في الفصل

[٢] "ثم إن الرب، بعدما كلمهم، رفع إلى السماء، وجلس عن يمين الله."

[٣] "وبينما كان يباركهم، انفصل عنهم وأصعد إلى السماء."

[٤] Jesus the Evidence by Ian Wison, pg. 18 (1984)

١٦ العدد ٨. وهذه الحقيقة معترف بها الآن في بعض طبعات الإنجيل الحديثة أيضًا.[5]

وكذلك بحسب Codex Sinaiticus فإن الكلمات: "رُفع إلى السماء" لا توجد في إنجيل لوقا ١٥:٢٤.

وأيضًا طبقًا للناقد النصّي (سي إس سي ويليامز) C.S.C.Williams، إذا كانت هذه المحذوفات في Codex Sinaiticus مبرّرة، فليس هناك إشارة إطلاقًا إلى الصعود إلى السماء في النص الأصلي للأناجيل.[6]

وحتى شهود يهوَه، وهم من أعنف الخصوم المدافعين عن بنوّة يسوع وصعوده إلى الله (الأب)، قد اضطروا إلى الاعتراف في النهاية بأن الكلمات المتعلقة برفع عيسى في إنجيل مرقس ولوقا إنما هي إضافات لا وجود لها في النصوص الأصلية.[7]

## ماذا حدث لجسد عيسى؟

إن الفحص النقدي العميق من وجهة نظر الفطرة السليمة والمنطق السليم يكشف عن المزيد من السخافات الموجودة في الروايات المتعلقة بالصلب وبالصعود يرويها المسيحيون المعاصرون. وفيما يتعلق بعودة يسوع إلى جسده البشري، فقد

---

[5] The Holy Bible by International Bible Society New International Version (1984), Pg. 1024.

[6] The Secrets of Mount Sinai, the story of finding the world's oldest Bible Codex Sinaiticus; by James Bently, p131.

[7] New World Translation.

قيل ما فيه الكفاية. وما نريده هو فقط أن نضيف إلى الموضوع: ماذا كان يمكن أن يحدث لذلك الجسد حين صعد يسوع إلى السماء في النهاية، وذلك إذا كان قد صعد فعلاً!

عندما يُواجهون السؤال: ماذا حدث لجسد يسوع؟ يقول بعض المسيحيين: بينما كان صاعدًا إلى أبيه في السماء تحلَّل جسده المادي واختفى في وَهَجٍ! وهذا يثير سؤالاً أساسيًا، وهو: إذا كانت مغادرة يسوع لجسده البشري سيُحدث مثل هذا الموقف المتفجّر، فلماذا لم يحدث مثل هذا الانفجار حين موته الأول كما يُروى؟!

إن المرجع الوحيد الذي لدينا في الإنجيل، حول موت يسوع، هو أنه عندما كان لا يزال معلقًا على الصليب، وبكلمات القديس متى: "وأسلم الروح"، لم يحدث شيء آخر، على ما يبدو، سوى مغادرة الروحِ الجسدَ بصورة هادئة. فهل لنا أن نفترض أنه لم يمت على الصليب بعد ذلك كلّه، لأنه لو كانت الروح قد تركت الجسد لوجب أن ينفجر ذلك الجسد على نفس الشاكلة حتى في ذلك الوقت. فلماذا حدث ذلك لدى مغادرتها الجسد في المرة الثانية فقط؟! ففي هذه الظروف لا يبقى إلاَّ طريقان اثنان مفتوحان لمزيد من المتابعة، وهما:

١- إن شخص يسوع لم يبق محصورًا في الجسد البشري إلى الأبد بعد أن عادت روحه إليه، وأثناء صعوده، كان قد تخلى عن جسده البشري وصعد كروح إلهية خالصة.

هذا الأمر لا تدعمه الحقائق ولا يمكن استيعابه لأنه سيؤدي إلى اعتقاد أعمى أن عيسى قد مات مرتين: المرة الأولى على الصليب، والمرة الثانية حين صعد إلى السماء.

٢- الخيار الثاني هو أن عيسى قد بقي محجوزًا ومحدودًا في قفصه البشري إلى الأبد.

إن هذا لا يمكن قبوله لأنه مُستنكَر للغاية ولا ينسجم مع شرف وعِزّة وجلال صورة الله ﷻ.

ومن ناحية أخرى لدينا وجهة نظر من خلال الفطرة السليمة، وهي أنه من الخطأ فهم صعود عيسى على أنه نوع من الرحلات الفضائية القديمة، وأن نتخيل السماء وراء الشمس والقمر والمجرّات، والحقيقة ليست هنا ولا هناك.[8]

من الممكن أن يكون الدافع وراء اختراع مثل هذه القصة الغريبة العجيبة، هو المأزق المستعصي الحل الذي واجهه المسيحيون أثناء فترة نشوء المسيحية. وحين اختفى عيسى عن مسرح الأحداث فمن الطبيعي أن ينشأ سؤال عماذا يكون قد حدث له؟

لم يكن بإمكان المسيحيين الأوائل أن يحلّوا المأزق بالاعتراف علنًا بأنه لم يمت أصلاً وبالتالي لم يعد ثمة مجال لترك الجسد وراءه لأن الحقيقة أن جسده قد سافر معه أثناء هجرته. وبهذه الطريقة

[8] The Lion Handbook of Christian Belief, Lion, p 120. London (1982)

فإن مشكلة اختفاء الجسد كان يمكن حلّها بسهولة. ولكن مثل هذا الاعتراف كان مستحيلاً.

إن الذين كان ممكنًا لهم أن يجرؤوا على الاعتراف بأن عيسى قد شوهد حيًا، وكان يبتعد عن منطقة "اليهودية" تدريجا، واجهوا خطرًا أن يُحكم عليهم بموجب القانون الروماني، كمن ساعدوا في جريمة الهروب من العدالة.

إن اللجوء إلى تلفيق قصة مثل صعود عيسى إلى السماء يشتمل على خيار أكثر أمنًا مهما بدت هذه القصة غريبة. هذا بالطبع يعتبر تورطًا في الكذب والتزييف. علينا أن نشيد بأمانة الحواريين الأوائل الذين رغم هذا المأزق لم يلجئوا إلى قول الكذب. جميع كُتّاب الأناجيل قد اختاروا الصمت حول هذا الموضوع بدلاً من أن يلجَؤوا وراء ستار ضبابي بتلفيق أقوال غير صحيحة. ولا بد أنهم قد عانوا الكثير من سخرية خصومهم، لكنهم اختاروا أن يتحملوا المعاناة وبصمت.

والصمت الغامض من قبل أولئك الذين كانوا يعرفون حقيقة الأمر، يجعلهم مسؤولين بشكل كبير عن غرس بذور الشكّ في عقول المسيحيين من الأجيال المتأخرة منهم، إذ لا بدّ أن يتساءلوا:

لماذا بعد مغادرة روح يسوع جسدَه، لم يُذكر أي شيء عن جسده الذي تركه وراءه؟ وأين اختفى الجسد وماذا حدث له؟

ولماذا عادت روح يسوع إلى الجسد ذاته الذي خلّفته وراءها، وذلك لو افترضنا أنها قد عادت أصلاً؟

إن هذه الأسئلة الحيوية التي لا جواب لها، كان من الممكن أن تنجب أسئلة أخرى: إذا كان الإحياء يعني العودة إلى الجسد البشري، فما الذي كان من المفروض أن يحدث ليسوع المسيح بعد الفترة الثانية من حبسه في القفص البشري الفاني؟ هل بقي محبوسًا في ذلك الجسد إلى الأبد، ولن يتحرر منه ثانية؟

ومن ناحية أخرى، إذا كانت روح عيسى قد غادرت للمرة الثانية الجسد ذاته، فهل كان ذلك الإحياء مؤقتًا أم دائمًا؟

وإذا لم يبق محتجزًا في ذلك الجسد، إذن ماذا حدث لجسده بعد موته الثاني؟ وأين دُفن؟ وهل ذُكر هذا الأمرُ في أرشيف أو سجلٍ من التاريخ؟

يبدو أن هذه الأسئلة ولو لم تُثَر من قبل فلا بد أنها تكون قد أثيرت بشكل واسع بين رجال الدين المسيحي خلال القرون الأخيرة التي شهدت ممارسات فلسفية مكثفة حول الغموض الذي يكتنف قضية المسيح وكلّ ما يتعلق به. يبدو أن بعض الكتبة العديمي الضمير حاولوا أن يتملّصوا من ذلك بتحريف الأعداد الاثني عشر الأخيرة في إنجيل القديس مرقس، وعزوا إليه – كذبًا – قولاً إن عيسى كان قد شوهد آخر الأمر صاعدًا إلى السماء في الجسد ذاته!

إن إنجيل لوقا أيضًا لم ينج من أيدي التلفيق، إذ أن الكلمات المدسوسة فيه بذكاء: "وَأُصْعِدَ إِلَى السَّمَاءِ" ٢٤:٥١، قد خدمت قصدَ المحرِّف. وبهذه الطريقة قضى على هذه التساؤلات إلى الأبد. وهكذا فإن غموضًا معيّنًا على الأقل في العقيدة المسيحية قد حُلَّ. ولكن، واحسرتاه، بأي ثمن؟! كان ذلك على حساب الحقائق النبيلة المتعلّقة بالصورة الحقيقية الكريمة للمسيح عيسى. إذ إن حقيقة المسيح قد تمت التضحية بها على مذبح الخيال. ومنذ ذلك الوقت استمرت المسيحية - بكامل قوتها ودون وازع ورادع - تتابع مسيرتها وتتحول من الحقائق إلى الخيال.

ونحن نعلم بالتأكيد أن اليهود كانوا غير سعداء وفي غاية الانزعاج لأنهم لم يجدوا جسد المسيح.[9] كانوا يريدون التأكد من موت المسيح عيسى، فكانوا بحاجة ماسّة إلى برهان مقبول بوجه عام على موته، أي وجودِ جسدٍ ميت. وإن شكواهم إلى بيلاطس يعبر بصورة واضحة عن قلقهم من احتمال اختفاء الجسد.[10]

وعلى أية حال فإن الجواب الحقيقي والبسيط يكمن في أن عيسى لم يكن قد مات كما يُعتقد، لذا فإن السؤال عن جسد ميت مفقود لا ينشأ أصلا، بل لا بد أنه كان قد غادر منطقة

---

[9] متى ٢٨: ١١-١٥

[10] متى ٢٧: ٦٢-٦٤

"اليهودية" بحثًا عن الخراف الضالة لبيت إسرائيل إيفاءً بوعده. ومن الواضح أنه لم يكن ممكنًا أن يُشاهَد بعد ذلك.

## وجهة نظر المسلمين الأحمديين

إن وجهة نظر الجماعة الإسلامية الأحمدية عن مكان وجود جسد عيسى واضحة ومنطقية وواقعية تمامًا. فهي تقدِّم عيسى وما حدث له على ضوء حقائق ساطعة. إن حقيقة ذات المسيح عيسى جميلة بحيث لا حاجة لتزيينها بنسج الألغاز حولها. هذه الحقيقة الجميلة تشمل معاناته من أجل البشرية الخاطئة طوال حياته التي توَّجتها معاناته على الصليب ونجاته من الموت على الصليب – كما وعده الله القدير والمحسن الرحيم – ثم هجرته اللاحقة بحثًا عن قبائل إسرائيل العشر الضالة. وهكذا لم يبلِّغ المسيح عليه السلام رسالةَ الله إلى السبطين من بني إسرائيل فقط اللذين خاطبهما قَبل حادثة الصلب، بل وصل أيضًا إلى الأسباط الأخرى من بني إسرائيل، وبذلك حقق الغاية والهدف من بعثته. وعند ذلك فقط، حقق الغاية المتوخاة من بعثته تمامًا. هذه هي الحقائق النبيلة المفصّلة لحياة عيسى الحقيقية.

إن حضرة ميرزا غلام أحمد القادياني، مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، قد أعلن قبل حوالي مائة سنة أن عيسى – الذي هو أحد أنبياء الله الصادقين – قد نجا من الموت على الصليب، كما سبق له أن أشار في أحاديثه. ولأول مرة في تاريخ

الإسلام، قام حضرة ميرزا غلام أحمد بتوجيه من الله ﷻ بكشف الغموض عن الحقائق الرائعة حول حياة عيسى.

كان هو الوحيد الذي أعلن في مواجهة الرفض والمعارضة المريرة من قبل المسلمين التقليديين بأن عيسى لم يمت على الصليب ولم يصعد بجسده إلى السماء، بل أنقذه الله بشكل إعجازي من الموت على الصليب طبقًا لوعده تعالى له. ثم هاجر خارج فلسطين بحثًا عن خراف إسرائيل الضالة مصداقًا لما وعد عليه السلام قومه.

وبتتبّع الطريق المحتملة لهجرة أسباط بني إسرائيل يمكن للمرء أن يفترض باطمئنان أن عيسى لا بدّ أن يكون قد سافر عبر أفغانستان في طريقه إلى كشمير ومناطق أخرى من الهند حيث وُجدتْ القبائل الإسرائيلية.

هناك دليل تاريخي قوي أن كلاًّ من شعبَي أفغانستان وكشمير قد انحدروا من قبائل يهودية مهاجرة. لقد أعلن سيدنا ميرزا غلام أحمد أن عيسى قد مات ودُفن في سرينغار بكشمير.

عندما يقدّم المسلمون الأحمديون هذا البيان كتفسيرٍ واقعي ومقبول لمسألة اختفاء جسد عيسى عن بلد مولده، كثيرًا ما يُواجَهون بالرّد أنه حتى لو نجا من الموت على الصليب فإنه من المستعبد جدًّا أن يكون قد قام برحلة خطرة من منطقة "اليهودية" إلى كشمير. يستغرب الأحمديون عند سماعهم هذا الرّد ويتساءلون: أي المسافتين أطول يا تُرى؟ الرحلة من منطقة

"اليهودية" إلى كشمير، أم الرحلة من الأرض إلى أبعد وأعلى السماوات؟!

ثم يتعجب الأحمديون: ماذا حدث بشأن وعد عيسى لقومه، أنه سيذهب للبحث عن خراف ضالّة لبيت إسرائيل؟

فلو صحّ القول بأنه قد رحل رأسًا من فلسطين إلى السماء ليجلس عن يمين أبيه لكان قد نسي وعده والتزامه بالبحث عن خراف ضالة لبيت إسرائيل، فهل نسي حقًا وعده والتزامه أم تعذر عليه الوفاء بوعده؟ فإمَّا أن يكون هذا ما حدث أو.. حسب ما تساءلنا من قبل.. هل يُقبل أن الخراف الضالة لبيت بني إسرائيل تكون قد سبقوه إلى السماء فذهب هو في أعقابهم!؟

## حالات من النجاة

أما الذين لا يزالون يجدون صعوبة في تصديق رواية نجاة عيسى من الموت على الصليب ويرونها أمرًا مستبعدًا وغير مقبول، فنلفت نظرهم إلى حقيقة أن حالة عيسى كما ذكرناها ليست عجيبة ولا مستحيلةَ القبول على ضوء ما هو معروف ومُسجّل تاريخيًا من بقاء الإنسان حيًّا في الحالات البالغة الخطورة.

وقد ذكر الطب حالات كثيرة وموثقة للذين أوشكوا على الموت وهي تمثّل براهين قوية على نجاتهم من الموت في ظروف شبه مستحيلة.

إن القضية المسجلة والموثَّقة لمهراجا (أمير هندي) في ولاية صغيرة في الهند قبل التقسيم جديرة بالذكر. فقد وقع المهراجا المذكور في حالة مشابهة لما سبق، حيث كانت إمكانية بقائه حيا ضئيلة جدا، إذ دسّت زوجته السم لـــه. ولدى محاولة إحراق جثته في نيران مشتعلة، هبّت فجأة عاصفة عنيفة، وفي نهاية المطاف لم ينج المهراجا من الموت فحسب، بل استعاد عرشه أيضًا بعد معركة قضائية طويلة. والقصة هي كالآتي:

" إن "رامندرا ناريان روي" أميرُ ولاية بهووال (وكانت مدينة جودهبور مركزها الرئيسي) قد دُسّ له السُم، كما يُزعم، وأُعلن موته، ثم أُحضر جسده للحرق على منصة المحرقة في أيار عام ١٩٠٩. وتبيّن من ظروف الحادث أن زوجته كان لها الدور الرئيس في محاولة قتله.

وقبل أن تنتهي عملية الإحراق انفجر رعد قوي أرعب القائمين على حرق الجسد واضطرهم ليعودوا بسرعة تاركين الجسد وراءهم، وهطل المطر فتسبب في إطفاء النار. ولاحظ مجموعة من النساك الهندوس الذين مروا بالمكان أن الرجل حيٌّ فأنقذوه من الحرق. وفي اليوم التالي عندما اكتشف المتآمرون أن جسد الأمير قد اختفى؛ أحضروا جسدًا آخر وأحرقوه ليظهروا أن حرق الأمير كان حقيقة. والنساك الهندوس الذين أنقذوا الأمير أخذوه من مكان إلى آخر. وكانت حالة الموت الوشيك التي مر بها المهراجا قد تسببت له في فقدان الذاكرة، ولكنه

استعادها تدريجًا ثم عاد إلى "جودهبور" بعد اثني عشر عامًا. وقد ساعدته الظروف المألوفة المحيطة بمنـــزله على استعادة ذاكرته بشكل كامل. حين رَفع الأمير شكوى قضائية لاستعادة ملكه في محكمة مَدَنية (Court of Wards) باعتبار نفسه الوارث الحقيقي والمالك لولاية بهووال؛ قامت زوجته مع آخرين بمعارضة القضية. ثم جرت معركة قضائية مريرة بين الفريقين. وشهد أكثر من ألف شخص لصالح الأمير وأربعمائة شخص لصالح زوجته. وكان النـــزاع في المحكمة يدور حول هوية الأمير لأنه كان حسب المعلوم عمومًا قد مات قبل اثني عشر عامًا.

وربح الأمير القضية بعد أن تمكن من وصف بعض العلامات على جسم زوجته والتي يعرفها الزوج فقط؛ وهكذا أعيد إليه ملكه."[١١]

قد تكون هناك مئات الألوف من الحالات كهذه لم يتم ذكرها أو تسجيلها في التاريخ. ولكن بفضل التسهيلات الطبية الحديثة والتغطية الإعلامية تُسجَّل اليوم مئات من الحالات المشابهة.

فإذا كان هذا كله مقبولاً بالنسبة لأشخاص عاديين من مختلف طبقات المجتمع، ومن مختلف الخلفيات الدينية والأخلاقية فلماذا لا يمكن ذلك في حالة عيسى عليه السلام؟!

[11]: The Bhowal Case, compiled by J.M.Mitra and R.C.Chakravarty, Published by Peer & Son, Calcutta.

إذا كانت هناك فرصة أن ينجو شخص من الموت في حالات شبه مستحيلة، فإن عيسى عليه السلام أحقّ بها من غيره بسبب الظروف الخاصة المحيطة به. ومن الغريب حقًا أن يَستبعد المتشكِّكون فكرة نجاة عيسى من محاولة قتله على الصليب، ومع ذلك يصدِّقون بسهولة بالغة الروايةَ الأبعد عن الواقعية والأكثر غرابة لقيامه أو إحيائه من الموت المحقَّق الذي استمر ثلاثة أيام وثلاث ليال كاملة كما يزعمون!

لقد أظهرت البحوث الطبية أيضًا اهتمامها بدراسة حالات الموت الوشيك. لقد أُجريت دراسة تم فيها عرض ثمانية وسبعين تقريرًا عن حالات تتعلق بالموت الوشيك. وفي ثمانين بالمائة من هذه الحالات حضر متخصصون في المجال الطبي وشاهدوها أثناء حدوثها أو بعد ذلك مباشرة. والمهم في الأمر أن ٤١ بالمائة من هذه الحالات قيل عنها بأن أصحابها قد اعتُبروا في عداد الموتى أثناء حالة الموت الوشيك.[١٢]

فإذا كان من الممكن للأطباء الخبراء – رغم وجود كل أنواع الأدوات المتاحة لهم – أن يعلنوا عن شخص حيّ أنه قد مات؛ فإلى أيّ مدى يمكن الاعتماد على شهادة مراقب قلقٍ، شاهدَ عيسى يفقد وعيه (على الصليب)، فاستنتج من ذلك أنه قد مات؟ وعلاوة على ذلك فإن استنتاجه – بعد أن رآه مرة ثانية

[12]: The Phenomenology of Near-Death Experiences, by Bruce Greyson. M.D. and Ian Stevenson. M.D., A.M. Psychiatry 137:10, October 1980.

- بأنه قد قام من الموت، لأمرٌ غير مقبول عقلا ولا مبرر لـــه إطلاقًا!

# الفصـــل السادس

# الثـــــالوث

لقد فحصنا حتى الآن الدوافع التي أدت إلى تكوين أسطورة تأليه المسيح عيسى ودوره المزعوم كابن الله في ما يسمى بالثالوث. ولكن الشخص الثالث في عقيدة الثالوث المسيحية، وهو الروح القدس، يبدو لغزًا غامضًا.

لماذا لا تكفي عقيدة "اثنان في واحد"؟ وأين الحاجة لتقديم الكيان الثالث في هذه العقيدة الأساسية؟ ليس ثمة مبرر من الناحية المنطقية، ليحتل الكيان الثالث حيّزًا في المفهوم المسيحي للألوهيـــة. إن هارنيك Harnack، أحد المعلقين على هذه المسألة، يرى أن المسيحية قد قُدّمت في البداية كإلهة أسطورية صغيرة إلى جانب الإله والمسيح. ثم أُدخلت فيها الكنيسة على أنها الروح، وذلك لتضفي عليها صبغة الألوهية؛ وهكذا تم اختراع الشريك الثالث الذي بدون ذكر الروح فيه كان بلا معنى. وقد استُخدم هذا كسلاح ناجع ضد اليهودية (باعتبار أن فكرة الثالوث هي أمر لازم، وغيابها في اليهودية هو خلل عقدي كبير!).[1]

[1] Constitution and Law of the Church, Harnak, E.T. p264)

وحول الموضوع نفسه يقول القسيس K.E.Kirk في بحثـــه: "تطور عقيدة الثالوث":

"إننا نتوجه طبعا إلى كتّاب تلك الفترة لنكتشف الأسس التي أقاموا عليها معتقدهم. إننا مضطرون لأن نقر بأنه لا أساس لهم. والسؤال الذي عرض عليهم لم يكن "لماذا ثلاثة أشخاص؟"، بل "لماذا ليس ثلاثة أشخاص؟"

ويتابع الكاتب ليشير إلى الفشل الكامل لدى الفكر المسيحي في تقديم أي تبرير منطقي لعقيدة الثالوث. وإن الثالوث المسيحي كان يمكن شرحه على ضوء أنه في الأساس مفهوم ثنائي تمّ ربطه بكيان ثالث مختلف بغية رسم صورة أكثر كمالاً.[٢]

نحن نعتقد أن هذا الوجود قد تطور ونما تدريجًا تحت تأثير فلسفات وأساطير وثنية قديمة قد كثرت أيام الإمبراطورية الرومانية. وأن تبادل الأفكار لا بد أن يكون قد جرّ رجال الدين المسيحي ليُقرّروا مكانة روح القدس. وكما أن هناك أدلّة وفيرة على وجود مثل هذه المعتقدات والطقوس الدينية التي صوّرت الله تعالى وكأنه مركّبٌ من ثلاثة كيانات في كيان واحد. وليس من الصعب تتبع المصدر الأساس لعقيدة الثالوث المسيحي.

وبعد كل هذا، إذا أمكن للاثنين أن يصبحا واحدًا، والواحد اثنين، فلماذا لا يمكن للثلاثة أن يصبحوا واحدًا أيضًا؟

---

[٢] Essay on the Trinity and the Incarnation, edited by A.E.J. Rawlinson, Longmans, London (1928).

ويعود الأمر إلى العلماء الباحثين ليقرروا متى وكيف تأصلت بالضبط الشخصية الثالثة – ضمن الإله المسيحي– في العقيدة المسيحية، ولكن ذلك خارج نطاق البحث حاليًا. وما نريده هنا هو أن نختبر سخافة مثل هذه المزاعم التي يرفضها الفهم البشري السليم كليةً. إن الفطرة البشرية لترفض الأفكار المتضاربة والمتناقضة في ذاتها.

## التداخل في عقيدة الثالوث

عندما يحاول المرء تصوّر الصلة المتداخلة للمكونات الثلاثة للإله المسيحي، فإن السيناريوهات الممكنة التي تبرز هي ما يلي:

أ– هذه الكيانات لها مظاهر أو جوانب مختلفة لشخص واحد.

ب – هم أشخاص ثلاثة يتقاسمون الخلود فيما بينهم بالتساوي.

ج – هم ثلاثة أشخاص وبعض صفاتهم فردية ومتميزة لا يشتركون فيها بشكل كامل.

د – هم ثلاثة أشخاص في واحد، ولهم صفات متشابهة تمامًا، متداخلة بعضها ببعض دون أن يكون لأحدهم وظيفة منفصلة عن الآخر.

وسندرس فيما يلي كلاً من هذه الإمكانيات واحدة بعد الأخرى.

## أ– مظاهر وهيئات مختلفة لشخص واحد

فيما يتعلق بالإمكانية الأولى فلا حاجة لمناقشتها بالتفصيل لأنه قد لا يوجد اليوم مسيحي يصدق بأن يسوع المسيح هيئةٌ أو مظهر لله تعالى خلافا لكونه شخصا منفصلا. فالمؤمنون بالثالوث يصرّون على كونهم ثلاثة أشخاص قد دُمجوا في شخص واحد.

وحالما يقبل المرء السيناريو عن شخص واحد لـــه مظاهر مختلفة تعمل معًا، فإن مفهوم الثالوث، أي ثلاثة آلهة في إله واحد يذوب ويتلاشى في الهواء، ولا يبقى هناك ثالوث على الإطلاق. عندئذ سيموت الإله الأب نفسه بدافع رحمته من أجل خطايا البشر. في هذه الحالة سيكون الأمر مجرّد مرحلة انتقالية للشخص ذاته، فالمظاهر ليست أشخاصًا، وكذلك فإن الهيئات لا تخلق كيانات منفصلة. إن أي كائن بشري يمكن أن يمرّ بالكثير من الحالات والأمزجة المختلفة دون أن ينقسم إلى شخصين أو ثلاثة أو أكثر. ولذلك إذا قرّر الله أن يموت من أجل البشرية الخاطئة، فلا بدّ أن يكون الله نفسه الذي يفعل ذلك وليس مجرّد مظهر من مظاهره!

وهكذا بالنسبة إلى الحالة التي نحن بصددها فإن ذلك الجانب أو المظهر لله الذي لعب دورًا حيويًا في التضحية الإلهية من أجل البشرية الخاطئة، يمكن أن يُفهم أنه مجرد عرْضٍ لصفة من صفاته تعالى. وعليه فإذا اعتبرت رحمة الله على أنها شخص، وأن ذلك

الشخص قد أعطي اسم المسيح، فإن ذلك الشيء الذي مات، هو رحمة الله!

ياله من تناقض عجيب أن رحمة الله قد انتحرت بسبب شفقتها على البشرية الخاطئة!

وذلك يتضمن أنه لم يبق لدى هذا الإله أية رحمة لثلاثة أيام وثلاث ليال.

لنتذكر أن يسوع في هذا السيناريو لا يُعامل كشخص منفصل مستقلّ، بل كصفة أو مظهر من مظاهر الله الذي يصبح فيه نوعًا من الرحمة المتجسدة. على أية حال، فإن ذلك الإله المسيحي يظل كيانًا إلهيًا مفردًا غير قابل للانقسام!

ولهذا فإذا مات شيء ما خلال هذه العملية، فلا بد أن يكون هو إمَّا ذات الله، أو صفته الرحمانية التي لعبت الدور الأساسي في هذا الموضوع! وهكذا فليس هناك خيار سوى الإيمان إمّا بموت رحمة الله أو بموت الله الرحيم نفسه!

ولقد تنشأ تعقيدات كثيرة عن الزعم بأن مظاهر شخص واحد يمكن محوها من الوجود مؤقتًا أو بشكل دائم. وهذا السيناريو يمكن أن يُفهم بمجرد تطبيقه على التجربة البشرية. فمثلاً يمكن للإنسان أن يفقد سمعه أو بصره مؤقتًا أو على الدوام، ولكنه رغم ذلك يبقى ذات الإنسان الحي. إن موت صفة أو خاصية في شخص ما، هو في الحقيقة موت جزئي

للشخص نفسه. وحسب التحليل النهائي، فإن الخاسر أو المعرَّض للمعاناة يظل هو الشخص ذاته.

## ب – أشخاص مختلفون يتقاسمون الخلود

لو كانت عناصر الألوهية المسيحية مكونة من ثلاثة أشخاص مختلفين يتقاسمون الخلود في الوقت نفسه، لبرز السؤال حول العلاقة بينهم. فإذا كان ثلاثة أشخاص يشكّلون إلهًا واحدًا من الأزل إلى الأبد، فلا بدّ أن يكون لكل واحد منهم ذات مستقلة، بحيث أن معاناة أحدهم – إذا كان من الجائز أصلا أن يعاني – ستكون تجربته الخاصة به وحده. ويمكن للآخرَين أن يتعاطفا معه دون أن يستطيعا المشاركة في معاناته. وبطبيعة الحال فإنه من المستحيل تخيّل آلية التفكير وعمليات صنع القرار لدى هذا الإله، ولكن الزعم بأنه في الواقع ثلاثة أشخاص قد صيغوا في واحد يبرّر المحاولة للربط بين العمليات الفكرية الثلاث المستقلة.

والسيناريو المحتمل الذي يبرز هنا، مثله كمثل طفل بشري يولد بثلاثة رؤوس. إن هذا الشيء القبيح يمكن الإشارة إليه على أنه شخص واحد لأن له جذعا واحدا وأربعة أطراف. ولكن وجود ثلاثة رؤوس يكوِّن مشكلة في وصف الطبيعة الحقيقية لهذه الرؤوس.

إذا تسنى لهذه المخلوقات الغريبة أن تعيش طويلاً بحيث تقدر على الكلام والتعبير عن نفسها عندها فقط يمكننا أن نتساءل

عما يحدث داخل الرؤوس الثلاثة. وفي حال غياب هذه المعرفة لن يكون ممكنًا الإعلان عن هذه الرؤوس أنها شخص واحد له ثلاثة عقول أو ثلاثة أشخاص في جسد واحد!

من الغريب أن هذا الجانب الهام في العقيدة المسيحية لم تشرحه الأناجيل مطلقًا. وفي كل ما يخص المسيح أو روح القدس، فليست هناك إشارة ولو خفيفة إلى أنهما شخصان مختلفان ولكنهما مشتركان في عمليات التفكير ذاتها وكذلك في المشاعر ذاتها. وإلا، فإن اعتبار الروح القدس كيانا منفصلا عن المسيح هو أمر يستحيل استنتاجه (من الإنجيل)، خاصة أثناء الفترة التي كان فيها المسيح محصورا في جسده البشري.

والأسئلة التي لا بد أن تبرز حول ما حصل حقًا لشخص المسيح خلال تلك التجربة فيما يتعلق بالعنصرين الآخرين لإله المسيحيين، فهي كالتالي:

١- هل شارك الجزءان الآخران أي الله الأبُ، والروحُ القدس معًا، بأي شكل في تكوين جسدِ المسيح أو تجاربه المتعلقة بذلك الجسد؟

٢- هل كان المسيح هو الساكن الوحيد في ذلك الجسد، ومن ثم لم يشرك في تجربته المتعلقة بالجسد أيًّا من الجزأين الآخرين من الثالوث؟

إن التشعّبات المتعلقة بالأمر الأول قد تم بحثها مسبقًا. وأمّا فيما يتعلق بالأمر الثاني فإن المزيد من التعقيدات تنشأ حول صلة يسوع، في ذلك الوقت، بالكيانين الآخرين من الثالوث.

هل صار عيسى كيانًا منفصلاً بنفسه كلية خلال تلك الفترة، أم ظل جزءًا لا يتجزأ عن العنصرين الآخرين، إلا أنه ظل يقيم في مكان على شكل جسد بشري حصرا؟

والآن لدينا سؤال آخر يتطلّب الإجابة:

٣- هل كان كيان يسوع الإلهي السماوي محصورًا كله في جسده البشري، أم كان قد قُذف خارج التكوين الإلهي المشترك للإله الأب والروح القدس كالإصبع الصغيرة البارزة عن جسم الأميبا؟!

إن هذا السيناريو يقودنا إلى التصديق بأن عيسى كان أعظم من شريكيه خلال تلك المرحلة لأنه قد شارك بالتساوي في شكل الوجود مع الأب وروح القدس، في حين أنهما لم يشاركا في الإصبع البارزة من وجوده البشري.

ولأجل تسهيل فهم الأمور فإن هناك محاولة توضّح التناقض والسخافات الكامنة في هذا التصور من خلال تصور حالات افتراضية مختلفة. وبطبيعة الحال يجب ألا يأخذ القُرَّاء التوضيحات حرفيًا.

والمسألة التي أمامنا هي هل هناك شخص واحد يبدي صفات مختلفة، أو أنه يمر بمراحل مختلفة. هذا يقودنا إلى التأمل في مسألة

ثلاثة في واحد أو واحد في ثلاثة، وبخاصّة من زاوية الحالات المختلفة باعتبار أنها متميزة بعضها عن بعض، وتُظهر شخصيات وأمزجة مختلفة بواسطة الشخص نفسه. وهذا الأمر قد درسناه بشكل مطول في فصل سابق.

ومن الضروري هنا إعادة التأكيد على فكرة أنه إذا كان شخص واحد، أو كيان واحد، يبدي مظاهر مختلفة، فإنه لا يستطيع أن يُبدي تلك المظاهر المختلفة معًا في آن واحد دون أن يقسّم نفسه إلى أجزاء مختلفة.

خذ مثلاً كمية وقياسا معينا من الماء. إن هذا الماء يمكن أن يتحوّل بأكمله إلى بخار أو جليد دون المساس بمكوناته الأساسية. فإذا أردنا رؤية الأطوار المختلفة لهذا الماء في آنٍ واحد، يجب أن ينقسم الماء إلى ثلاثة أجزاء ليكون ثلثه جليدًا، وثلثه بخارًا وثلثه سائلاً. فيصبح كل شكل مختلفًا عن الآخر دون أن يشارك أحد المظهرين الآخرين في صفاتهما في الوقت ذاته.

وعليه فإن كمية الماء المحددة قد انقسمت إلى ثلاثة أقسام ولكن سيكون بالتأكيد حجم كلّ من هذه الأقسام أصغر من حجم الماء الكلي، ولا يستطيع أحد أن يعلن أن هذا القسم واحد في ثلاثة أو ثلاثة في واحد. وهكذا، فإن تقمّص المسيح في صورة يسوع البشرية مع البقاء على هاتين الحالتين، عيسى الإنسان والإله الأب، إنما هو أمر لا يُصدق!

إن جميع البشر قد خُلقوا من العناصر ذاتها، ولكن توافُق وتشابُه بعضهم ببعض لا يجعلهم شخصًا واحدًا. بل إن خصائصهم وتفردهم وتميّز بعضهم عن بعض هو الذي يقسمهم إلى كيانات عديدة مختلفة، رغم أنهم في جوهرهم مخلوقون من المادة نفسها. وعليه فلا يمكن للمرء أن يدعوهم "واحدًا في خمسة بلايين"، أو "خمسة بلايين شخص في واحد" رغم أنهم جميعًا مشتركون في العنصر البشري الواحد.

دعونا الآن نفحص السؤال نفسه من زاوية أخرى:

إذا كان عيسى لفترة ما منفصلاً ومتميزًا عن الإله الأب من ناحية، وعن الروح القدس من ناحية أخرى، ففي أي مكان أقام ذلك الوجود المتميّز والمنفصل للمسيح؟

تذكروا أنه على المرء أن يفهم المسيح بكونه متميزًا كليًا ومنفصلاً عن الأب والروح القدس، وأن تضحيته من أجل إخوته البشر، أو بتعبير آخر، لإخوته البشر إلى حد ما، يمكن أن ينظر إليها بأنها بكاملها تجربته الشخصية خلاف تجربة الأب والروح القدس.

من الواضح أن ذلك سيؤدي بنا إلى اعتبار أن المسيح وحده ينقل قدرات عقله أو فكره إلى جسد المسيح المادي. عندها يمكن أن نفهمه كمن مر بتجربة لم يشاركه فيها العنصران الآخران في عقيدة التثليث المسيحية. يا له من أمر محيِّر للعقل؟!

## ج- أشخاص مختلفون بصفات مميزة

لو كان الإله الأب ويسوع الابن وروح القدس ثلاثة أشخاص ولكلّ منهم صفته الخاصة التي لا يشاركه فيها الآخران بشكل كامل، عندها لا يمكن اعتبارهم "ثلاثة في واحد" و"واحد في ثلاثة".

إن الاندماج الكامل للثالوث في وحدة واحدة يمكن أن يُفهم فقط إذا أصبحت الشخصيات والصفات والمهام وجميع الخواص لدى الأشخاص الثلاثة متطابقة بعضها مع بعض دون أية خواص تميز الواحد عن الآخر.

وهذا يقدم سيناريو يمكن تشبيهه إلى حد ما بالتوائم الثلاثة المتشابهين الذين يمثّلون - فيما يتعلق بعقولهم وقلوبهم وأحاسيسهم ووظائف أعضائهم - انسجامًا تامًا بحيث إن التجربة الفردية لأي واحد منهم تصبح مشتركة مع الآخرَين بشكل كامل.

فإن حدث ذلك فإن شيئًا من الثالوث الإلهي، أي الإله والابن والروح القدس يصبح مفهومًا بوضوح أكثر. ولكن المشكلة ستظل قائمة فيما يتعلق بالأجساد الثلاثة التي تحوي الأشخاص الثلاثة المتشابهين. وهذا لا ينطبق بالطبع على مفهوم المسيحية للثالوث.

وبنظرة ثانية يضطر المرء أن يتصور جسدًا واحدًا له شخصيات ثلاثة. ومثل هذه الشخصية المسماة بالتوأم الثلاثي

يمكن تصورها فقط إذا أمكن لجسم واحد أن يحوي ثلاثة أشخاص، الأمر الذي يطرح مشاكل كثيرة في حدّ ذاته. ومع ذلك يمكن الإشارة إلى أن الله ليس له جسد، وبالتالي فإن تشبيهه بجسد بشري، كما يُقترح، غير قابل للتطبيق. ونحن بالطبع ندرك تمامًا أن الله ليس له جسد بالمفهوم البشري، ولكن المشكلة تظل قائمة وهي أنه كيف يُتصور أن ثلاثة كائنات روحية توجد في صورة ثلاثي متطابق تمامًا مكون من ثلاثة أشخاص، ولكنهم مع ذلك واحد من جميع النواحي الأخرى.

وهناك مشكلة أخرى يمكن أن تواجه ذلك الثلاثي إذا افترضنا وجوده وهي علاقتهم فيما يخص بالعبادة. هل "الثلاثة في واحد" من الشخصيات الروحية للذات الإلهية سيَعبُد بعضُها بعضًا؟ أم هل سيكونون جميعًا موضع عبادة من مخلوقاتهم، دون أن يمارسوا أية عبادة فيما بينهم؟

ومع أن العهد الجديد يذكر مرارا وتكرارا المسيحَ عيسى، وهو يعبد الله الأب ويطلب من الآخرين أن يفعلوا الشيء ذاته، إلاَّ أن الإنجيل لم يَذكر عبادة الروح القدس للإله الأب. ثم لم تتم أية محاولة من قِبل عيسى، حسب شهادة العهد الجديد، لكي يحمل الآخرين على عبادته هو أو عبادة الروح القدس! إن المرء ليندهش من هذا الغياب الكامل للإشارة إلى عبادة ما سوى عبادة الله الأب وحده!

وبالرّغم من الممارسة العامة بين المسيحيين لعبادة يسوع كونه ابن الله مع عبادتهم الله الأب، لم تُسجل أية شواهد على أن أحدًا من حواريي عيسى المسيح قد عبده أبدًا، أو أن عيسى قد حضّهم على عبادته خلال فترة إقامته على الأرض.

وحتى لو كان قد فعَل ذلك، فإن ذلك من شأنه أن يثير أسئلة كثيرة تستحيل الإجابة عليها. وينطبق المبدأ نفسه على الروح القدس أيضًا ويثير سؤالاً: لماذا لم يطلب الروح القدس من أيّ إنسان أن يعبده؟

إن حالة كونهم "ثلاثة في واحد" بمعنى أن ذاتهم العليا أو وعيهم لوجودهم كان واحدًا، رغم انقسامه إلى ثلاثة مظاهر أو وجوه لهو موضوع قد تم بحثه مسبقًا بشيء من التفصيل. إن كائنًا يملك هذه الأوصاف لا يمكن منطقيًا أن يُعتبر ثلاثة أشخاص في واحد. وعلاوة على ذلك فإن المظاهر لا تُعبد ولا هي تَعبد ذاتَها المركزية.

ولكي ندرك أنهم أشخاص مختلفون، عليهم أن يكون لكل منهم كيانه المستقل على صورة ذات تشير إلى وعيهم كأشخاص. وإلا فإن قضية الإشارة إلى أنفسهم أو إلى غيرهم بـــ "أنا" و "أنت" و "هو" لا تنشأ بتاتًا.

إن تطبيق التثليث على كائن واحد يمكن إدراكه فقط على أنه صفات ليس إلا. وفيما يتعلق بالصفات فإنها لا تقتصر على ثلاثة. سواء أعرفنا هذه الصفات أم لم نعرفها، فإن الله بإمكانه

أن يتصف بصفات عديدة. ولكي نختم هذا البحث، فإننا نؤكد من جديد أن مسألة العبادة، فيما يتعلق ببعضهم بعضًا، يمكن أن تُثار فقط إذا كانوا أشخاصًا مختلفين لا يتمتّعون بمكانة وميزات متساوية. ففي هذه الحالة يكون واحد فقط جديرًا بالعبادة، والمتوقع من الاثنين الآخرَين – بسبب كونهما أقلّ شأنًا منطقيًا – أن يعبداه. ولكن في هذه الحالة سوف تتلاشى "الوحدة في الثالوث" وتزول. وليس ثمة طريق لوجود كلا الأمرين أي: ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة معًا وفي آن واحد.

هذا يذكّرني بطريفة أحب أن أشرككم فيها:

رُوي أن جحا الساخر المشهور أضحك كثيرًا تيمور لنك أثناء غزوه لبغداد لدرجة قرر أن يأخذه معه كغنيمة وعيّنه كبير مهرجي القصر. ويقال إن جحا في إحدى المرات وجد في نفسه رغبة عارمة في أن يأكل لحمًا لوحده، حتى لم يعد قادرًا على مقاومة رغبته تلك؛ فاشترى من الجزار رطلين من أفضل اللحم. ثم مضى إلى البيت وأمر زوجته أن تحضّر له من ذلك اللحم شواءً لذيذًا، على ألاَّ يمسه أحد غيره، ولا حتى زوجته. ولسوء حظه، ما كادت زوجته تنتهي من تجهيز الشواء حتى قدم إليها بعض إخوتها في زيارة مفاجئة. وكانت تلك مفاجأة سارة جدًّا لها، ولكن كان مقدّرًا لهذه الزيارة أن تكون مفاجأة غير سارة لجحا. فقد كانت رائحة الشواء الطازج المغرية أقوى من أن يقاومها الإخوة؛ وما تبع ذلك كان نتيجة منطقية. وبعد أن أنهوا

التهام الشواء حتى اللقمة الأخيرة استأذنوا أختهم القلقة للمغادرة. رتّبت الزوجة أمرها تحسبًا لمجيء جحا وأعدت له عذرًا مناسبًا. وحين وصل جحا البيت واشتم بقايا رائحة الشواء الشهي طلب بلهف كبير وجبة اللحم. فأشارت الزوجة إلى القطة التي كانت أفضل حيوانات جحا الأليفة، وقالت: أَخرِج اللحم من هذه القطة، إن استطعت! إذ بينما كنتُ منشغلة بالعمل، التَهَمَتِ القطة الشواء كله. فأخذ جحا القطة ووضعها في كفة الميزان ووجد بالصدفة أن وزنها كان رطلين بالضبط. عندها التفت جحا إلى زوجته وسألها بلطف: إنني يا عزيزتي أصدّقك طبعًا، ولكن إذا كان هذا هو الشواء فأين القطة إذن؟! وإذا كانت هذه هي القطة فأين الشواء إذن؟!

أَدَعُ النكتة جانبًا؛ وأصرِّح لكم أنني لا أوجه هذا النقد أبدًا إلى التعاليم الحقيقية الصحيحة لعيسى عليه السلام، بل إن هذا البحث مجرد محاولة لنقد العقائد المسيحية السائدة التي نعتقد أنها قد انحرفت بعيدًا جدًّا عن تعاليم المسيح الأصلية.

بعد أن أنكرنا وجود أيّ مرجع في الإنجيل يشير إلى أن يسوع كان يُعبَد، يبقى أمامنا أن نشرح المرجع الوحيد الذي يشير إلى هذه القضية في إنجيل لوقا، الإصحاح ٢٤ العدد ٥٢: (فسجدوا له ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم)

يزعم الكثير أن هذه الجملة تقدم دليلاً على أن عيسى نفسه قد وعظ أتباعه أن يعبدوه. ولكن العلماء المسيحيين المعاصرين

يدركون جيدًا أنه قد ثبت عن هذه الجملة أنها مزورة ولا تستحق أن تُعتبر جزءًا أصليا من إنجيل لوقا.

دعونا الآن نعود إلى موضوع الممارسة العامة، سواء كانت مدعومة بالدليل في الأناجيل أم لا. بناء على الممارسة الشائعة لدى الكثير من الطوائف المسيحية اليوم، إن يسوع يُعبد فعلاً بصفته ابن الله. ومع ذلك جميعهم يتّفقون على أن يسوع الذي يعبدونه كان يعبد الله الأب وحده. وعبثًا حاولتُ مرارًا إذ سألت علماء مسيحيين ضالعين عن السبب الذي حدا بعيسى أن يعبد الله الأب، إذا كان هو ذاته جزءًا لا يتجزأ من ذلك الإله، وكان مندمجًا في الله كليَّةً كي يخلق نوعًا من الوحدة (الإلهية) رغم وجود ثلاثة أشخاص، ولكنني لم أتلقّ ردًّا شافيًا.

هل قام المسيح عيسى مرةً بعبادة العنصر الثالث من الثالوث، أي الروح القدس؟ وهل عبَدَ نفسَه إطلاقا؟ وهل عَبَدَت الروحُ القدسُ يسوعَ المسيحَ أبدًا؟ وهل الإله الأبُ عَبَد أحد العنصرين الآخرين قط؟ فإذا لم يحدث هذا فلماذا؟

قد تضطر الإجابة على هذه الأسئلة المسيحيين بأن يعترفوا بأن التفوق الواضح هو لله الأب على العنصرين الآخرَين في الثالوث.

من هذا يظهر أن العناصر الثلاثة للثالوث ليست متشابهة في المنـــزلة، بل هي "ثلاثة في ثلاثة" إذا كانت ثلاثة، ولكنها ليست "ثلاثة في واحد".

وحين يُواجه العلماء المسيحيون مسألة يسوع الذي يعتقدونه ابنا لله حيث قد عَبَدَ اللهَ الأبَ، يقولون بأنه كان الإنسان الذي عبَدَ الإلهَ الأبَ وليس يسوع ابن الله الذي فعل ذلك.

وهذا يعيدنا إلى البحث الذي قمنا به مسبقًا، هل كان ثمة كائنان واعيان يمتلكان جسد عيسى نفسه، فكان لأحدهما الوعي البشري وللآخر وعي ابن الله؟

ثم لماذا تجاهل وتجنب هذا الإنسانُ الإلهَ الابنَ الذي في داخله ولم يعبده هو؟

إن الرجلَ نفسه، يسوعَ شريكَ المسيح، كان عليه أن يَعبد العنصر الثالث، الروح القدس، ولكنه لم يفعل ذلك مطلقًا.

إن العبادة تصرف عقلي وروحي يعبَّر عنه أحيانًا برموز جسدية، ولكنه يظل عملاً مترسِّخًا ومتأصلاً في الكيان الذهني والعاطفي للشخص.

ومن هنا لا بد أن يُقَرَّر من الذي كان يقوم بالعبادة حين كان عيسى يعبد الله.

لقد عالجنا مسبقًا هذا السيناريو بجميع تعقيداته، والذي يظهر منه أن المسيح ابن الله هو الذي قام بالعبادة. فإذا كان الإنسان هو الذي كان يعبد الإلهَ الأب، وإن لم يعبد المسيحَ (الإله الابن)

مطلقًا، فلماذا إذن – يا تُرى – يخالف المسيحيون هذه الأسوة الحسنة التي قدمها عيسى بنفسه؟![3]

ولماذا بدأوا بعبادة يسوع مع الله، بينما يسوع الإنسان لم يَعبد أبدًا شريكَه المسيحَ رغم قربه منه؟!

**د– أشخاص مختلفون بصفات متماثلة ومتساوية**

دعونا نفحص ثانية، ومن زاوية مختلفة هذه المرة، مبدأ "ثلاثة في واحد" كما في الثالوث المسيحي كأشخاص ثلاثة متميزين يشبه بعضهم بعضًا بشكل كامل!

نحن في هذا السيناريو لا نتكلم عن شخص واحد بهيئات وعناصر مختلفة لكنها مجتمعة في واحد، وإنما له ثلاثة أشكال منفصلة كالتوأم الثلاثي. إننا نشير هنا إلى التوأم الثلاثي المتشابهين إلى حد أن تشابههم لا ينتهي بمشابهة الأشكال فقط بل يتعدى ذلك إلى التفكير الكلي وعمليات الحس والشعور فيشتركون في الأفكار والحس والتجارب بصورة متطابقة. ففي هذه الحالة على المرء أن يعترف بأن الاثنين من بين عناصر التثليث الثلاثة هما زائدَان عن الحاجة. وإذا تّم التخلّص منهما، فإن هذا لن يؤثّر البتة على العنصر الباقي من الثالوث والذي سيظل عنصرًا كاملاً في حد ذاته.

[3] أي أن عيسى نفسه لم يعبد إلاَّ الله تعالى وحده، فلِمَ لا يعبد المسيحيون اللهَ وحدَه كما فعل عيسى؟ (المترجم)

والقرآن الكريم أيضًا يثير السؤال ذاته حين يشير إلى الحقيقة بأن الله إذا أراد أن يُهلِك ويقضي على وجود عيسى المسيح والروح القدس، فهل سيؤثِّر ذلك عليه وعلى جلاله وبقائه وكماله؟ ومن يقدر على أن يمنعه تعالى من فعل ذلك؟ (سورة المائدة الآية: ١٨)[4]

وهذا يعني أن جميع الصفات الإلهية سوف تظل سارية المفعول إلى الأبد، وعليه فإن مفهوم الثالوث – كما هو معروض في هذا السيناريو – يصبح بلا معنى وبلا ضرورة.

وعلى أية حال، فإذا كان من المفترض أن الأشخاص الثلاثة في الثالوث يؤدون مهامّا مختلفة، فمِن الواضح إذَن أن العناصر الثلاثة كلها تصبح أساسية لتكوين الذات الإلهية. ففي هذه الحالة سيكون ثمة آلهة ثلاثة يتعاون بعضهم مع بعض ويعيشون معًا في انسجام تام، وهكذا يمكن أن يُعتبروا فقط كآلهة "ثلاثة في ثلاثة"، وليس "ثلاثة آلهة في واحد".

ثم لو اقتُرح أن الثالوث يشبه حالة شخص واحد بوظائف ومهام عضوية مختلفة جميعها مجتمعة في واحد، لأمكن عندئذ طبعًا إبقاءُ الوحدة الإلهية وليس الثالوث الإلهي.

---

[4] يقول ﷻ: ﴿...قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

نحن هنا لا نبحث في قضية شخص ذي وظائف عضوية مختلفة، بل في ثلاثة أشخاص متشابهين بشكل كامل، كل واحد منهم يؤدي مهامًا مشابهة لمهام الآخرين ومع ذلك يحافظ على فرديته. ما نناقشه هنا يقدِّم حالة شخص مفرد بأعضاء مختلفة، إلى هنا ليس في الأمر ما يناقض المنطق. ولكن عندما تُعتبر الأعضاء أنها أشخاص لهم حقوقهم الخاصة، وفي الوقت نفسه يُعتقد أنهم يشكِّلون شخصية هي واحد في مجموعها، عندها تُخرق حدود المنطق ويصبح النقاش بكامله غير مقبول.

لا شك أن للأعضاء فرديتها، ولكن فرديتها جزء من أجزاء شخصية أكبر، لا تتألف من هذا العضو الواحد فقط، بل من أعضاء أخرى أيضًا.

إن جميع هذه الأعضاء في الإنسان تُدعى إنسانًا في مجموعها. وطبعًا فإن بعض الأعضاء تؤدي وظائف أدنى نسبيًا والإنسان يظل إنسانًا بدونها أيضًا ولكن بصورة غير كاملة.

الإنسان المكتمل يجب أن يشتمل على جميع الأعضاء التي يمتلكها كائن بشري عمومًا؛ ومجموع هذه الأعضاء يجعله إنسانًا متكاملاً.

فمثلاً إذا أخذنا حالة إنسان يُدعى بولُس، فلا يمكن للمرء القول: بما أن كبد بولس وقلبه ورئتيه وكليتيه لها فرديتها ووظائف تؤديها، لذا فهي شخصيات متفردة متميزة تمامًا عن بولس. إن التميز الكامل يمكن أن يتحقق فقط إذا كانت

الكليتان – على سبيل المثال – تعملان تمامًا كل ما يعمله بولس في مجموعه. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن أعضائه الأخرى.

وهذه القضية سوف تتطلب أن غياب عضو ما لن يؤدي إلى حدوث أي تغير في شخصية بولس بأيّ شكل كان، أو بالمقابل، فإن بولس حتى بدون رئتيه وقلبه وكِلْيتيه ودماغه، وحتى بإزالة جميع أعضائه يظل ويبقى بولس التام في حد ذاته. وذلك لأن جميع هذه الأعضاء مماثلة ومتشابهة تمامًا، ويظل شخص بولس سالمًا، بغض النظر عن غياب هذه الأعضاء.

إذا كان هذا هو سيناريو "الثلاثة في واحد"، فمن الخطأ القيام بأية محاولة لانتقاد العقائد المسيحية بالمنطق، لأن المنطق الذي ينطبق على العقيدة المسيحية المعاصرة إنما هو منطق ساحرات "ماكبث" (Macbeth) عندما قُلن: "الجمال هو القبح، والقبح هو الجمال."

# الفصل السابع
# تطوّر المسيحية

إن عقيدة الثالوث التي هي إحدى العناصر الأساسية في الديانة المسيحية، لم تكن موجودة زمن حياة المسيح عيسى. وإن أقصى ما يمكن أن يفترضه الإنسان هو أن هذه العقيدة بدأت تتشكّل بعد حادثة الصلب. وقد مضت قرون عدة إلى أن أخذت صورتها النهائية والمحددة ولكن غير القابلة للشرح والتفسير. ولقد مرَّت في عملية طويلة من المجادلات الخلافية المريرة بين رجال الدين والفلاسفة المسيحيين الذين يمثّلون خلفيات دينية وثقافية وتقليدية مختلفة.

ولقد تأثرّت هذه العقيدة عمومًا، بشكل كبير، بأساطير وتقاليد البلاد المختلفة التي استضافت المسيحية في عهودها الأولى. إن الفرع الرئيسي للمسيحية الذي اعتنى وغذّى تطور العقائد والفلسفات المسيحية زمن تكوينها الأول، كان من أصل يهودي.

ظَلّ الأثر اليهودي سائدًا خلال الفترة المبكّرة من التاريخ المسيحي. إن تلاميذ المسيح الذين تعلموا وفهموا المسيحية من عيسى مباشرة وشاهدوها في أسوة حياته، كانوا ينتمون إلى هذا الأصل. لقد كانوا القيِّمين الأوائل للمسيحية بجذورهم المتأصلة

في تُربة تعاليم المسيح المقدسة وطريقة حياته. كانوا هم الذين شاهدوا عملية الصلب، وشاهدوا عيسى ينجو من محاولة اغتياله المدبّرة.

## الأتباع الأوائل لعيسى

يبدو أن المسيحيين الأوائل قد اختلفوا وانقسموا فيما بينهم بشكل جوهري وأساسي حول أمرين هما:

- طبيعة عيسى
- وفيما إذا كان يجب الالتزام بالشريعة الموسوية أم لا.

في المرحلة الثانية من تطور المسيحية، أصبح القديس بولس أهم شخصية مركزية أعطت المسيحية إيديولوجيةً جديدة.

كانت هناك اختلافات جوهرية في وجهات النظر بين بولس وجيمس التّقي. ففي حين اهتمّ جيمس بكنيسة بيت المقدس كان بولس يَعِظُ في الغرب الوثنيين من غير اليهود خاصّة.

تطورت الكنيسة المسيحية الغربية وفقا لخط رسمته نظرية بولس، في حين أن الكنيسة في القدس تطورت على نهج التعاليم التوحيدية.

وكان (الإيبونيون) Ebionites أحد فروع النشاط الديني الخاص بـــ"جيمس" وهم طائفة اشتُقّ اسمها من الكلمة العبرية (إيبونيم) Ebionim وتعني "المسكين" أو "الفقير". لقد كان هؤلاء هم المسيحيون اليهود، الذين اعتقدوا بالمسيح أنه "المسيح المنتظر"

فقط وليس (ابن الله). ولقد تبِعوا الشريعة الموسوية بحماسٍ عظيمٍ، وكان لهم إنجيلهم الخاص بهم والمعروف بأسماء مختلفة مثل: إنجيل العبرانيين، إنجيل الإيبونيين أو إنجيل الناصريين. وفيما يلي وصف للإيبونيين مأخوذ من مصادر مختلفة:

في كتابه "تاريخ الكنيسة" المكتوب في القرن الرابع الميلادي في القيصرية، نجد أن "يوسيبوس" يذكر الإيبونيين في الكتاب الثالث: "فيسباسيان إلى تراجان" (Vespasian to Trajan)، ويسخر من وجهات نظرهم قائلاً: إن اسمهم يأتي من فكرتهم السيئة والحقيرة عن عيسى.

اعتَبر الإيبونيون عيسى بشرًا فانيًا، واحترموه باعتباره رجلاً تقيًّا بالنظر إلى أخلاقه وشخصيته. وكيهود فقد كانوا يطبّقون حرمة السبت، وكذلك كل تفصيل جاء في الشريعة، ولم يقبلوا عقيدة بولُس التي تزعم أن الخلاص بالإيمان فقط. ويتحدث الكاتب أيضًا عن مجموعة أخرى من الإيبونيين الذين قبلوا فكرة الولادة من العذراء والروح القدس، ولكنهم رفضوا فكرة الوجود المسبق لعيسى على اعتبار أنه: "الله، الكلمة والحكمة" وهم قد تبعوا إنجيل العبرانيين الذي من المحتمل أن يكون إنجيل متى.

كان الإيبونيون يحترمون السبت والنظام اليهودي، ولكنهم كانوا يحتفلون بالقيامة.[1]

يذكر ر. آيزنمان (R. Eisenman) و م. وايز (M. Wise) في كتابهما "اكتشاف ملفات البحر الميت" خلفيّةَ الإيبونيين ويقولان: إن جيمس (الصادق أو الصدوق) كان رئيس كنيسة القدس في منتصف القرن الأول (تقريبًا ٤٠-٦٠م)، وهي الفرع الذي سمي فيما مضى بالكنيسة المسيحية اليهودية في فلسطين، والإيبونيون تطوروا عن هذا الفرع.[2]

إن الجماعة التي تبعت جيمس كانت تُعرف بالمساكين (غلاطية ٢:١٠، جيمس ٢: ٣-٥)، وهو لقب مذكور في كلا الموضعين: خطبة الجبل وفي ملفات البحر الميت.

يشعر آيزنمان لأسباب عديدة أن الإيبونيين كانوا شبيهين بمؤلّفي "ملفات البحر الميت". فهم قد عظَّموا جيمس الصدوق واعتقدوا أن عيسى مسيحهم البشري، وأن بولس قد صار مرتدًّا بالنسبة إلى الشريعة. ولقد طبقوا حرمة السبت والشريعة بحماس كبير، وأعطوا جيمس أكبر اعتبار في حين عدّوا بولس عدوًّا لهم. (متى ١٣: ٢٥-٤٠)[3]

---

[1] The History of The Church, Eusebius, pages 90-91, Penguin 1989

[2] The Dead Sea Scrolls Uncovered, R. Eisenman & M. Wise, p.186, Element Books, 1992

[3] المرجع السابق ص ٢٣٣-٢٣٤

ويرى (بايجنت و ليه و لنكولن) Baigent, Leigh and Lincoln في كتاب "الميراث المسيحي"، أن مصدر التعاليم الأساسية للإيبونيين Ebionites والأغنوطيين Gnostics والمانيكانز Manicheans والصابئين Sabians والمانديين Mandeans والنسطوريين Nestorians والإلكاسيين Elkasites قد وُصفت بأنها فلسفة ناصرية Nazarene. إنهم يشيرون إلى الفكر الناصري كما يلي:

"إنه توجُّهٌ باتجاه عيسى وتعاليمه التي تُشتق في النهاية من صميم المَعين الناصري كما تم تفصيله من قِبل عيسى ذاته، ثم تمت إشاعته من قِبل جيمس ويهود أو يهوذا توماس وحاشيتهما المقربين. وكانت معتقداتهم كما يلي:

١- الالتزام الشديد بالشريعة الموسوية.

٢- الاعتراف بعيسى كمسيح.

٣- الاعتراف بالولادة البشرية الطبيعية لعيسى.

٤- العداء للمفاهيم الخاصة ببولس.

وثمة مجموعة من المخطوطات محفوظة في مكتبة في إسطنبول وتحتوي على فقرات منقولة من نصوص يعود تاريخها إلى القرن الخامس أو السادس الميلادي، والمنسوبة إلى الناصرة والمكتوبة باللغة السيريانية، ووجدت في دير في خوزستان جنوب غرب إيران بالقرب من حدود العراق. وهي تعكس وجهات نظر الكهنة الناصريين الذين فرّوا من القدس بعد الدمار الذي حل بها

عام ٦٦م، وهي تشير إلى عيسى على أنه بشر ويؤكد على تطبيق الشريعة اليهودية.

هجر أتباع القديس بولس دين عيسى وتحوّلوا إلى العقائد الرومانية."[٤]

من بين جميع المراحل المختلفة التي تطورت أثناء تشكيل المسيحية، فإن أولئك الذين يؤمنون بالفلسفة الناصرية، يمكن أن يُعطَوا وحدهم الأفضلية بحق وجدارة. فهؤلاء المسيحيون الأوائل كانوا قد عُلّموا معنى المسيحية من قِبل المسيح ذاته.

## دور القديس بولس

من الواضح أن القديس بولس وأنصار مدرسته لا ينتمون إلى تلك العقائد. وفي الحقيقة فإنه منذ زمن القديس بولس فصاعدا حين أخذت المسيحية في الانتشار في بلاد أجنبية وبين أصحاب العقائد المشركة ضمن الإمبراطورية الرومانية، بدأت تتأثّر بقوة فائقة بتلك العقائد الوثنية وخضعت للثقافات والميثيولوجيات (العقائد) المنتشرة في تلك البلاد، ثم ابتعدت أكثر فأكثر عن نقاء نشأتها الأصيلة. ولقد قام القديس بولس بدور فاعل بالغ التأثير في انحطاط وانحراف العقائد والمفاهيم المسيحية، وذلك بتسريب طابعه الشخصي الخاص بمذهبه الباطني المبهم. إن بولس لم يكن

[٤] The Messianic Legacy, M Baigent, R Leigh, H Lincoln, p. 135-138, Corgi Books

من الأصل اليهودي[٥]، ولم يكن له أي اتصال مباشر بعيسى، ما عدا "حلمه" المزعوم. وكان – على ما يبدو – تحت التأثير القوي للثقافات الأجنبية مسبقًا.

وعلى ما يبدو أيضًا، أنه لم يكن هناك إلا اختياران اثنان أمام القديس بولس هما: إمّا أن يدخل في معارك شديدة ضد عالم من الأساطير والخرافات المنتشرة في بلاد الإمبراطورية الرومانية منذ الأزمنة السحيقة، أو أن يستسلم ويخضع لهذه العقائد ويترك المسيحية تتغير وتتبدل لتتلاءم مع متطلباتهم على أنها ليست مختلفة مبدئيا عن أساطيرهم وخرافاتهم.

لقد وجد القديس بولس هذا الاختيار الثاني أكثر سهولة وفائدةً. وترك المسيحية تتغير لتتلاءم مع طموحاتهم وفلسفاتهم الشائعة في بلاد غير يهودية. وهذه الإستراتيجية عملت جيدًا وأثبتت جدواها باستقطاب أعداد كبيرة من المنضمين الجدد؛ ولولا ذلك التبديل الهادف لما تحقق ذلك المكسب.. ولكن بأيّ ثمن؟!

ولكن ذلك الدين، لسوء الحظ، قد انتهى بمنافسة غير شريفة بين القيَم المسيحية النبيلة والأساطير المُشركة. إن القديس بولس لم يغيّر في ذلك الدين سوى أسماء آلهة المشركين فقط وبدّلها باسم: يسوع، الله (الأب)، والروح القدس. لم يكن هو في

[٥] The Hiram key, Christopher Knight & Robert Lomas, p.246, Century 1996

الحقيقة الذي اخترع أسطورة الثالوث وقدّمها إلى العالَم المُشرك باسم المسيحية، بل قد استعار أسطورة الثالوث من ميثولوجيا المشركين وجعلها جزءًا من المسيحية. ومنذ ذلك الوقت صارت المسيحية هي الشِّرك القديم ذاته ولكن بأسماء جديدة ووجوه جديدة.

ولذلك فإن مسيحية بولس لم تنجح في تغيير عقائد وخرافات وأساطير العالم المُشرِك، ولكنها انتهت بتغيير وتحويل المسيحية بشكل يتوافق مع تلك الأساطير والخرافات المشركة. وإذ لم يستجب الجبل لدعوته، فقد قرّر هو أن يذهب إلى الجبل!

## حقيقة عيسى

لا شكّ في أن لكل شخص كاملَ الحقِّ والحرية في أن يختار بين مسيحية بولس، أو تلك المتعلقة بـــ "جيمس" الصادق والزعماء الأوائل للمسيحية، الذين كانوا تلاميذ عيسى المسيح ذاته. ولكننا نريد هنا أن نبرهن على أن الفرع الرئيسي للمسيحية قد استمر في النماء من خلال الموحدين (المسيحيين الذين لا يؤمنون بالثالوث) وأبقى نفسه في معزل عن البدع المتأخرة التي ولّدت التعقيدات في العقائد المسيحية مثل ألوهية عيسى على أساس أنه ابن الله، والثالوث، والخطيئة الموروثة، والفداء، وعودة المسيح المادية إلى الحياة.. إلخ.

إن وجهات نظر رؤساء الكنيسة الأوائل، الذين يُعدّ جيمس الصادق شخصية بارزة فيهم، كانت بسيطة وأمينة وصادقة، و لم يكن لديهم تناقضات داخلية أو مفارقات مخفية وراء شاشة الغموض الضبابية.

إن دراسة تاريخ الموحّدين في المسيحية تؤكد، بما لا يدع مجالاً للشك، أن وحدانية الله – غير المعقدة بشعار الثالوث – ظلّت هي العقيدة الرسمية لكنيسة المسيح الحقيقية في نقائها الأصلي القديم.

أرجو أن تتذكروا أن هذا البحث القصير، ليس محاولة لتحويل المسيحيين إلى أية عقيدة أخرى غير عقيدة المسيح. بل هو ببساطة محاولة صادقة لدعوة المسيحيين إلى العودة إلى دين عيسى ذاته وممارساته النقية من أيّ تحريف أو تغيير. إنها محاولة مخلصة لإعادة الخيال إلى حقائق المسيحية الأصيلة التي هي بالتأكيد جميلة كما أنها واقعية تُرضي العقل والقلب معًا.

لم تكن الأساطير المُحاكة حول حقيقة المسيح عيسى، لمدة ألفي سنة تقريبًا، هي التي أبقت المسيحية وساعدتها على أن تظل وتبقى وتنجو من تحدّيات العقل والتنوير العقلاني المتنامي الناتج عن التقدم العلمي؛ وليس بقاؤها راجعًا إلى الاعتقاد الخرافي بالثالوث. بل إن الذي حفظ حقيقة وروح المسيحية معًا هو جمال شخص عيسى المسيح وتعاليمه. إنه السلوك المقدس الرائع

– وليس شخص يسوع اللاهوتي – هو الذي كان اتّباعه والالتزام به جميلاً جدًّا.

لقد كانت معاناته وصبره وثباته من أجل المُثل النبيلة، ورفضه القوي الجريء لجميع المحاولات الاستبدادية الطاغية لإكراهه على تغيير مبادئه هي الأرضية الصحيحة الحقيقية للمسيحية. وهي لا تزال جميلة ومحبوبة اليوم أيضا كما كانت من قبل. لقد أثّرت بقوة كبيرة على عقول المسيحيين وقلوبهم بحيث أنهم ظلوا مرتبطين بعيسى مفضِّلين إغلاق عيونهم عن التناقضات المنطقية بدلاً من الانفصال عنه.

إن عظمته الحقيقية تكمن في حقيقة أنه قد تجاوز وتغلّب على قوى الظلام التي تآمرت للقضاء عليه رغم كونه بشرا ضعيفًا ليس إلا. إن انتصار عيسى لهو أمر يفخر أن يشاركه فيه جميع أبناءُ آدم. وكما نراه، نحن المسلمين، فهو واحد من أنبل أبناء آدم وذرّيته. وهو قد عَلّم الإنسانية بأسوته قيم المثابرة والثبات في وجه المعاناة والألم الكبيرَين. وإن عدم استسلامه وبقاءه ثابتًا راسخًا تحت طحن أسنان المحنة العظمى، كان أعظم وأنبل إنجازاته. لقد كانت سيرة معاناته وآلامه هي التي حررت الإنسانية وجعلته هو يقهر الموت. فلو كان قد استسلم للموت، فإن هذا يعني أنه هرب من حياة المعاناة وآثر عليها الموت. فكيف يمكن اعتبار ذلك عملاً شجاعًا؟ إن الذين ينتحرون تحت الضغط والمعاناة الشديدة، فإن عملهم هذا يُعتبر جبنًا محضًا ينافي

كل مفهوم للشجاعة. فنيل نصيبه في معاناة الحياة هو أفضل بكثير من النجاة من المعاناة بالموت.

ومن هنا فإن مفهوم التضحية الفائقة لعيسى بقبوله الموت من أجل البشرية هو مجرد نزعة عاطفية فارغة لا لُبَّ لها!

ونؤكد ثانية، أن عظمة عيسى، تكمن في تضحيته الفائقة أثناء حياته، وليس بموته. فلقد تحدّته إغراءات الاستسلام طوال حياته لتبديل حياة المعاناة والآلام بحياة الراحة والرفاهية. كان يواجه الموت في كل يوم وليلة، ولكنه رفض الاستسلام وعاش من أجل الخاطئين ليُحييهم من جديد ويعيدهم إلى الحياة. لقد قهر الموت ليس بتسليم نفسه إلى الموت، بل برفض الانحناء له. لقد هزم الموت كليّا وقام من بين قبضة مخالبه. ولو أن رجلاً آخر وُضع في مكانه لانتهى وتبدّد وتلاشى. وبهذا فقد برهن المسيح على صدقه وصدق كلمته دون أدنى شكّ.

هكذا نرى عيسى المسيح، ولذلك نحبه كثيرًا جدًّا. لقد كان صوته صوت الله وليس صوت طموحاته. لقد قال ما أمره الله أن يقول؛ لا أكثر ولا أقل. لقد عبَدَ الله طوال حياته وعبَدَه وحده، ولم يَطلب من أيّ بشر أن ينحني أمامه أو أمام أمّه أو الروح القدس.

تلك هي حقيقة عيسى التي ندعو المسيحيين من كافة الفرق والطوائف والمعتقدات أن يعودوا إليها.

## استمرار الدين

نحن نؤمن باستمرارية وعالمية الأديان. والإسلام، لهذا السبب، يؤكد ويشدد على نظام النّبوّة باعتبارها ظاهرة عالمية. الأمر الذي يعني وجوب الإيمان بالأنبياء جميعًا. وإن رفض واحد من مجموع الأنبياء سيؤدي إلى رفض الجميع، لأن المرء – في الحقيقة – يقبل الأنبياء على أساس أنهم ينحدرون من المصدر ذاته فقط. ولذلك فإن التعبير أو المصطلح: "الاستمرارية" يجب أن يُفهم في هذا السياق على أنه شيء مشابه – ولكن ليس تمامًا – لتطوّر الحياة. إننا نؤمن بتطور الرسالة، وبأنها تتقدم بما يتلاءم مع التقدم البشري العام في جميع مجال النشاطات البشرية. ويبدو أن الأشكال الأولى من الأديان الموحى بها، رغم أنها تحوي التعاليم الأساسية نفسها، فقد غطّت مساحات من التعاليم المفصَّلة بشكل أقلّ نسبيًا؛ أي شملت أعدادًا أقلّ من الأوامر من قبيل: "افعلْ ولا تفعلْ"، وبعد ذلك نمت هذه التعاليم تدريجًا إلى عدد أكبر من الأوامر والمحرمات، مغطّيةً مجالاً أوسع من النشاط الإنساني. وكذلك يبدو أن الأديان التي جاءت في الحضارات القديمة قد قدمت نفسها إلى جمهور أقلّ نسبيًا يخصّ قبائل معينة أو عشائر أو مناطق. كانت رسالاتهم محصورة ومحدودة بمتطلّبات الوقت. ويمكن أن توصف بشكل مناسب أكثر بأنها كانت أديانًا قَبَلية أو عشائرية أو قومية محدودة. إن قضية بني

إسرائيل والتعاليم اليهودية تُعتبر نموذجًا مناسبًا للبرهنة على هذا الأمر.

ويمكن أن تُلخّص طبيعة التطور التاريخي للأديان في شقّين اثنين:

١- توضيح تدريجي وكمال نسبي للتعاليم.

٢- انتقال وتحوّل تدريجي من انتشار أصغر إلى امتداد أكبر.

إن الاستمرارية لا تعني أن الدين الذي أوحى الله به إلى آدم قد استمرّ هو ذاته في مخاطبة الجنس البشري، وأنه قد مرّ بتغيّر تدريجي متقدم، موسعًا حقله في التعاليم والتوجّه إلى الناس؛ ولكن المعنى هو أنه في أجزاء مختلفة من العالم حيث تأصَّلت حضارات مختلفة وانتعشت، فإن الوحي السماوي قد ولّد الأديان التي تتواكب مع التطورات الاجتماعية للإنسان في تلك البقاع من العالم. ولقد كانت جميع هذه الأديان تتطور، على كل حال، في الاتجاه العام نفسه.

## قمة التطور الديني

إننا نعتقد بأن الدين الذي ظهر في الشرق الأوسط - من بين جميع هذه الطوائف الدينية - كان قد رُبِيَّ وثُقّف ليولّد مثل هذه الأديان الكبيرة كي تخدم الفرع الرئيس للتطور الديني في العالم. إن هذا واضح تمامًا من خلال دراسة التاريخ الديني. إن اليهودية تبعتها المسيحية والمسيحية تبعها الإسلام، وهذا يبين بوضوح

اتجاه تطور التعاليم الدينية. ويمكن تَقصّي أثر تطور التعاليم في هذه الأديان بدءا من الأزمنة السابقة إلى الأزمنة المقبلة، وعند ذلك يتبيّن عمق علاقة بعضها ببعض. ولذلك فإنه من الهامّ جدًّا أن نفهم أنه كان من المحتم أن يُسفر هذا التدبير المحكم للأمور، كما أسفرت فعلا، عن ظهور هذه التعاليم بصورة كاملة ومحكمة في شكلِ دينٍ عالميٍّ هو الإسلام.

في هذا السياق، فمن مصلحة اليهود أن يحاولوا، بشكل جادّ ودون إجحاف، فهمَ أهمية عيسى المسيح. وبسبب فشلهم في معرفته، فإن حالة اليهود تشبه حالة الكثير من الأجناس الحيوانية التي دُفنت عميقًا في تاريخ التطور، ولم تعد تلعب أي دور حيوي في شجرة الحياة المتطورة، التي تقترب في نموها من قمة تطورها. وبهذا فقد بقيتْ هذه الأجناس مجرد ذكرى من التاريخ، ولكنها لا تزال تعيش في مجال وجودها الضيق المحدود الخاص بها.

وإن حالة المسيحيين أيضًا مشابهة لحالة اليهود، ولكن المسيحيين يتقدمون عليهم خطوة واحدة فقط في قربهم من الإسلام، من حيث الترتيب التاريخي. وعلى أية حال فإن تلك الانحرافات عن مسلك عيسى المسيح إلى طريقٍ منحلّة فاسدة، التي كان قد ابتدأها بالأصل القديس بولس، هي الأكثر أهمية. فذلك الطريق أخذهم – في الواقع – حتى إلى ما هو أكثر بعدًا عن الإسلام من اليهود. فاليهود، بعد أكثر من أربعة آلاف سنة

من وجودهم، قد تعلّموا – على الأقل – درس التوحيد، الذي هو أمرٌ حيوي للحياة الروحية لأيّ دين. وبالرغم من هذا القرب من الإسلام في العقائد الأساسية، فإن ثمة عوامل تجعل اليهود أكثر تصلبًا وعنادًا في رفضهم الدخول في الإسلام بأعداد كبيرة.

إن هذه الدراسة تجعلني أعتقد أنه ما لم يطوِّر اليهودُ تفكيرهم وموقفهم الذي هو ضروري لفهم المسيح، رغم التشابه العقائدي بين الديانتين، فإنهم سيظلون أكثر بعدًا وانفصالاً عن الإسلام من المسيحيين. لقد فقدوا أهمَّ صلة حيوية.. وهي المسيح عيسى.. بينهم وبين بعثة الرسول محمد ﷺ. إن هذا الإنكار للحقيقة قد جعل قلوبهم قاسية إلى درجةٍ جعلتهم غير مستعدين نفسيًا لقبول أية رسالة جديدة. إنهم مستمرون في انتظار المسيح، في حين أن المسيح قد جاء ورحل. وبسبب فشلهم في التعرف عليه مرة، فإن احتمال معرفتهم إياه لدى مجيئه الثاني يتضاءل أكثر. فهم، على ما يبدو، مكتوب عليهم أن يظلوا إلى الأبد في انتظار المسيح في أحلامهم!

لقد كان المسيح هو المزمَع أن يمهّد الطريق للدين الأكثر تطورًا وهو الإسلام.

يجب ألا يؤخذ هذا القول بتصلب وعدم تفكر. نحن لا نقترح على اليهود قبول المسيحية أوّلاً ثم اتخاذ الخطوة التالية إلى الإسلام. فإن هذه، إن حدثت، تكون وجهة نظر دينية غاية في السذاجة.

إن ما نريد أن نشير إليه هو أن الشعب الذي قد رفض نبيًا أو رسولاً ولم يكن مجرّد نبيّ أو رسول عاديّ، بل كان مقدّرًا له أن يلعب دورًا هامًا جدًّا في مهمة تربية وتدريب ذلك الشعب عقليًا وروحيًا، فإن مثل هؤلاء الناس يرفضون نبيّهم بسبب كونهم مرضى روحيًا ونفسيًا. وما لم يُشفوا من ذلك المرض، وما لم يتم تصحيح ذلك الموقف المشوِّه للحقيقة، فإنهم يكونون أقل استعدادا لاتباع نبي كان قد اختفى وراء حلقة الوصل التي فقدوها مسبقًا.

وفيما يتعلق بموقف المسيحيين، فإن بإمكانهم فقط الاهتداء إلى حقيقة النبي محمد ﷺ إذا ما عادوا إلى الحقيقة والواقع الخاص بعيسى. فهو لم يكن فقط الطريق إلى الله، ولكن كان أيضًا – مثلَ جميع الأنبياء الآخرين – الطريقَ إلى النبي الذي كان مقدَّرًا أن يأتي من بعده. لقد كان عيسى فقط الحلقة الوسطى في مثال كرم العنب. وأما الدين الذي يمثل قمة دين الله، كان سيأتي فيما بعد. لذلك فإنه ما لم يرجع المسيحيون عن الصورة الأسطورية الخيالية لعيسى، إلى الحقيقة الأكثر رفعة ونُبلاً لسيدهم الكريم، فإنه لن يمكن إرشادهم إلى الطريق الذي يوصله بالنبي محمد ﷺ.

كان النبي محمد ﷺ حقيقة واقعية أرشدت البشرية إلى حقائق أخرى. لذلك فإن حقيقة المسيح بدلاً من الخيال الذي أُحيل إليه، هي التي ستبارك المسيحيين ليعرفوا حقيقة النبي محمد ﷺ.

# الفصل الثـــــامن

# المســيحية اليـــوم

إن أعظم مشكلة تواجه عالَم المسيحية اليوم، ليست هي الافتقار إلى الفهم، بقدر ما هي نقص الرغبة والإرادة لقبول الحقيقة. فسواء أكانت المسيحية أسطورية أم واقعية، فقد أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الحضارة الغربية، وقد لعبت دورا هامًّا في استعمارها شعوبا أخرى، وفي إخضاعها لإمبرياليتهم. إن المسيحية تدعم منظوماتهم السياسية والاقتصادية وتزوّدهم بقوة توحيدية انسجامية متماسكة تبقيهم ككيان واحد قوي عاتٍ موحَّد. ولقد لعبت المسيحية دورًا حيويًا في بناء وتماسك منظومة غربية اجتماعية وسياسية واقتصادية.

إن ما نفهمه هو أن الحضارة الغربية، أو الإمبريالية الغربية وهيمنتها الاقتصادية قد تمّ انتشارها من خلال بعض العناصر المسيحية.

ويبدو أن المسيحية، في حالتها الراهنة، هي أكثر ميلاً إلى أن تَخدم الهدف المادي للغرب أكثر بكثير مما تَخدم غايَتَه الروحية. في حين كان دورها في الماضي يتّجه أكثر باتجاه دعم العقائد المسيحية وبناء القيم الأخلاقية.

إن أكثر الأدوار التاريخية التي لعبتها المسيحية يتجلّى، على كل حال، في بناء وتقوية الإمبريالية الغربية. إن غزو الشرق كان قد تم بعاطفةٍ وحماسٍ مسيحيَين. وبخاصةٍ المعارك التي شُنت على الإمبراطورية الإسلامية، كان الحافز عليها هو الكُرهُ المسيحي للإسلام.

## المسيحية والاستعمار

عندما أَخضع الحكمُ الاستعماري قارّة أفريقيا، بأكملها تقريبًا وقيّدَ أهلها من الرأس إلى القدمين في سلاسل العبودية السياسية، لم يكن عليهم أن ينتظروا طويلاً حتى تم تقييدهم يدًا وقدمًا في سلاسل العبودية الاقتصادية أيضًا. فالفتوحات الاستعمارية لا معنى لها دون إخضاع الشعوب اقتصاديًا. ولم يمض على مجيء اللوردات السياسيين والاقتصاديين زمنٌ طويل، حتى لحق بهم الكهنة المسيحيون لابسين مُسوح التواضع والتضحية بالنفس. وقد بدا أن هدفهم من زيارة أفريقيا كان مُعارِضًا تمامًا لهدف طلائعهم السياسية والاقتصادية. "لم يأتوا ليستعبدوا"، هكذا قالوا، بل ليحرِّروا روحَ أفريقيا. ومن المدهش أن الأفريقيين لم يتساءلوا عن هذا القصد النبيل المزعوم. لماذا لم يطلبوا، وباحترام، من قادة الكنيسة الأخيار المحِبين للبشرية، أن يجيبوهم على أنه: لماذا كان عليهم أن يُشفِقوا على أرواحهم.. أرواحهم وحدها؟! ألم يروا كيف أن أجسادهم قد استُعبدت دون شفقة أو رحمة؟!

ألم يروا كيف سرقوا منهم حريتهم السياسية، بمتعةٍ وفرحٍ لا يأخذ أيّ اعتبار للعدالة ولا لأحاسيس الشعوب ومشاعرها؟! ألم يروا كيف تم تقييدهم في سلاسل العبودية الاقتصادية؟! لماذا لم تأخذهم الرحمة والشفقة على حالاتهم الجسدية في الأسر؟! ولماذا كانوا فقط مهتمين بتحرير أرواح شعب مستعبَد؟!

إن التناقض الكامن هنا واضح، ولكن واحسرتاه لم يكن الأمر واضحًا جدًّا لأولئك الذين سقطوا ضحية المخططات المسيحية؟!

إن أفريقيا ساذجة بسيطة حقًا، وهي لا تزال ساذجة حتى اليوم كما كانت منذ مئتي سنة مضت. وإن الأفريقيين ما زالوا لا يَرون جريمة استعبادهم الاقتصادي والسياسي من خلال المنظومة الخفية للاستعمار الحديث، والمسيطِر عليها عن بُعد. إنهم ما زالوا غير مدركين أن المسيحية في حقيقة الأمر بالنسبة لهم ليست إلا مجرد وسيلة لإخضاعهم واستعبادهم. إنها مثل المخدّر الذي يهدهدهم في نوم عميق من الغفلة، ويمنحهم شعورًا زائفًا بالانتساب إلى حكامهم والاشتراك معهم في شيءٍ على الأقل. إنه الشعور بالانتساب ذاته الذي قادهم إلى تقليد نموذج الحياة الغربية الباذخة.

الأشجار تظل مزروعة في أراض أجنبية، أما الثمار فتُنقل إلى شعب أصبح بشكل ما مدمنًا على طعمها.

هذا توضيح صغير يُبيّن كيف أن المسيحية كانت دائمًا ضرورة لا يُستغنى عنها بالنسبة إلى الهيمنة الإمبريالية الاقتصادية الغربية على العالم الثالث.

في الغرب ذاته، وبغضّ النظر عما إذا كان الإنسان العادي يفهم الأمور المعقدة في العقيدة المسيحية أم لا، فهو يرى المسيحيةَ أنها جزء لا يتجزأ من ثقافته وحضارته. ولا يغيبنّ عن البال أن القوة الحقيقية للقيم المسيحية، حيثما ظلت باقية، لا تكمن في منظومة معتقداتها الأسطورية، بل تكمن في حثّها على اللّطف والتعاطف وتقديم الخدمات للمحتاجين، والقيم الأخرى المشابهة التي صارت أمرًا مترادفًا للمسيحية تقريبًا.

وبالرغم من أن هذه القيم مشترَكة بين جميع أديان العالم، – ويبدو أنها هي الهدف السماوي من قيام هذه الأديان ليستفيد منه البشر جميعًا، ومع ذلك، وبشكل ما، فإن الدعاية المسيحية القوية العاتية تشدّد باستمرار على علاقة هذه الممارسات بالمسيحية وحدها. وبهذا فقد نجحت في إقناع الناس بهذا على نطاق واسع.

إن رسالة التعاطف والشفقة والورع والسلوك اللطيف تلعب دورها الساحر على الآذان بموسيقاها الناعمة. إن هذا العالم الرومانسي هو الذي يجذب الناس عادة إلى الدين المسيحي. وعلى أية حال، فإن الدين المسيحي يُشغّل، جنبًا إلى جنب ولكن

بشكل منفصل أيضًا، الحقائقَ السياسية والاقتصادية للحياة الغربية، وكذلك عمليةَ إخضاعها لبقية العالم.

ويبدو أن التناقضات العقائدية التي على المسيحيين أن يعايشوها، قد انتقلت بشكل ما إلى سلوكهم الدنيوي أيضًا. فاللطافة، والتواضع، والصبر، والتحمل، والتضحية، والكثير من مثل هذه الكلمات النبيلة، تسير يدًا بيد مع القسوة الوحشية، والقهر، والظلم الشديد، والإخضاع الواسع الكبير للشعوب المجرَّدة من السلاح في العالم. ويبدو أن حُكم القانون والعدالة والمساواة هما عملة متداولة داخل الثقافات الغربية فقط. أمّا في مجالات الصِّلات العالمية فتُعَدُّ هذه المفرداتُ اصطلاحات غبية حمقاء عديمة الفائدة، لا يأخذ بها جدِّيًا إلا البسطاء السذّج من الناس.

إن السياسات العالمية الدولية والدبلوماسية والصِّلات الاقتصادية لا تَعرِف من العدل إلا ما يَخدم مصالحها القومية. والقيم المسيحية مهما كانت جميلة لا يُسمح لها أن تجتاز حدودها لتمتد إلى نطاق هيمنة سياسات واقتصاد الغرب. إن هذا هو أكثر التناقضات مأساويةً في هذه الأزمنة الحديثة!

عندما يصل الأمر إلى الصورة التي تُعرض بها المسيحية، فإنها تُعرض فقط بشكل الثقافة والحضارة الغربيتين الجذابتين اللتين تدعوان عالم الشرق إلى حياة الراحة والإباحية، الخالية من الهم بالمقارنة مع الأنظمة الصارمة عمومًا لمجتمعاتهم الدينية المتخلفة.

إن رسالة التحرر هذه تُفهم خطأً بشكل كبير، من قِبل الجماهير نصف المتعلمة للعالم الثالث، فيعتقدون أنها شيء جذاب جدًّا. أضف إلى هذا، الميزة النفسية الإضافية المتعلقة بالشعور بالانتساب إلى العالم المتقدم من خلال عمومية الاشتراك بالدين، ثم عندئذ يبدأ المرء بتمييز الدَّور الحقيقي للمسيحية في جذب أعداد كبيرة من المقهورين من الناس، وفي حالات كثيرة المنبوذين والمضطهَدين الذين هم من أدنى درجات مجتمعاتهم. إنه يصعب على مَداركهم أن يفهموا العقيدة المسيحية، وهي تبدو وكأنها فقط ترفع من أوضاعهم الإنسانية، ولكن بشكل زائف!

يجب أن يكون قد صار واضحًا – مما بيّنّاه آنفا – أن المسيحية، التي نتحدث عنها، هي غاية في البعد عن مسيحية المسيح عيسى. إنه لَخطأ مبين أن نفهم أن الثقافة الغربية هي المسيحية. وأن ننسب الأشكال السائدة للمسيحية – في مجالاتها المختلفة – إلى المسيح؛ إنما هي في الحقيقة إهانة للمسيح عليه السلام. ولكن ثمة – طبعًا – لكل قاعدة استثناء. وليس ثمة رأي قابل للتطبيق كاملاً بشكل مطلق على أية مجموعة ذات أعداد كبيرة. ولا شك في أن هناك عددًا صغيرًا من الجزر الفردية للأمل والحياة في العالم المسيحي، حيث الإخلاص المسيحي والحب والتضحية تُمارَس بشكل أصيل. تلك هي جزر الأمل التي تثور حولها محيطات من انحلال خلقي تنخر حافات تلك الجزر تدريجًا وببطء وتنقصها من أطرافها أكثر فأكثر.

لو أن العالم الغربي لم يتزين بمثل هذه النماذج المضيئة للمسيحية التي تمارَس من خلال روح عيسى المسيح – مهما كانت الفترات بينها بعيدة أو قريبة – فإن ظلمة شاملة كانت ستلفّ الأفق الغربي. ودون المسيحية ليس ثمة نور في الحضارة الغربية، ولكن واحسرتاه فإن ذلك النور أيضًا يخبو بسرعة!

من الضروري، بالنسبة إلى العالم المسيحي، أن يعود إلى حقيقة المسيح وأن يعالج المسيحيون أنفسَهم من شخصيتهم المنفصمة ومن النفاق الملازم لهم. عليهم أن يدركوا أنهم لو استمروا يعيشون في عالم الخرافة والأساطير، فهذا ينطوي على مخاطر عميقة. إن الهدف الرئيس من هذا التوجّه، هو أن يتمّ إيقاظ العالم المسيحي، فينتبه أهله إلى المخاطر الكامنة المترتبة على اختلاف الرؤية التي تزداد اتساعًا بين معتقدهم وممارساتهم. فالأساطير عندهم أمر حسن ما دامت تخدم هدفَ إخضاع الطبقات الأدنى، من مجتمعٍ مّا، إلى الكهنوت، في منظومةٍ تسيطر عليهم، وتستغلّ جهلهم بإبقائهم مخدَّرين نائمين. ولكنّ عندما يصل الأمر إلى المعتقدات التي تلعب دورًا حيويًا في بعث شعب ميت إلى الحياة وإعادة بناء قيمه الأخلاقية المتدهورة، فإن مثل هذه الأساطير لا فائدة منها. هي مجرد خيال، والخيال لا يمكنه أبدًا أن يلعب دورًا مفيدًا في القضايا الإنسانية.

## المجيء الثاني للمسيح عيسى

إن تطبيق الملاحظات التي قمنا بها إلى هنا يمكن أن تتضح الآن. إن المسألة الحيوية للبقاء والخلاص الإنسانيين اليوم تدور حول الصورة المركزية لعيسى المسيح. ولذلك فإن من الهام والأساسي جدًّا أن نفهم حقيقته.

ماذا كان، وأيّ دور لعب في حالته الأولى كمسيح في المجتمع اليهودي المنحلّ؟ وبأية جدّية يمكننا أن نأخذ الوعد بمجيئه الثاني في الأيام الأخيرة؟

هذه هي الأسئلة الحيوية التي يجب أن نعالجها.

فإذا كانت صورة المسيح غير حقيقية، وكانت مجرد نتاج للخيال البشري، فمن المستحيل تصوّر عودته الثانية.

على أية حال، عيسى لم يكن نتاج خيال. كان إنسانًا حقيقيًّا، وبكونه كذلك فقط، يمكن أن يولد – من جديد – كطفل بشري، لا أن يهبط كالشبح ليعود فيزور البشر الفانين. إن مثل هذه الخيالات لا تمت إلى حقائق الحياة البشرية بصلة؛ والناس الذين يعيشون مع الخرافة والأساطير، يستمرون في عيشهم هذا دون أن يكون ثمة فرصة لهم – أبدًا – ليعرفوا فيها مخلّصهم، إذا كان قد جاء، أو عندما يجيء.

إذا كان عيسى حقا ابن الله، كما يريدنا المسيحيون أن نعتقد ونؤمن، إذن سيعود بمجد عظيم، واضعًا يديه على أكتاف ملائكة حقيقيين. ولكن إذا كانت تلك مجرد أساطير رومانسية

من نسج آمال المسيحيين وطموحاتهم؛ فلن يحدث ذلك أبدًا. لن يرى العالم أبدًا هذا الحدَث الغريب لإله ما هابط من السماء بهيئةٍ بشرية مع جيش من الملائكة تسانده وتنشد له ترانيم التمجيد!

إن هذه الفكرة بحدّ ذاتها مرفوضة مستنكَرة لدى المنطق والضمير البشريين!

إنها أعجب قصة أسطورية إطلاقا تمّ اختراعها في الخيال لتثبيط قدرات الناس! ومن ناحية أخرى، إذا ما كان الفهم الأحمدي لعيسى المسيح مقبولاً، فسوف يحلّ محلّ هذا السيناريو الخيالي سيناريو آخر ليس مقبولاً لدى الفهم البشري فحسب بل سيكون مدعومًا أيضًا بقوة التاريخ الديني للجنس البشري بأكمله. في تلك الحالة فإننا سوف نتوقع مخلِّصًا لا يختلف عن المسيح الأول. سنتوقع إنسانًا متواضعًا يولد من أصل متواضع مثل عيسى المسيح الأول، وأن يبدأ ولايته الدينية بالأسلوب السابق نفسه الذي بدأه شبيهه. سوف ينتمي إلى فئة دينية تشبه اليهود في فلسطين، سواء في أخلاقهم أو ظروفهم. وهم لن يرفضوه ويتبرؤوا منه – بسبب دعواه أنه المصلح الموعود الذي كانوا يتوقعونه كمخلّص لهم من عند الله – فحسب، بل إنهم سيبذلون أيضًا كل ما في طاقتهم وإمكانياتهم لإذلاله وإهانته.

سوف يعيش ثانية حياة المسيح، وسيُعامل بالاحتقار والازدراء والكراهية والغطرسة نفسها. وسوف يُعاني ثانية ليس على أيدي

قومه، ولكن على أيدي قوى معادية مشابهة للتي عارضَته سابقًا. وسيعاني أيضًا على أيدي قوة إمبريالية أجنبية متفوقة يكون قد ولِد تحت ظلها ضِمن شعب مستعبد.

كتب (بي دي أوسبينسكي) P.D. Ouspensky - صحفي روسي بارز من أوائل القرن العشرين - حول موضوع عودة المسيح مشاركًا في وجهة النظر هذه تقريبًا فقال:

"إنها ليست أبدًا فكرة جديدة تلك التي تقول إن المسيح إذا ما وُلد على الأرض فيما بعد فإنه لن يكون رأس الكنيسة المسيحية، لا بل ومن المحتمل أيضًا ألا يكون منتميًا إليها مطلقًا، وفي أكثر الفترات إشعاعًا لقوة وقدرة الكنيسة المسيحية سوف يُعلَن بالتأكيد أنه زنديق ويتهمونه بالهرطقة ويُحرق على عمود.

وحتى في أوقاتنا الأكثر استنارة، حين بدأت الكنائس المسيحية بإخفاء ملامح عدائها للمسيحية الحقّة في كل الأحوال - وإن لم تكن قد فقدتها - فإنه سيكون ممكنا عندئذٍ للمسيح أن يعيش دون معاناةِ اضطهاد الكتبة والفريسيين، ربما فقط في مكانٍ ما، في صومعة روسية."[6]

هذا هو الأسلوب الحقيقي الوحيد الذي بُعث به جميع رسل الله والمصلحين. وإن أي مفهوم يخالف هذا هو محض هراء فارغ زائف لا معنى له.

---

[6] A New Model of the Univers, P.D. Ouspensky, p 149-150, Kegan Paul, Trench, Trubener & Co. Ltd, 1938.

يحدث دائمًا في زمنِ تحقّق النبوءات المتعلّقة بمجيء المصلحين السماويين، أن الناس – الذين يُرسَل هؤلاء المصلحون لهدايتهم – يفشلون في معرفتهم.

في تلك الفترة التاريخية يكون الناس قد حَوّلوا صورة مُصلحهم من الحقيقة إلى الخيال. إنهم يبدؤون بتوقّع ظهور كيانٍ خيالي وتحقّقه مادّيًا، في حين أن الذي يحدث هو مجرّد إعادةً للتاريخ الديني، كما نراه حادثا دون أي تغيير منذ زمنِ أول مصلح سماوي.

كان المصلحون يظهرون دائمًا بمظهر بَشر متواضعين يولدون من أمهات بَشر، وكان الناس دائمًا يُعاملونهم أثناء حياتهم على أساس حقيقةِ أنهم بَشر. ثم تبدأ بعد موتهم بزمن طويل عملية الانحراف عن تعاليمهم. وعلى هذا، فإن قبولهم بهدوء وسلاسة أثناء زيارتهم الثانية يكون مستحيلاً.

وعندما يُواجَه مثل هؤلاء المتدينين بحقائق يأتي بها المصلحون السماويون، الذين يظهرون دائمًا كأناس عاديين متواضعين، فإنهم يَرفضونهم تمامًا فورًا وعلنًا. إذ عندما يتوقع المرء ظهور جنّي أو شبح ليتّخذ شكلاً ماديًا أمامه، فكيف له أن يقبل مجيء إنسان بشر عادي بدلاً عنه؟

هذا هو السبب الذي يبيّن فشل العالم في معرفة المجيء الثاني للمسيح عيسى الذي قد حدث فعلاً.

ربما هو زعم كبير، ومن المحتمل أكثر أن يرفضه معظم القراء ببساطة. كيف يمكن لعيسى المسيح أن يكون قد جاء ومضى دون أن يلحظ العالم مجيئه حقًا؟ كيف لم يُلاحَظ مجيئه من قِبل العالَمين المسيحي والإسلامي بأجمعهما؟

لقد شهدت الأزمنة الحديثة الكثير من أمثال هؤلاء الأدعياء الذين أحدثوا زوابع مؤقتة في كثير من الفناجين، ولكن أين هم اليوم؟

إنه عصرٌ نجدُ فيه الطوائف تنتشر بسرعة كبزوغ الفطر في بلاد كثيرة، ونسمع عن مزاعم عجيبة غريبة تتكرر بين حين وآخر بأن المسيح قد عاد، أو أنه قد أَرسل المبشِّرين به.

هذا الزعم ربما يكون واحدًا من تلك المزاعم السابقة. ولماذا يضيّع صاحب تفكير جادّ وقته بأدنى تفكّر أو تأمّل في مثل هذا الزعم؟ سوف يَخلق هذا بالتأكيد شكوكًا جادة، ويؤدّي إلى مواجهةٍ معضلة ومأزق عميقين.

إننا نرجو القارئ أن يتصور حالةً حين يكون المسيح قد جاء فعلاً. فهل تكون عودته مجرد خيال (فانتازيا)، أو أنه يمكن حقًا أن يعود إلى الأرض في شخصه أو من خلال شخص يقوم بدوره ومهمته؟

هذا سؤال لا بدّ من الإجابة عليه، وتقديم حلّ له، لنتمكن من الإجابة على الشكوك المختلفة المذكورة أعلاه.

هل العالم، مسيحيًا كان أم مسلمًا، هو حقًا في حالة نفسية وذهنية تجعله مستعدًّا ومهيّئًا لقبول المجيء الثاني للمسيح؟ إذا كان الأمر كذلك، فبأي شكل وبأية طريقة؟

عندما يُنظر إلى الأمر من وجهة نظر المسلمين والمسيحيين معًا، فإن عيسى – إذا كان سيعود – سيأتي بمجد عظيم وآيات واضحة هابطًا من السماء في وضح النهار مع ملائكة تسانده بحيث يكون من المستحيل حتى لأكثر الناس شكًّا أن يرفضوه.

ومما يبعث على الحزن أن العالم اليوم لا يريد أن يقبل إلا عيسى الخيالي الذي لم يأت مثله من قبل في جميع مراحل التاريخ البشري. وإذا ما أُخذ التاريخ الديني بشكل جاد، فإن المرء ليجد أعدادًا كبيرة من الأمثلة والروايات القائلة بأن مؤسسي الأديان أو رجال الدين الآخرين قد صعدوا إلى السماء بأجسادهم.

هذه المزاعم كثيرة جدًّا، ومنتشرة بشكل واسع، بحيث تبدو أنها نزعة عالمية تدفع بالناس إلى اختلاق مثل هذه القصص، كي يرفعوا من شأن قادتهم الدينيين ويجعلوا منهم بشرًا خارقين. والسؤال هو كيف يمكننا أن نرفض هذه الروايات المنقولة التي هي مقبولة ومعتقدٌ بها ربما من قِبل بلايين الناس في العالم اليوم؟

المسيحيون المسلمون، الذين يؤمنون بهذه المعتقدات وبأحداث عجيبة غيرها، يُعَدّون أكثر من ألفي مليون. إذًا يمكن للقارئ أن يتساءل: بأي حق يمكن لأي واحد منهم، أو حتى لأي واحد

آخر في العالم، أن يرفض جميع هذه المزاعم باعتبارها تخيّلية وغير حقيقية؟

لا شك أن فحص المسألة من هذه الزاوية يتطلب وقفة تأملية للتّمكن من رفضِ مثل هذه المزاعم، باعتبار أنها غير مدعومة بالكتب والنصوص الدينية. وحالما يُقاد المرء إلى هذه المتاهة من التفسيرات الممكنة والبديلة، يتضح له أن المسألةَ مسألةُ تفضيلاتٍ واختيارات شخصية فقط. ثم يصبح ذلك لعبة أيّ شخص ليقومَ بتفسير الكتب الدينية، أو نصوص التاريخ الديني المنقول بصورة حرفية أو مجازية رمزية.

وإن دخولنا في متاهة هذه الأرض الهشّة من التفاسير المتنازعة المتضاربة، لن يخدم أيّ هدف. وعلى ذلك، فإن ثمة منفذًا واحدًا للخروج من هذه الممارسات الأحادية، وهو أن نشرح ونبيّن الحقائق للقراء ثم نَدَعهم وشأنهم فيقبلوا، أو يرفضوا كما يحلو لهم.

دعونا نقبل جدلاً جميع هذه المزاعم – التي تقول بأن القادة الدينيين قد صعدوا إلى السماء صعودًا مادّيًا – على ظاهرها. فإذا تمّت معالجة مسألة رفعِ عيسى بتفكّر سطحي يؤدّي إلى تفسير مجيئه الثاني بشكلٍ حَرفي ومادّي أيضًا، إذن فليس ثمة سبب يجعلنا نرفض حالات أخرى مشابهة في العالم.

لماذا نستثني حالة النبي إيليا، والملك سالم، والأئمة الاثني عشر لدى طائفة الشيعة في الإسلام، أو صعود آلهة الهندوس أو

الرجال المقدسين المشابهين الآخرين وما يسمونهم بتجسيدات إلهية؟!

ولذلك فمن المأمولِ تجنّبُ الدخول في مثل هذه المحاولات العقيمة غير المثمرة مع أولئك الذين يؤمنون بمثل هذه المعتقدات.

يمكن للمرء أن يستعلم من جميع أولئك المؤمنين السذج المصدقين بالخيال، إذا كان بإمكانهم أن يرونا أو يدلونا على حالة واحدة من عودةٍ أو رجوعٍ شخصيٍّ لأولئك الذين يروى أنهم قد اختفوا بالصعودِ إلى أعالي السماوات!

هل يمكن للتاريخ البشري أن يقدِّم مثالاً واحدًا على عودةٍ جسدية لأي شخص إلى العالم، من الذين روي أنهم قد صعدوا بأجسادهم إلى السماء؟!

أرونا – إن وجد – مثالا واحدا فقط!

وبالنظر إلى عدم تحقق مثل هذه المزاعم بصورة حرفية، فإن المرء يجد نفسه أمام خيارين: إما أن يرفض مثل هذه المزاعم باعتبارها اختلاقًا أو محض خيال؛ أو أن يقبلها فقط على أساس أنها رمزية مثلما فعل عيسى ذاته في مسألة المجيء الثاني للنبي إيليا.

وهكذا يتبيّن جليًّا، أن أولئك الذين ينتظرون نزول المسيح عيسى – بالمعنى الحرفي – من السماء، قد أقاموا حاجزًا بين أنفسهم وبين حقيقة عيسى؛ لأنه إذا جاء ثانية، فإنه سوف يأتي مجرّد بَشر، تمامًا مثل جميع المصلحين السماويين المتوقَّعين الذين سبقوه. وإذا ما ظهر اليوم كشخص عادي متواضع، وُلد في

أرضٍ شبيهة بأرض فلسطين وأراده الله أن يقوم بنفس الدور الذي قام به أثناء مجيئه الأول، فهل سيعامله أهل تلك الأرض بغير ما كان قد عومل به من قبل؟

## المسيح الموعود

تلك هي حالة المجيء الثاني للمسيح الذي نُصدّق به. لقد حدث منذ أكثر من مئة عام، أن رجلاً ربّانيًا متواضعًا اسمه ميرزا غلام أحمد القادياني قد أخبره الله تعالى أن عيسى الناصري، ابن مريم، الذي ينتظر المسيحيون والمسلمون على السواء مجيئه الثاني بشكل حرفي، كان نبيًا متميّزا من عند الله تعالى، وتوفاه الله مثل بقية الأنبياء.

لقد أعلن حضرة ميرزا غلام أحمد أن عيسى ليس حيًّا بجسده وأنه لم يُرفع بجسده مطلقًا إلى أيّ فضاء سماوي حتى تُنتظر عودته إلى هذه الأرض. لقد مات مثل جميع أنبياء الله الآخرين، ولم يكن أكثر من نبي. كما أخبره الله تعالى أن المجيء الثاني لعيسى المسيح الذي يعتقد به المسيحيون والمسلمون، كان ينبغي أن يحدث بشكل روحي وليس بشكل حرفي. وعلى هذا فقد أخبره الله أنه، عزّ وجلّ، قد بعثه هو تحقيقًا لتلك النبوءة.

كان ميرزا غلام أحمد ينتمي إلى عائلة نبيلة في البنجاب؛ وكانت اهتمامات عائلته تتركز في الغالب حول بناء ثروةِ ومكانة العائلة، ولكنه أبعدَ نفسَه عن الاهتمامات الدنيوية

وأمضى معظم وقته في عبادة الله والدراسات الدينية. كان رجلاً منسيًا تقريبًا بالنسبة إلى العالم، ولم يكن معروفًا إلا قليلاً حتى في البلدة التي كانت مسقط رأسه[٧]. ثم ابتدأ بالظهور ببطء في الأفق الديني في الهند على أنه البطل المسلم القوي الشجاع المدافع عن دين الإسلام. وأصبح يُعرف بأنه رجل رباني ذو سمعة وشهرة أكسبتاه احترامًا ليس بين المسلمين فقط، بل بين أتباع الديانات الأخرى أيضًا.

بدأ الناس يشهدون فيه رجلاً ربّانيًّا متصلا بالله، مستجاب الدعوات، وأن عنايته واهتمامه المخلص والعميق من أجل البشرية ومعاناة الناس لم يكونا موضع تساؤل.

كان الإسلام – لسوء الحظ – خلال تلك الفترة في الهند في حالة يُرثى لها. وكان هدفًا للمبشرين المسيحيين الذين كانوا يشنّون، بالتنسيق مع ساسة الإمبراطورية البريطانية، حملةَ نقد لاذع، ليس فقط ضدّ التعاليم الإسلامية، بل أيضًا ضدّ شخصٍ المؤسس العظيم للإسلام سيدنا محمد ﷺ.

وأما موقف الهندوس – أصحاب الديانة الهندوسية التي هي الأكثر انتشارًا في الهند – فكان يتمثّل في تشكيل جماعات طامحة بشكل كبير في تحقيق خطة ذات شقين:

– أن تَبعث الثقافة الهندوسية وتؤكد تطبيقها.

---

[٧] وهي مدينة صغيرة في الهند تسمى "قاديان". (المترجم)

- وأن تمحو الإسلام والمسلمين من الهند، معتبرة إيّاهم غرباء لا حقّ لهم في أن يظلوا متجذِّرين في تراب الهند.

وكانت حركة الآريا سماج (إحدى طوائف الهندوس) هي أشد الحركات عدوانية بينهم والتي أسسها في عام ١٨٧٥ "الباندیت سوامي دياناند السارسوتي" (١٨٢٤-١٨٨٣) وربما كان هذا حافزًا آخر لحضرة ميرزا غلام أحمد لأن يبدأ بحثًا ودراسة مكثفَين وعميقين في علوم الأديان المقارَنة للدفاع عن الإسلام.

ولقد زادت دراساته من قوة إيمانه واعتقاده بتفوق تعاليم الإسلام. وتأثّر كثيرًا بأسلوب القرآن الكريم المتميّز في معالجة المشاكل الإنسانية.

اكتشف حضرته أن القرآن، بعد تقديمه منهج السلوك الإنساني، لم يتوقف عند ذلك التعليم بشكل اعتباطي، بل تابعَ تقديم الحجج المنطقية القوية المدعومة بالدليل على أن المنهج الموصوف كان الاختيار الأكثر تلاؤمًا مع سياق الموضوع قيد البحث.

ولقد ساعدته هذه الدراسة أخيرًا على أن يكون بطل الإسلام، إذ لم يكن هنالك من يدافع عنه ذلك الوقت. وهكذا فقد أنجز أكثر المتطلبات تأثيرا للدفاع عن الإسلام في الهند في تلك الفترة.

بدأ حياته بعقد حوارات ومناظرات على مستوى صغير امتد بعد ذلك تدريجيًا إلى دوائر أوسع بكثير. فذاع صيته كأعظم مدافع مقتدر عن الإسلام ونصير رائع له.

في تلك الفترة من حياته بدأ بتأليفِ واحدٍ من أعظم الكتب الدينية التي كتبها. هذا الكتاب "البراهين الأحمدية" كان من المخطَّط له أن يُنشر في خمسين جزءا، ولكنه استطاع أن يَنشر منها الأجزاء الخمسة الأولى فقط. وذلك لأن الظروف القاهرة الخارجة عن سيطرته لم تسمح له بمواصلة ذلك العمل العلمي حتى نهايته؛ غير أنه قام بتأليف كتب كثيرة أخرى استجابة لمتطلبات الوقت.

غطّت كتبه تقريبًا كامل الموضوع الذي كان عازمًا في الأصل على متابعته وزاد عليه أكثر بكثير. لقد عمل في الحقيقة أكثر بكثير مما وعد بتحقيقه، ولو لم يكن ذلك تحت العنوان ذاته.

ومن المدهش حقًا أنه كيف استطاع إنتاج هذا الحجم الكبير من الكتب بيده وحده تقريبا دون مساعدة تُذكر من قبيل النسخ والكتابة.

بلغت الكتب والرسائل والبحوث التي ألّفها زهاء مئة وعشرة من المؤلَّفات. و لم تكن أعماله الكتابية فقط هي التي أكسبته تلك الشهرة الواسعة في شبه القارة الهندية بأكملها، بل إن خصائصه الروحية قد لعبت أيضًا دورًا هاما في إكسابه شهرة واحترامًا كبيرين على نطاق واسع.

في هذا الفجر من شهرته الناهضة المتوسعة، كلِّف من الله ﷻ بأن يحمل المسؤولية الخطيرة والكبيرة كمصلح ديني سماوي في الأيام الأخيرة، كما يتوقّع وينتظر جميع أديان العالم تقريبًا.

كان من وجهة نظر المسلمين، هو المهدي المنتظر؛ ومن وجهة نظر المسيحيين والمسلمين كان قد بُعث في مكانة المسيح الموعود ليحقق النبوءات المتعلقة بالمجيء الثاني للمسيح عيسى. وعلى أية حال، فقد كلّفته هذه المهمة خسارةَ كل الشهرة والشعبية اللتين كان قد كسبهما مسبقًا.

لقد خذلَ الناسُ حضرةَ ميرزا غلام أحمد – المصلح السماوي لهذا العصر والزمان – سريعًا، فلم يرفضه أتباع الديانات الأخرى فحسب، بل قد رُفِض بقوة أكبر وحماس أشدّ من قِبل مسلمي الهند أنفسهم – القوم الذين كان يسعى هو للدفاع عن قضيتهم بحماس وتحدٍّ شديدين.

وكان ذلك من الناحية العملية ميلادًا جديدًا بالنسبة إليه. وكما جاء إلى العالم وحيدًا، فهكذا كان عليه أن يبدأ حياةً جديدة كرجل وحيد في عالم الدين، مهجورًا من جميع من حوله، ولكن الله لم يتخلّ عنه.

كان الله عزّ وجلّ يؤكِّد له عونه ودعمه من خلال وحيٍ وإلهامات مختلفة تلقاها خلال فترة العداء الشديد، منها:

"جاء نذير في الدنيا، فأنكروه أهلها وما قبلوه، ولكن الله يقبله، ويظهر صدقه بصول قويّ شديد صول بعد صول."

وفي وقت آخر أوحى الله إليه :

"سأُبلِّغ دعوتَك إلى أقاصي الأرض."

ذلك من بعض ما أوحي إليه في زمنٍ مبكر من دعوته خلال فترة هجره ورفضه المطلق التي عاناها على أيدي معارضيه.

مرّ منذ ذلك الوقت الآن أكثر من مئة عام، والصورة التي برزت ببطء، ولكن بثبات، تدعم وتؤكد حقيقة دعواه ونبوءاته ووحي الله إليه.

لقد نما هذا الرجل الواحد إلى عشرة ملايين مصدّقٍ من جميع أنحاء العالم في ١٤٣ دولة منتشرة في القارات الخمس[8]، ووصلت دعوته إلى أقاصي الأرض، من أقصى الغرب إلى أنأى بلاد الشرق، وقد قُبل على أنه الإمام المهدي المنتظر والمسيح الموعود بمجيئه الثاني في الأمريكيتين وأوروبا وأفريقيا وآسيا حتى في الجزر النائية في جنوب شرقي المحيط الهادئ مثل جزر فيجي وتوفالو وجزر سليمان إلخ.. ومع هذا فإن أفضل ما يمكن أن يوصف به أتباعُه هو أنهم بِركة ماء صغيرة من حيث الحجم بالمقارنة مع البحر الواسع للعالم المسيحي، وهي لذلك قد لا تبدو جديرة بالاهتمام لمن لا تعنيه الحقائق السماوية الموعودة.

إن ذكر منجزات جماعة حضرة ميرزا غلام أحمد يتطلّب سجلاً طويلاً جدًّا بالنظر إلى المساحة الصغيرة المتاحة هنا. ولكن

[8] أما الآن (في عام ٢٠٠٥)، فقد أصبح هذا العدد يزيد على ١٦٠ مليونًا في ١٧٨ دولة في العالم. (المترجم)

من الجوهري جدًّا ملاحظة أنه ليس ثمة حركة دينية سواها في الأزمنة الحديثة قد تقدمت وانتشرت بهذه السرعة وبمثل هذا الخطو الثابت.

إنها ليست دينًا جديدًا، كما أنها ليست بدعة، بل هي رسالة جادة ومهمة صعبة تتطلب جهودًا جبّارة عظيمة وتهذيبًا وتدريبًا كبيرين من قِبل أولئك الذين يخاطرون في اتّباعها.

إن الذين يتّبعونها يقبلون مسؤوليات جادّة جسيمة وخطيرة يتحتّم عليهم تنفيذها طوال عمرهم. إنهم تقريبًا في وضعٍ صارم قاس مثلما كان الوضع في المجتمع البدائي الأول.

إن قبول دعوى حضرة ميرزا غلام أحمد على أنه المسيح الموعود، ليس قبولاً حماسيا لخيال رومانسي عابر، ولكنه التزام مدى الحياة. إن الذين يدخلون في جماعته عليهم أن ينكروا ويرفضوا اللهو والمتع العابثة في حياتهم، ولكن ليس بأسلوب الزاهدين المتقشّفين والمتنسّكين في صوامعهم، ولكن بقناعةٍ عميقة بالالتزام وبرضى وسرورِ القلب الذي يمكّنهم من التضحية والثبات في سبيل دعوتهم إلى أعلى درجات الامتياز.

لقد صنع ميرزا غلام أحمد جماعةً عالمية واسعة ليس لها مثيل في التضحيات والتبرعات المادية. حيث يُلزِم جميعُ أعضاء الجماعة من ذوي الدخل أنفسَهم بأن يدفعوا على الأقل نسبة ١/١٦ من دخلهم في سبيل الهدف النبيل للجماعة. إن روح التبرعات الطوعية وكمية الجهد التطوعي الذي تبذله هذه الجماعة عبر

العالم كلّه لهو يحيّر العقول. وبالإضافة إلى ذلك فإن تنفيذ كلّ هذا يتمّ دون إكراه من أيّ نوع. إذ إن الذين يستطيعون المشاركة بحصّتهم من التبرع بالجهد والمال، يعتبرون أنفَسهم محظوظين لقدرتهم على فعل ذلك.

إنها جماعة مستقلة تعتمد تمامًا في مشاريعها المالية على مساهمات أفرادها فقط. وإن هذا النظام العالمي للمساهمة المالية الطوعية ما يزال يُمارس، منذ مئة سنة، بنقاءٍ عظيم وكمالات أخلاقية هائلة. وهنا يكمن سرّ نجاح هذه الجماعة في الحفاظ على استقلالها من التأثيرات الخارجية لمدة ما يزيد على قرن كامل.

وعلى كل حال فإن تلك زاوية واحدة فقط من الملاحظة. ولكن إذا ما نظرنا إلى نوعية أتباعه من زوايا أخرى، فإن المشهد يزداد سحرًا وروعة. إنها الجماعة التي تقف مؤكِّدة تعايشها وتعاونها الأخلاقي والسلمي وتبرهن على ذلك بسلوكها وممارستها وكذلك بحبها المشترك والاحترام العميق للقيم الإنسانية. إنها جماعة دينية يُعجب بها العالم بشكلٍ كبير لاحترامها القوانين والصِّلات البشرية الأخلاقية المهذّبة بغضّ النظر عن الدِّين واللون والعرق البشري.

ربما يبدو بالنسبة إلى القارئ أننا قد خرجنا عن موضوعِ بحثنا. ولكن اسمحوا لنا من فضلكم أن نشير إلى أننا مازلنا في صلب

الموضوع. وذلك لأن هذا البحث يمكن أن يُفهم أكثر على ضوء القول الشهير لعيسى المسيح:

"لتكن الشجرة جيدة، فتنتج ثمرا جيدا؛ ولتكن الشجرة رديئة، فتنتج ثمرا رديئا! فمن الثمر تعرف الشجرة". (متى ١٢:٣٣)

وإذا كان ثمة من يهتم اليوم بالتحقق من مصداقية دعوى حضرة ميرزا غلام أحمد، فإن هذا هو أفضل معيار وأحسن ما يُعتمد عليه. بناء على هذا المعيار يُمكن الحكم فيما إذا كان هو فعلاً وحقًا المسيح الموعود الذي كان قد تم التنبؤ بمجيئه أم لا؟ ليس فقط من قِبل المسيح عيسى نفسه، ولكن من قِبل مؤسس الإسلام العظيم محمد ﷺ أيضًا. فإن اكتشاف نوعية الأتباع الذين استطاع حضرته أن يصنع، وماذا فَعَلَ مرور قرنٍ من الزمان بهم، سيعود بمعلومات مفيدة ومجزية حقًا.

وثمة سؤال يبرز هنا أيضًا: هل عومل أتباع حضرة ميرزا غلام أحمد من قِبل أبناء عصرهم بطريقة مشابهة للمعاملة التي قوبل بها أتباع المسيح عيسى في القرن الأول من المسيحية؟

ويجب أن يبرز سؤال أيضًا يتعلّق بموقف الله منه حيال المؤامرات الكثيرة التي دُبّرت من أجل إنهائه وإفنائه وإزالته من الوجود هو وجماعته؟ هل كان موقف الله مع أو ضد هذه الجماعة المستهدفة؟ وهل لاقى أتباعُ حضرة ميرزا غلام أحمد من عند الله تأييدًا قويًّا في جميع المواقف الصعبة كما أيّد الله تعالى المسيحيين الأوائل؟

إذا كانوا، كلما طُحنوا في طاحونة الاضطهاد، يظهرون في الطرف الآخر أعظمَ شأنًا وأشدّ قوة وأكثر احترامًا، بدلاً من أن يَنسحقوا، فلا يمكن عندئذ أن يُنظر إلى دعوى مثل هذا الداعي باستهانة واستصغار. فهي لا يمكن أن تكون أبدًا دعوى مجنون، ولا يمكن أن تكون مجرد بيتِ العنكبوت من صنع خيال رجل يحلم في يقظته.

لقد صارت الأحمدية حقيقة واقعية تؤخذ بشكل جاد على أفق أوسع بكثير مما قُبلت به المسيحية عند نهاية القرن الأول.

هناك قضية مسيحٍ كان حقيقة تاريخية وليس نتاج قصص خيالية، وهنا أيضًا قضية مسيح كانت عودته واقعية مثلما كان ظهوره الأول، كإمامٍ روحي مبعوث من عند الله تعالى.

الأمر بأكمله يعود إلى أهل هذا العصر في أن يختاروا العيش باستمرار في عالم الأساطير والخيال، وأن يظلوا منتظرين إلى الأبد المصلحين الموعودين الخاصين بأديانهم وطوائفهم، أو أن يقبلوا الحقائق الواقعية لهذه الحياة.

يجب علينا الاتفاق على شيء واحد، وهو أن الناس قد تخيّلوا من عند أنفسهم أن الكثير من الأئمة والقادة الدينيين قد رُفعوا إلى السماء لينتظروا في مكان ما في الفضاء حتى يحين موعد نزولهم للأرض مرةً أخرى. فلماذا على المرء أن يقبل واحدًا فقط من هذه المزاعم المذكورة آنفا ويرفض الأخرى على اعتبار أنها مجرد مزاعم دون أيّ برهان إيجابي علمي يدعم مصداقيتها؟! ومن

هنا فإنه ليس ثمة خيار إلا أن نقبلها جميعًا أو أن نرفضها جميعًا. هذا سيكون الطريق النـــزيه العادل الوحيد.

على كل حال ثمة أمر حقيقي ومؤكد أن أولئك الرجال، منذ أن رحلوا من حياتهم على الأرض، بغضِّ النظر عن الطريقة التي آمن بها أتباعهم أنهم رحلوا بها، فإنه لم يُسجّل قطّ في التاريخ البشري كله أنه قد عاد أي واحد منهم إلى الأرض ثانية. وثمة أمر آخر مؤكد تمامًا أيضا، وهو أن جميع مثل هؤلاء القادة السماويين والروحيين الذين رُفعوا إلى مرتبة الآلهة أو شركاء الآلهة، قد بدؤوا حياتهم كبشر عاديين متواضعين وعاشوا حياة البشر حتى موتهم. والذي حدث هو أن أتباعهم هم الذين حوّلوهم إلى آلهة. ولكن تذكروا أنه لا أحد منهم قد لعب أيّ دور في تصريف مقادير الطبيعة!

لقد كانت ثمة يد واحدة فقط هي التي تَبيّنَ أنها كانت تحكم قوانين الطبيعة دائمًا.

إن مرآة السماوات وقوانين الطبيعة في كلِّ مستوى تعكس وجه إله واحد.. إله واحد فقط ولا إله سواه. يقول القرآن الكريم:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾(مريم ٨٩-٩٣).

# الخـــاتمـــة

وفيما يتعلق بالبحث والاستقصاء، فإننا نأمل أن نكون قد أدينا واجبنا بصورةٍ وافية. ولكن قبل أن نترك البحث هنا نريد أن نُوجه دعوة مخلصة إلى العالم المسيحي، وهي أن يَنـــزل المسيحيون من بُرجهم العاجي من العقائد المصطنعة، وأن يدرِكوا الحقائق الواقعية للحياة.

كان عيسى المسيح إنسانا كاملا في سياق زمنه، ولم يكن أكثر من إنسان. لقد وصل إلى أعلى ما قدّر الله له أن يصل إليه كرسول خاصّ مميز من عند الله باسم المسيح، الأمر الذي جعله متميزًا بين جميع الأنبياء منذ زمن موسى إلى زمن مجيئه هو.

لقد كلِّف كل نبي بمهمة صعبة حقًا. كان عليهم إصلاح أُناس قد صاروا أشرارًا تمامًا. غير أن مهمة عيسى كانت أصعب، إذ لم يكن عليه محاربة الشرور الشائعة في المجتمع فحسب، بل كان عليه – بالإضافة إلى ذلك – إحداث تغيّر جذري وثوري في موقف الشعب اليهودي.

وكما يحدث في حالة أتباع كل دين، فإنهم مع مرور الزمان ينحرفون تدريجًا عن الحقيقة فيتيهون في فلوات الأخطاء والآثام. وهذا بالضبط ما حدث في حالة الشعب اليهودي. إذ كانوا قد تحوّلوا – في زمن مجيء المسيح – وصاروا من الناحية الواقعية أمواتًا روحيًا. وكان ماء الحياة السماوية قد أصبح غورًا لديهم ونفدَ تاركًا وراءه قلوبًا متحجرة ميتة.

وكانت المهمة التي كلَّف الله بها عيسى هي أن يحوّل اليهود مرة ثانية إلى بشر أحياء ذوي قلوب حية نابضة، وأن يُفجّر فيهم ينابيع اللطف البشري. تلك كانت معجزة عيسى التي أنجزها؛ وفي ذلك كانت تكمن عظمته.

الآن، والعالَمان الإسلامي والمسيحي ينتظران معًا المجيء الثاني للمسيح عيسى، عليهما ألا ينسيا أن عيسى الموعود لا بد أن يكون هو عيسى الأول نفسه من ناحية الأسلوب والمهمة. ولكن كان على هذا المسيح، بحسب نبوءات مؤسس الإسلام حضرة سيدنا محمد ﷺ، أن يَظهر في مجيئه الثاني ليس في عالم المسيحية بل في عالم الإسلام، وأن المعجزة العظيمة التي كان عليه أن يأتي بها، هي ذاتها التي تمّت على يد عيسى من قبل؛ ولكن في هذه المرة كان عليه إصلاح قلوب مسلمي الزمن الأخير.

هذا الفهم، لمجيئه الثاني، تؤيده – بقوة – نبوءاتٌ أخرى لرسول الله محمد ﷺ. فقد تنبأ بأن حال المسلمين، في الأيام الأخيرة، ستكون مشابهة تمامًا لحال اليهود خلال فترة انحلالهم وتفسّخهم، حذو النعل بالنعل.

فإذا كان المرض هو ذاته، فإن العلاج يجب أن يكون هو ذاته أيضًا. كان على المسيح أن يعود إلى العالم بالأسلوب المتواضع نفسه، ليس في شخصه ولكن في روحه وشخصيته، وهذا بالضبط ما قد حدث وحصل.

إن هؤلاء الأشخاص السماويين الثوريين يولدون دائمًا بشَرًا عاديين، متواضعين وغير مهمين ويعيشون حياة التواضع. وهم يزورون الأرض ثانية بشكل روحي بالأسلوب نفسه تمامًا، ويُعامَلون أيضًا بالإهمال نفسه والبرودة والأذى، والعداء المتعصب. وهم لا يُميَّزون بسهولة أبدًا على أنهم الممثلون الحقيقيون للذين قد تم الوعد بمجيئهم.

إن ما حدث للمسيح في ظهوره الأول على أيدي اليهود، كان مقدّرًا أن يحدث له ثانية أيضا، ولكن هذه المرة على أيدي المسلمين والمسيحيين الذين كانوا يتوقعون عودته.

إن التوقعات المشوَّهة ذاتها وغير الحقيقية المتعلقة بالطريقة التي سيعود فيها إلى الأرض، والأهداف التخيّلية نفسها التي كان يُتوقع منه أن يُتابعها؛ ووجهات النظر ذاتها غير الواقعية لأدائه ولإنجازاته على الأرض كما كانت قد عُرضت من قِبل الشعب اليهودي في زمن عيسى المسيح، كان لا بدّ أن يعيدها ويكررها المسلمون أثناء مجيئه الثاني.

وبهذا الشكل فقد كان التاريخ يعيد نفسه.

وناظرين إلى الوراء الآن، يجد المرء نفسه في موضع أفضل كي يفهم فشل اليهود في معرفة مسيحهم. ويُمكننا نحن أن نفهم بسهولة مشكلتهم الصعبة، وأن نأخذ من مأساتهم درسًا وهو أن فهمهم الحرفي لكتبهم قد ضللهم.

قد ناقشنا ذلك كله مسبقًا، ولكننا نشير هنا ثانية إلى هذه المسألة تأكيدًا على أهميتها.

يحدث دائمًا في تاريخ المصلحين الدينيين المنتظَرين، أن الناس الذين ينتظرونهم يفشلون في معرفتهم عند مجيئهم في أغلب الأحيان، لأن علامات مجيئهم تُقرأ وتُفهم خطأ. فالحقائق تُجعل أساطير! والمجازات تؤخذ على حرفيتها!

ولقد تم تقريبًا تكرار القصة نفسها في زمن المجيء الثاني للمسيح الموعود الذي هو حضرة ميرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام ؛ فاليهود كانوا ينتظرون النـــزول الموعود للنبي إلياس من السماء في زمن المسيح، وكذلك في هذا الزمان، فإن شخصًا ما أيضًا ما زال هبوطه متوقعا بجسده من السماء، ولكن هذه المرة هو المسيح ذاته.

كان اليهود يتوقعون المسيح أن يأتي في مكلَّلا بالمجد، وكانوا يتوقعونه أن يأخذهم إلى عهد جديد من سيطرتهم وهيمنتهم وظهورهم وتفوقهم على أسيادهم الرومان. ولكن المسيح الناصري قد حطّم بمجيئه تلك التوقعات؛ حين ظهر أخيرًا بصورة بعيدة جدًّا عن الصورة التي توقّع اليهود مجيئه فيها كمسيح كانوا ينتظرونه. تلك الصورة التي كانوا يتمسكون بها بعزة وشدة على مدى قرون طويلة.

إن أحداثًا مشابهة بشكل صاعق حدثت عند مجيء المسيح الموعود في شخص حضرة ميرزا غلام أحمد القادياني. إن الدور

الذي لعبه خصومه هو ذاته – الأسماء فقط هي التي اختلفت. فقد قام المسلمون والمسيحيون على السواء وتبنّوا دَور اليهود زمن عيسى. الاعتراضات هي ذاتها، ومنطق الاعتراضات هو ذاته. ومع ذلك فإن الله تعالى قد عامل هذا الرجل المتواضع حتى بآيات أعظم مما أظهر لتأييد ونُصرة مسيح العصر السابق؛ وساعده في نشر رسالته بسرعة أكبر وفي أعداد أعظم بكثير من حيث عدد البلاد وفي جميع قارات العالم.

تلك هي الحقائق التي تتكلم عن نفسها، ولكن فقط لأولئك الذين يسمعون.

تلك هي الحقائق التي تتضح وتسطع مع مرور الوقت أكثر فأكثر، ولكن فقط بالنسبة إلى أولئك الذين يهمهم أن يُشاهدوا.

إن روح رسالة المسيح لا تختلف في سياق المواقف المعاصرة للمسلمين والمسيحيين. ولكن سيفهَم فقط أولئك الذين لا يُغمضون عيونهم عنها.

دعونا في النهاية نذكّر المسيحيين والمسلمين – الذين ينتظرون عودة ظهور المسيح منذ عدة قرون – بالكلمات التي تنبّأ بها حضرة ميرزا غلام أحمد القادياني عليه السلام المسيح المبعوث من الله في الأيام الأخيرة حيث يقول:

"اعلموا جيدًا أنه لن ينزل من السماء أحدٌ. إن جميع معارضينا الموجودين اليوم سوف يموتون، ولكن لن يرى أحد منهم عيسى بن مريم نازلاً من السماء أبدًا، ثم يموت أولادهم

الـــذين يخلفونهم، ولكن لن يرى أحد منهم أيضًا عيسى بن مريم نازلاً من السماء، ثم يموت أولاد أولادهم، ولكنهم أيضًا لن يروا ابـــن مريم نازلاً من السماء. وعندئذ سوف يُلقي الله في قلوبهم القلقَ، فيفكرون أن أيام غلبة الصليب قد انقضت، وأن العالم قد تغيَّر تمامًا، ولكن عيسى بن مريم لم ينـــزل بعد؛ فحينئذ سوف يتنفّـــر العقلاء من هذه العقيدة دفعةً واحدة، ولن ينتهي القرن الثالث من هذا اليوم إلا ويستولي اليأسُ والقنوط الشديدان على كـــل من ينتظر عيسى بن مريم، سواء كان مسلمًا أو مسيحيًّا، فيرفضـــون هـــذه العقيدة الباطلة." (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية ج ٢٠، ص ٦٧)

لذلك يمكنكم أن تنتظروا حتى يولد جيل جديد، وهم سوف ينتظرون حتى يُفنوا أعمارهم ويأتي بعدهم جيل جديد. وربما تستمر حالة الانتظار هذه حتى نهاية الزمان، غير أن مسيحًا ما لن يهبط بجسده من السماء.

وعلى كل حال، فإن أولئك الذين يحلمون بأن عيسى نفسه هو سوف يعود شخصيًا لن يروا حلمهم يتحقق أبدًا. ولربما يبنون لأنفسهم حائط مبكى آخر، كما فعل اليهود منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة. ويمكنهم أن يضربوا رؤوسهم بهذا الحائط، ولكن سوف يحدث معهم أيضًا ما حدث مع اليهود. فهم لن يروا مسيحًا هابطًا من السماء رغم بكائهم وعذابهم جيلاً بعد

جيل. ولن تُنجِز لهم توقعاتهم المستقبلية عن المسيح شيئًا إلا فراغًا وخواءً لا ينتهيان.

إنه لانتظار قاحل عقيم حقًا!

وأما بالنسبة إلى المسيحيين الذين يعتقدون جدِّيا بأن المسيح هو ابن الله بالمعنى الحرفي فاسمحوا لنا أن نُنهي هذا البحث والنقاش بهذه الكلمات المُنذِرة من القرآن الكريم التي تتحدث عن الهدف من بعثة الرسول الكريم محمد ﷺ، يقول الله ﷻ: ﴿ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ (الكهف ٥ - ٦).

# ملحق رقم (١)

من كتاب المسيح الناصري في الهند لحضرة ميرزا غلام أحمد القادياني ص ٥٦-٥٧:

* فهرس الكتب الطّبية التي تتضمّن ذكر "مرهم عيسى" وأنه قد أُعدّ لمعالجة الجروح الجسدية التي أصابت حضرة عيسى عليه السلام:

"القانون" للشيخ الرئيس أبي علي بن سينا - المجلّد الثالث ص ١٣٣

"شرح القانون" للعلاّمة قطب الدين الشيرازي - المجلّد ٣

"كامل الصناعة" لعليّ بن العباس المجوسي - المجلّد ٢ ص٦٠٢

"مجموعة البقائي" لمحمود محمّد إسماعيل الملقّب بمحمد بقاخان - المجلّد ٢ ص ٤٩٧

"تذكرة أولي الألباب" للشيخ داود الضرير الأنطاكي - ص ٣٠٣

"أقراباذين✪ الرومي"، أُلِّف بعد عصر المسيح بقليل، ونُقل إلى العربية في عهد المأمون بن هارون الرشيد - بحث أمراض الجلد

✪ القَرابادين أو القَراباذين أو الأَقْرَباذين أو الأَقْراباذين هو علمُ مصادر الأدوية وخصائصها وتحضيرها، ويسمَّى بالإنجليزية PHARMACOPOEIA وأيضًا MATERIAMEDICA. (المترجم)

"عمدة المحتاج" لأحمد بن حسن الرشيدي الحكيم، وهذا الكتاب مأخوذ من أكثر من مائة كتاب فرنسي مشتمل على الأدوية ومنها "مرهم عيسى"

"أقراباذين الفارسي" للطبيب محمد أكبر الأرزاني – أمراض الجلد

"شفاء الأسقام" – المجلّد ٢ ص ٢٣٠

"مرآة الشفاء" للطبيب "نتهو شاه" – (نسخة مخطوطة) أمراض الجلد

"ذخيرة خوارزم شاهي" – أمراض الجلد

"شرح القانون" للجيلاني – المجلّد ٣

"شرح القانون" للقرشي – المجلّد ٣

"أقراباذين" لعلوي خان – أمراض الجلد

"علاج الأمراض" للطبيب محمد شريف خان – ص ٨٩٣

"أقراباذين" يوناني – أمراض الجلد

"تحفة المؤمنين على حاشية مخزن الأدوية" – ص٧١٣

"المحيط في الطب" – ص٣٦٧

"إكسير أعظم" للطبيب محمد أعظم خان الملقّب بناظم جهان؛ الجزء الرابع – ص٣٣١

"أقراباذين معصومي" للمعصوم بن كريم الدين الشوستري الشيرازي

"عُجالة نافعة" لمحمد شريف الدهلوي – ص ٤١٠

"طب شبري" المسمّى بـــ "لوامع شبرية" للسيد حسين شبر الكاظمي – ص ٤٧١

"مخزن سليماني" ترجمة إكسير عربي – ص ٥٩٩، المترجم محمد شمس الدين البهاولفوري

"شفاء الأمراض" ترجمة الطبيب الأستاذ محمد نور كريم – ص ٢٨٢

"كتاب الطب" دارا شكوهي لنور الدين محمد عبد الحكيم عين الملك الشيرازي – ص ٣٦٠

"منهاج الدّكان بدستور الأعيان في أعمال وتركيب المنافع للأبدان" تأليف أفلاطون الدّهر ورئيس الأوان أبو المنى داود بن أبي نصر، العطَّار الإسرائيلي الهاروني (اليهودي) – ص ٨٦

"زبدة الطّب" للإمام أبي إبراهيم إسماعيل بن حسن الحسيني الجرجاني – ص ١٨٢

"طب أكبر" لمحمد أكبر الأرزاني – ص ٢٤٢

"ميزان الطب" لمحمد أكبر الأرزاني – ص ١٥٢

"سديدي" لرئيس المتكلّمين إمام المحققين السديد الكاذروني – المجلّد ٢ ص ٢٨٣

"الحادي الكبير" لابن زكريا – أمراض الجلد

"أقراباذين" ابن تلميذ – أمراض الجلد

"أقراباذين" ابن أبي صادق – أمراض الجلد

* ويُرجى الانتباه إلى أن عدد الكتب الموثوق بها التي سجّلت حقيقة وجود مرهم عيسى وصفاته تزيد عن ألف كتاب.

# ملحق رقم (٢)

PARTHENOGENESIS، البارثينوجينيسيس، أي الولادة العذرية أو التوالد العذري وهو تحوُّل البيضة إلى جنين دونما تلقيح بواسطة الحيوان المنوي للذكر.

التوالد العذري أمر شائع جدًّا في عالم الحشرات والسمك، وهو أمر روتيني في حيوانات مثل حشرات المنّ. وثمة دليل قوي بين الزواحف يشير إلى أن التوالد العذري يمكن أن يحدث بنجاح في السحالي التي تعيش في مناطق يقل أو يندر فيها نزول المطر[1].

وفي مجلة LANCET عدد عام ١٩٥٥ ورد تقرير يقول إن امرأة قد أنجبت بنتًا بحيث ما كان بالإمكان إطلاقا أن يُرفض دور التوالد العذري في ولادتها. ولقد ثبت ذلك في الثدييات من خلال التجارب المخبرية أيضا. ولكن ليس ثمة سجل معين يثبت ولادات عذرية في الثدييات. وإن أكثر ما قد تمّ إنجازه هو أن ولادة عذرية لأجنّة الفئران والأرانب قد نمت بشكل طبيعي إلى منتصف فترة الحمل ولكنها ماتت بعد ذلك وأجهضت.

وأما فيما يتعلّق بالبشر، فقد أجريتْ مؤخرا دراسة بحثية مستفيضة حول: "التطور والدراسة التصنيفية النظامية للتنشيط المتعلق بالتوالد العذري والتطور المبكر للبويضة البشرية"[2]. في

[1] "GENETICS": 1991 SEPT. 129(1): 211-9

[2] FERTILITY - STERILITY - 1991 NOV; 56(5):904-12

هذه الدراسة تم تعريض بويضة بشرية قبل النضج – وهي مأخوذة طازجة وغير ملقحة بعد تعريضها إلى الحيوانات المنوية – ثم تم تعريضها إلى الكحول أو الكالسيوم أينوفور، وتم فحصها بحثًا عن دليل يثبت تنشيطها. وقد كانت نتيجة هذه الدراسة هي أن البويضة البشرية قبل النضج يمكن تنشيطها للتوالد العذري باستخدام الكالسيوم أينوفور ولكن بمعدلات أقل مما تمت ملاحظته في بويضة الفأر. وتستطيع البويضة البشرية أن تنقسم وتصل إلى مرحلة الـــ ٨ خلايا. وإن المعطيات لتشير إلى أن بعض الإجهاضات المبكرة في الحمل البشري، يمكن أن تكون بسبب أن البويضة قد تنشطت بالتوالد العذري بشكل تلقائي.

ولقد ورد تقرير عن حالة جزئية بشرية للتوالد العذري في مجلة "العالِم الجديد" لعدد ٧ أكتوبر/تشرين الأول من عام ١٩٩٥م تحت عنوان: "الولد الذي لا أب لدمه!"[٣]

في حالة الذكور، جميع الخلايا يجب أن تحتوي على الكروموسوم Y، ولكن في حالة الدراسة الخاصة هذه والمتعلقة بولد عمره ثلاث سنوات، فقد وجد أن الخلايا الدم البيضاء كانت تحتوي على الكروموسومات XX فقط. ويبين التقرير أيضًا أنه يحدث في بعض الأحيان أن تحمل الكروموسومات الأنثوية كروموسوما X واحدا محتويًا على الجينات الذكرية.

[٣] هذا التقرير يتعلق ببحث قام به العالِم دافيد بونثورن، وهو موجود في مجلة "جينات الطبيعة" عدد أكتوبر/تشرين الأول لعام ١٩٩٥.

ويتضح من التقرير أن الباحثين قد افترضوا أوّلاً أن هذه التجربة كانت مثالاً لهذا التناذر (أي مجموعة أعراض مرضية تظهر معًا). ولكنهم عندما استخدموا تقنية الـــ DNA الفائقة الحساسية لم يجدوا مادة أي كروموسوم Y في الخلايا البيضاء في دم هذا الولد. وعلى كل حال فقد وُجد أن بشرة الولد كانت مختلفة من الناحية الجينية عن دمه، حيث وُجد فيها كلا الكروموسومَين الـــ X والـــ Y.

ولقد كشف تحليلٌ أكثر تفصيلاً للكروموسومات X في بشرة الولد ودمه أن جميع كروموسومات الـــ X لديه كانت متطابقة في الصفات ومشتقة بأكملها من أمّه. وبالمثل فإن كلا العنصرين من كلّ من الـــ ٢٢ زوجًا من الكروموسومات الأخرى في دمه كانت متطابقة أيضًا وهي مشتقة بأكملها من الأم.

التفسير الذي قدمه الباحثون لهذه الظاهرة هو أن البويضة غير المخصبة قد نشطت وبدأت بالانقسام إلى خلايا متطابقة. وقد تم بعد ذلك إخصاب واحدة من هذه الخلايا بحيوان منوي من الأب وبدأ المزيج الخلوي الناتج بالتطور كجنين طبيعي.

هذا يبيّن أن الخلايا المخلَّقة بالتوالد الذاتي في الثدييات لا يتمّ تعطيلها دائمًا. ففي حالة هذا الولد كانت هذه الخلايا قادرة على خلق نظام دموي طبيعي.

## التوالد الخنثوي

توجد في الجنس الشاذ غددٌ تناسليةٌ لكلا الجنسين؛ فإن أعضاء التناسل الخارجية تبدي ملامح كلا الجنسين، وتُبدي الكروموسومات تركيبة ذكرية – أنثوية مشتركة (XX/ XY).

هناك دراسة أُجريتْ في هولندا عام ١٩٩٠ بعنوان: (Combined Hermaphroditism and Auto-fertilization in a domestic rabbit) "اشتراك التوالد الخنثوي والتلقيح الذاتي في حالة أرنب منـــزلي". تقول هذه الدراسة إن أرنبًا خنثويًا حقيقيًّا تزاوج مع العديد من الإناث وتسبب في ولادة أكثر من ٢٥٠ مولودًا من كلا الجنسين؛ وفي مرحلة أخرى حَمَل "الأرنبُ نفسه" دون أي اتصال بأي ذَكَرٍ وأنجب سبعةَ صغار تامة الخلق من كِلا الجنسين. ولما أُجريتْ عليه عملية التشريح فقد تم العثور على مبيضَينِ مهيَّأَينِ للإخصاب وآخرينِ عقيمينِ؛ وذلك في حالة الحمل. وعند تشريح هذا الأرنب — وهو حامل– وُجد أن لديه مبيضين يعملان بصورة طبيعية وكذلك وجد لديه خصيتان عقيمتان. وكشف تحضير كروموسومي عن عدد صبغي مضاعف من خلايا الكرموسومات الجسدية وزوجين من الكروموسومات الجنسية بتركيبة مبهمة.

ولقد تمت دراسة حالة للخنثوية البشرية في قسم Obstetrics and Gynaecology (النساء والتوليد) في شيكاغو في مستشفى

Lying-in في ولاية إلينوي[٤]. وقد كان الهدف من هذا البحث هو تحديد حالات الحمل التي ينتج عنها أجنَّة تحمل خلاياها المركب الوراثي: ٤٦ كروموسومًا جسديًا + زوجًا من الكروموسومات الجنسية إمَّا xx أو xy. هذا التكوين الوراثي يُطلق عليه من الناحية العلمية: الخنثوية الحقيقية، وكذلك تضمن البحث تسجيل الحمل الأول الذي ينتج من تزاوج اثنين من ذوي الخنثوية الحقيقية أي من تحمل خلاياهم ٤٦ كروموسومًا جسديًا + زوجًا من الكروموسومات الجنسية إمَّا xx أو xy وبالتالي لهما كلٌّ من أعضاء التناسل للذكر وللأنثى.

ولقد تضمن تصميم هذه الدراسة دراسات جينية تمت على الكريات البيضاء والخلايا الليفية للمريض ومولدات مضادات الخلايا الحمراء ومولدات مضادات الكريات البيض ووجود الكروموسومة Y وحمض الديوكسسيرباونكليك آسيد (DNA) حيث تم تحليلها. ولقد تمت مقارنة النتائج مع معطيات زمرة الدم للأبوين والإخوة.

ولقد بينت نتائج هذه الدراسات أن مريضنا هو كائن غريب يحتوي على عناصر مختلفة؛ حيث نجد في أعضائه على الأقلّ نوعين من الأنسجة تختلف في تركيبها الجيني، وهكذا بمساهمات

[٤] Journal of Fertility and Sterility - JC: evf 57(2): 346-9 1992 Feb

ثنائية أمّية وأبوية. وبالإضافة إلى ذلك، وبالرغم من وجود الخصية، فقد حملت وولدت طفلاً.

إنه ليس مما يهم الكاتب أو الواعظ المسيحي أن يسهّل ويبسِّط المسيحية ليجعلها مناسبة لعامة المثقفين من الناس. لقد كانت عقيدة تجسد المسيح – أي اتحاد الألوهية والناسوتية فيه – حجر عثرة لليهود، أمَّا بالنسبة لليونانيين فكانت ضربًا من الجنون. وهكذا يكون الحال دائمًا بالنسبة للمعتقدات، فإنها ليست فوق الإدراك فحسب بل تبدو لأول وهلة معضلة مناقضة للعقل أيضا، ولكن لا سبيل لإثباتها إلا بالإيمان وبالروح المتقدة بالعواطف والشوق. ولو استُبدِل الإيمانُ بالعقل والمنطق لكان ذلك موتًا للمسيحية.

"كيركيجارد"